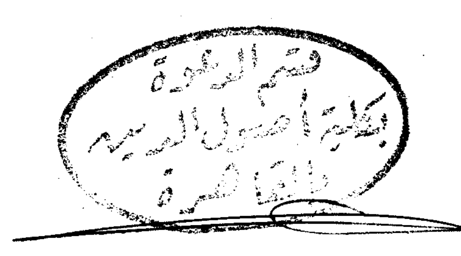
مقدمات
فى النظم الإسلامية

الدكتور
محمدى عبدالبصير خضيرى

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٣/١٨٢٧٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق الإنسان بقدرته، وفضله وكرمه على كثير من خليقته فجعله فى الأرض خليفته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له منح الإنسان أسباب هدايته، فعلمه الأسماء وألهمه البيان، وأرسل إليه الرسل وأنزل إليه الكتب وجمعها فى مسك الختام القرآن. وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله - ﷺ -الذى جعل الله رسالته خاتمة الرسالات الإلهية، ومصدر التشريعات والنظم الربانية، فجاءت شاملة كاملة تامة عامة متوازنة تجمع بين الثبات والمرونة. اللهم صلاة وسلاما عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين...

وبعد

فالنظم مظهر من مظاهر الرقى الحضارى والتقدم الإنسانى، ولا يستغنى مجتمع عنها مهما كانت مكانته من التقدم أو التخلف، وذلك لأسباب داخلية وخارجية تتصل بالإنسان، وقد بدأ الإنسان رحلته فى الوجود منظما بمنهج الوحى الإلهى، الذى نظم حياة الإنسان فى جوانبها المتعددة ، عقيدة وشريعة وأخلاقا، تنظيميا يضمن للإنسان الاستقرار والأمن الفردى والمجتمعى، يقول تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(١).

وقد جمعت النظم الإسلامية بين القوانين وبين الأسس الفكرية والتربوية التى تقوم عليها هذه القوانين فيما يشبه فلسفة النظم الإسلامية

---

(١) سورة طه: آية ١٢٣، ١٢٤.

وبمرور الأزمان وتعاقب الأجيال حاذ فريق من الناس عن منهج الله، منهم منْ حرف النظم الإلهية ومنهم من أله العقل والمادة، ومن ثم فالإنسان إما أن يكون مؤمنا بالنظم الإلهية أو مؤمنا بالنظم الوضعية البشرية، وهذا يلقى بمسؤولية البحث عن الحقيقة على الإنسان الذى منحه الله أسباب الهداية وجعل فى نظمه سبحانه هى الأخرى أسباب الهداية، وأقام فى الكون قوانين وأسباب التأمل التى تأخذ بالعقل والقلب الإنسانى إلى الإيمان بالله، وقد ظهرت فى حياة الإنسان نظم كثيرة تحمل مسميات عديدة، يبقى الإنسان منها مايشاء ويغير منها مايشاء، وذلك لمعالجة العجز والقصور فى النظم الوضعية التى لم يجد فيها السعادة المنشودة ولا الأمن المنتظر. ورغم أن النظم الوضعية فشلت فى ميدان الواقع التطبيقى، حيث انهارت الشيوعية، وتأزمت الرأسمالية فزادت الإنسان خوفاً وإرهاقا، إلا أن القائمين على هذه النظم أرادوا أن يصدروها إلى بلاد المسلمين، تحت إشراف مؤسسات غير إسلامية تعبث بها الأيدى اليهودية،

وقد ساعدهم على ذلك غيبة الوعى الإسلامى للمسلمين بسبب الانكباب على الحطام الفانى وتركهم واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يُمارسه المسلمون كأمة تتعامل مع الأمم الأخرى. وهنا أصبح الصراع محتدماً بين النظم الوضعية والنظم الإسلامية.

ولغة الصراع ليست علمية ولا موضوعية، وإنما هى سلاح الجاهل الغافل، وكان الأولى أن يلتزم غير المسلمين بالموضوعية وتطبيق أسس المنهج العلمى الذى يأخذون به.

فمصادر النظم الإسلامية ثابتة وقائمة قرآنا وسنة ويستطيع الدارس لهذه المصادر أن يقف على خصائص هذه النظم ليرى أنها تجمع بين الربانية والعموم والشمول والواقعية والأصالة والمعاصرة إلى غير ذلك مما

تتمتع به النظم الإسلامية فقد جاءت مصاحبة للإنسان منذ نشأته تحقق له الإصلاح والمصالح وتجعل منه المثل الكامل والقدوة الصالحة يستمتع من الحياة بالطيبات فى جسم قوى وقلب سليم وعقل واع وفكر مستنير يرعى شؤونه ويحافظ على روح الجماعة ويسعى معهم لتحقيق رسالة أمته تحقيقاً لسلام العالم وأمنه.

وانطلاقاً من هذا كان هذا البحث «مقدمات فى النظم الإسلامية»والذى دفعنى إليه توجيه أساتذتى فى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، وكذلك الوضع الراهن للنظام العالمى الجديد، فاستخرت الله وأخذت لهذا العمل أسبابه ووسائله فاستشرت العلماء فى قضاياه ورجعت إلى المصادر الإسلامية والأبحاث الفكرية التى تتصل بموضوع هذا البحث، وانطلقت فى ذلك من الكتاب والسنة بعيداً عن الإفراط والتفريط والتهوين والتهويل جاعلا طلب الحق قبلتى ومعرفة الصواب غايتى.

واتخذت منهج القرآن سبيلى فى تحقيق قضايا هذا البحث.

وجعلت أفكاره واضحة مترابطه، مراعايا اليسر فى التعبير والسهولة فى الألفاظ، وذلك من خلال عناصر تخدم الموضوع وتزيده وضوحاً فى عقل القارئ المطالع.

وقد جاء هذا البحث فى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: النظم مفهوماً ونشأة.

الفصل الثانى: المجتمعات والنظم.

الفصل الثالث: مصادر النظم.

الفصل الرابع: خصائص النظم.

الفصل الخامس: آثار النظم فى المجتمعات.

وقد تناولت هذه الفصول من خلال النظم الإسلامية والنظم الوضعية.

وبعد فأسأل الله التوفيق والهداية، وقد بذلت قصارى جهدى محاولا تحقيق بغيتى وأداء أمانتى فإن أدركت ذلك فالحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات، وإن كنت غير ذلك فقد سبقتنى نيتى والله أهل التقوى وأهل المغفرة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

الفصل الأول

النظم مفهوما ونشأة

المبحث الأول: مفهوم النظم

المبحث الثاني: نشـأة النظـم

المبحث الأول

مفهوم النظم

أولاً: في اللغة:

يحتاج الباحث عن معانى الألفاظ الطالب للفهم الصحيح أن يرجع إلى قواميس اللغة يستوضحها ويسترشد بها فيما تشير إليه حول الألفاظ التى يريد فهم معانيها.

وقد جاءت مادة نظم فى المعاجم اللغوية مشيرة إلى المعانى المتعددة. يقال: النظم: التأليف، ونظمت اللؤلؤ أى جمعته فى السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته، وكل شئ قرنته بآخر أوضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته»[١] ويقال: ليس لأمره نظام أى لاتستقيم طريقته، وليس له هدي ولامتعلق ولا استقامة. ومازال على نظام واحد، أى عادة»[٢].

والنظام: الترتيب والاتساق. ويقال:نظام الأمر: قوامه وعماده[٣]. وتناظمت الأشياء: تضامت وتلاصقت»[٤] وجاءنا نظم من جراد، وهو الكثير»[٥].

وعلى هذا فالمعانى التى تفيدها مادة نظم تدور حول: الجمع والاقتران والترتيب والتأليف والاتساق، وهذا بغرض التكثير والتكثيف فجمع المتفرقات والمتشابهات فى الموضوع والشأن الواحد تكثير وتكثيف وتعظيم.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٥/٤٤٦٩.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) المعجم الوسيط ٢/٩٣٣.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) لسان العرب ٥/٤٤٦٩.

وقد أضفت اللغة العربية على مادة نظم مسحة جمال من خصائصها التى تتميز بها فجمعت بين الأمور المادية والمعنوية التى تتصل بالإنسان فى كل ماحوله زمانا ومكانا، وذلك مثل تنظيم أوقات العمل والراحة والتزاور، ومثل تنظيم الأعمال والصناعات والأمور المعيشية وغير ذلك، ومثل تنظيم الإنسان لعاداته وسلوكه وسيرته وهديه وأفكاره.

وقد أعطى هذا المدلول اللغوى لكلمة نظم فى اللغة العربية اتساعاً وشمولية قلما أن يوجد فى لغة أخرى.

وهذا المدلول اللغوى أقرب مايكون إلى الطبيعة الإنسانية التى تجمع بين المادية والروحية.

ثانياً: فى الاصطلاح:

يرتبط التعريف المصطلح عليه للأشياء بالقدرة على تصورها، والتصور مرتبط بالفهم وشموليته وعمقه. ومن هنا تعددت وتنوعت التعريفات لمصطلح النظم.

١) مفهوم النظم الوضعية:

تعددت أقوال علماء الاجتماع فى النظام والنظم على تعدد مدارسهم وتنوع أفكارهم.

وفى البداية نقول: «يستخدم مصطلح نظام اجتماعى فى علم الاجتماع للإشارة إلى كل ماهو ثابت ومقرر فى المجتمع»[١].

ويرى (جولدنر) أن النظم هى الطرق المقننة لحل مشكلات المجتمع[٢].

---

(١) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الإجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٤٤.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية لطلاب قسم الاجتماع. نخبة من أساتذة قسم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ص ٢٤٤.

أما كولى وديفيز فإنهما ينظران إلى النظم على أنها مركبات واسعة من المعايير التى يقرها المجتمع ليعالج بها أو ليقابل بطريقة منظمة مايعتبره حاجاته الأساسية.

ويقول ديفيز فى محاولة تحديد أوضح: «إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر، مكونة أجزاء من البناء الاجتماعى، تعرف بتنظيمها المحكم وتمايز وظائفها»(١).

والمتأمل فى مفهوم النظم لدى علماء الاجتماع يرى أنه «ليس هناك تطابق تام بين النظام والحاجات المجتمعية، فالحاجة الواحدة قد يشترك فى إشباعها أو تحقيقها أكثر من نظام على الرغم من أنها قد تمثل لبعض النظم وظيفة ثانوية»(٢)، وهذا بدوره يؤدى إلى فقدان النظم خاصية الترابط والوحدة فى الهدف والغاية والتعاون لبناء الإنسان السوى.

«فالأسرة - مثلا - باعتبارها من النظام الاجتماعى لايمكن أن تدرس بمعزل عن النظم الأخرى التى تؤثر فيها، والتى قد تحدد مستقبل نموها كالنظم الخلقية والنظم الاقتصادية والنظم السياسية وغيرها، ولذلك فإدراك العلاقات المتبادلة لجميع النظم أمر جوهرى لفهم الحياة الاجتماعية»(٣).

وبناء على ذلك جاءت رؤية علماء الاجتماع لمفهوم النظم «رؤية قاصرة حيث كانت نظرتهم إلى النظم البشرية فحسب، ولم ينظروا إلى النظم التى جاءت عن طريق الوحى، وذلك لأنهم نظروا إلى الدين نظرة قاصرة فجعله

---

(١) د. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع ص ٢٤٥.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٥.

(٣) نفس المصدر.

بعضهم نظاماً من النظم التى يصنعها الإنسان أو المجتمع، وذلك خطأ علمى كبير وقع فيه علماء الاجتماع فى البيئات التى عرفت الرسالات المحرفة فعزلتها، ولا يليق تقليدهم هذا فى البيئات التى عرفت صفاء الوحى ونقاءه فى الإسلام»(١).

٢) النظم فى مفهوم الإسلام:

تتصل النظم بالدين الإسلامى اتصالاً وثيقاً تمتد جذوره إلى المدلول اللغوى لكلمة النظم فبينهما علاقة لغوية وثيقة، فكلمة الدين فى اللغة «تمثل فى الذهن العربى تصورات أربعة أساسية:

أولهـا: القهر والغلبة من ذى سلطة عليا.

والثانى: الاطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذى السلطة.

والثالث: الحدود والقوانين والطريقة التى تتبع.

والرابع: المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب.

وكانت العرب تستعمل هذه الكلمة قبل الاسلام بهذا المعنى تارة أخرى حسب لغاتهم المختلفة. إلا أنهم لما لم تكن تصوراتهم لتلك الأمور الأربعة واضحة جلية ولا كان لها من السمو والبعد نصيب، كان استعمال كلمة (الدين) مشوبا بشوائب اللبس والغموض. ولذلك لم يتح لها أن تكون مصطلحا من مصطلحات نظام فكرى متين. حتى نزل القرآن فوجد هذه الكلمة ملائمة لأغراضه، فاقتناها واستعملها لمعانيه الواضحة المتعينة واصطنعها مصطلحا له مخصوصا. فأنت ترى أن كلمة (الدين) فى القرآن الكريم تقوم مقام نظام بأكمله. يتركب من أجزاء أربعة هى:

---

(١) انظر د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الإسلامية، هجر للطباعة والنشر ١٩٨٧ ص ٧.

١) الحاكمية والسلطة العليا.

٢) الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة.

٣) النظام الفكرى والعملى المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية.

٤) المكافأة التى تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له»[١].

ومن الأمثلة على المعنيين الأول والثانى قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ⑪ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[٣].

ومن الأمثلة على المعنيين الثالث والرابع قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[٧].

وهكذا فكلمة الدين تشير إلى النظام والنظم ولكنها ليست على إطلاقها، بل لابد أن تقيد بالدين الإسلامى لتخرج كل ماعداه مما يسمى دينا سواء كان وضعيا أو محرفاً لأنها لاتحتوى على نظام

---

(١) أبو الأعلى المودودى: المصطلحات الأربعة فى القرآن، دار التراث العربى ١٩٧٥ ص ٨١.

(٢) سورة الزمر الآية: ١١، ١٢.

(٣) سورة النحل آية: ٥٢.

(٤) سورة يوسف آية: ٧٦.

(٥) سورة الشورى آية: ٢١.

(٦) سورة الكافرون آية: ٦.

(٧) سورة الذاريات آية: ٥، ٦.

كامل بل يعتريها القصور فى كثير من جوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وهذ ماأفاده القرآن الكريم فهو «يستعمل هذه الكلمة مصطلحا جامعاً شاملا يريد به نظاما للحياة يذعن فيه المرء لسلطة عليا، ثم يقبل إطاعته واتباعه ويتقيد فى حياته بحدوده وقواعده وقوانينه ويرجو فى طاعته العزة والترقى فى الدرجات وحس الجزاء، ويخشى فى عصيانه الذلة والخزى وسوء العقاب. ولعله لايوجد فى لغة من لغات العالم مصطلح يبلغ من الشمول والجامعية أن يحيط بكل هذا المفهوم»[١].

وعلى ضوء ماقدمنا من الممكن أن نقول: إن النظم تساوى الدين الإسلامى، هذا على سبيل الإجمال، أما على سبيل التفصيل والبيان فمن الممكن أن نقول: النظم الإسلامية هى القواعد والقوانين والحدود الإلهية التى شرعها الله – تعالى – للإنسان لتقوده إلى السعادة فى كل المجالات ومختلف العلاقات فى الحياة وبعد الممات.

أو أن نقول: «هى القواعد والمبادئ والعادات التى تقوم عليها الحياة فى ظل الإسلام – عقيدة وشريعة وخلقا – والتى تحدد للإنسان حركة نشاطه فى كافة المجالات ومختلف العلاقات»[٢].

ويمكننا أن نعرف نظام الإسلام ككل بأنه هو ماتفيده مجموعة القواعد والمبادئ التى جاء بها الإسلام لتحديد النشاط البشرى فى الحياة على مستوى الأفراد والجماعات داخل إطارها»[٣].

---

(١) أبو الأعلى المودودى: المصطلحات الأربعة فى القرآن ص ٨٥.

(٢) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته، مكتبة المسلم العصرية إسلاميات ٢ه المؤسسة العربية الحديثة ١٩٨٨م ص ٩.

(٣) د. عبدالغفار عزيز وآخرون: أضواء على النظم والثقافة الاسلامية، مؤسسة الوفاء للطباعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ص ٦.

المبحث الثانى

نشأة النظم

بعد أن وقفنا على ماهية النظم ومفهومها عند علماء الاجتماع وفى المفهوم الإسلامى يتسنى لنا أن نبحث قضية أخرى ألا وهى نشأة النظم وتاريخها، ويحق لنا عند ذلك أن نسأل سؤالا هو من الأهمية بمكان. فنقول: متى عرف الإنسان القوانين فى حياته؟ ومتى خضع الإنسان للنظم والنظام فى تنظيم حياته؟ وماهى معتقدات الناس فى ذلك؟ وماهو موقف الباحثين؟ وحتى تأتى إجابتنا علمية موضوعية لابد أن نعرض للآراء الواردة بشأنها.

أولاً: نشأة النظم الوضعية:

يصور لنا بعض المتخصصين فى علم الاجتماع هذه القضية فيقول: «لقد نشأت النظم الاجتماعية من خلال اجتماع الأفراد، وتبادل أفكارهم، واتحاد مصالحهم بصفة تلقائية، فظهرت قواعد خاصة لتحقيق دوافعهم الاجتماعية وحاجاتهم الضرورية وأهدافهم المشتركة، وسرعان ماترسبت هذه القواعد فى بنية المجتمع وتركيبه، ويكتب لها الاستقرار النسبى، وتنفعل بها مشاعر الأفراد. هذه القواعد والأوضاع والقوالب العامة هى مانسميه بالنظم الاجتماعية»(١).

إذن فالنشأة ليست محددة ولا واضحة وإنما هى ترجيحية أكثر منها حقيقية ولايصح بشأنها حقيقة مسلمة، وهذا بدوره يلقى بظلال التضليل المتعمد حتى يعيش الإنسان حياته بعيداً عن المصدر الحق فى ذلك والرأى الصواب، وهذا يشير إلى أصابع أعداء الدين الخفية التى تعبث بالعقول

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع المفاهيم والقضايا، المكتب الفنى بالزيتون ص ١٦٧.

حتى تصرفه عن غايته السامية ومهمته الحقيقة التى خلق من أجلها، لأنه مما لاشك فيه أن معرفة الإنسان بنشأة النظم وتاريخها يعطى وجوده قيمة وأهمية وهنا يأتى دليل العناية الإلهية بالإنسان منذ خلقه واستخلافه فى الأرض، وتبدو أهميته ووقوفه فى وجه المادية الملحدة.

وتبدو علامات الاضطراب واضحة وجلية على آراء علماء الاجتماع فيما يخص نشأة النظم من خلال موضوع بحثهم وتعدد جوانبه واختلافهم فى تحديد مفهومه ومدى أهمية كل نظام بالنسبة للآخر.

ومن هنا كان الخلط بين وجود النظم فى حياة الإنسان وبين بداية اهتمام أوربا وغيرها بموضوع النظم.

ويوضح مقصودنا ماجاء فى «المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية» تحت مصطلح «نظام اجتماعى»: «يستخدم فى علم الاجتماع مثل استخدامه الإنجليزى الشائع للإشارة إلى كل ماهو ثابت ومقرر فى المجتمع، وقد ظهرت عبارة «نظام رأس المال» و «نظام الأسرة» فى أعمال أوجست كونت فى القرن التاسع عشر»(١).

وهكذا فالاسهامات حول نشأة النظم من علماء الاجتماع عديمة الجدوى، وعلى العكس فقد ساهمت فى الإلحاد، كما أن اسهاماتهم فى هذا العلم لم تبدأ إلا فى القرن التاسع عشر، وهى اسهامات نظرية لم يكن لها جانب تطبيقى، والأبواب المطروقة عندهم قليلة وفقيرة كما سنعرض فى حينه إن شاء الله تعالى.

وقد تعددت النظريات حول تكوين المجتمع البشرى ونشأته وجاءت على النحو التالى:

---

(١) مصدر سابق ص ٢٤٤.

* أن أساس الجماعة كان يقوم على صلة روحية تجمع أفرادها على تقديس شئ مشترك، تعتقد أنها نسلت منه، يسمى: التوتم[١].

* أن هذا الأساس هو القبيلة أو العشيرة.

* أن الأساس هو الأسرة[٢].

وكانت صلة الإنسان بالنظم فى ذلك الوقت «تقوم على القوة فكانت الجماعات هى التى تنشئ الحق وتحميه وهى الحكم فى كل خصومة والفيصل الحاسم لكل نزاع، وكان القوى هو صاحب الحق فى كل مايناله بالغلبة والقهر»[٣].

وأمام هذه النظريات تبقى النظم فى حياة الإنسان غير واضحة المعالم، فهو فى نظرية التوعية ينتمى مع الأفراد الآخرين إلى توتم واحد، «فإذا كان هذا التوتم هو الذئب مثلا، فهذا يعنى أنهم يؤلفون مع فصيلة الذئاب وحدة اجتماعية، وأسرة مشتركة ذات طبيعة واحدة»[٤].

وفى نظرية القبيلة أو الأسرة الأمية - أى التى تنتسب إلى الأم - كان الأفراد لايخضعون إلا للقوة فى أمورهم، وكانت النساء مشاعا للرجال، والولد لاينسب لغير أمه»[٥].

وقد استند أصحاب هذا الرأى إلى نظرية التطور إلى الأفضل التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ونادى بها العالم الانجليزى «داروين». كما حاولوا دعمها ببعض مايجرى فى بعض النظم قديما وحديثاً»[٦].

---

(١) التوتم هو عبارة عن حيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية، تعتقد الجماعة أنها تناسلت منه.

(٢) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى مطبعة حسان ١٩٨٤ ص ١٠.

(٣) د.محمد طموم: الإنسان الأول والتشريع السماوى ١٩.

(٤) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى ص ١١.

(٥) د. على بدوى: أبحاث فى التاريخ العام للقانون ص ١٧.

(٦) د. محمد طموم: مصدر سابق ص ١٤.

وفى النظرية الثالثة - نظرية الأسرة - ذهب علماء الاجتماع إلى أن الأسرة الأبوية التى تقوم على رابطة الدم من جهة الأب والجد كانت هى الخلية الأولى، حيث كانت الأسرة التى تتألف من زوجين وأولاد، ويكون الأب هو صاحب السلطة فيها وينسب الأولاد إليه. هى أساس الوحدة الاجتماعية الأولى ومنها تكون المجتمع البشرى على ظهر الأرض»[١] وفى تقييم النظريات الثلاث يرى البعض أنه «يصعب ترجيح أحد الآراء الثلاثة»[٢].

وقد أدى الخلط فى نشأة الانسان إلى الخلط فى نشأة النظم وتاريخها وأصبح الأمر أقرب مايكون إلى التخمين والرجم بالغيب. فأين تكون الحقيقة ؟

ثانياً: نشأة النظم فى التصور الاسلامى:

١) الإنسان الأول والنظم (آدم) عليه السلام:

ترتبط النظم فى وجودها بوجود المجتمع، والإنسان هو أساس المجتمع، وقد تناول القرآن الكريم قضية بداية المجتمع الأول ونشأته ببيان خلق الإنسان الأول وهو آدم - عليه السلام - والذى جاء على النحو التالى:

* التقديم لخلق الإنسان وذلك فى قول الله - تعالى -: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[٣].

* خلق الإنسان الأول وبيان طبيعته وعناصره، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[٤]. وقوله تعالى:

---

(١) نفس المصدر ص ١٦.

(٢) د. صوفى أبو طالب: مبادئ تاريخ القانون، دار النهضة العربية بمصر ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ص ٤٨، ٤٩.

(٣) سورة البقرة آية: ٣٠.

(٤) سورة الحجر آية: ٢٨، ٢٩.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[١].

فأما قبضة الطين فهى الجسد البشرى الذى يحتوى على ذات العناصر التى يتكون منها طين الأرض. وأما نفخة الروح فلا نعلم شيئاً عن كنهها ولكننا نرى آثارها واضحة فى قبضة الطين. فعن طريقها منح الإنسان كيانه الإنسانى المتفرد، الذى تميز به عن المادة وعن الحيوان»[٢] ومن آدم خلق الله زوجه حواء، ومنهما بدأ التناسل والتكاثر البشرى وتكونت القبائل والشعوب والمجتمعات والأمم.

وإذا أردنا أن نعرف بداية المجتمع، فإن الله – سبحانه – ذكر أن المجتمع الإنسانى بدأ برجل وامرأة هما آدم وحواء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٣]. وتوضح هذه الآية أن ذرية آدم وحواء تكاثرت منهما وتطورت إلى شعوب وقبائل، وهذا ماتوضحه الآية الأخرى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾[٤]. ولم يقتصر الأمر على الشعوب والقبائل، بل حتى هذه تطورت فى نهاية الأمر إلى مايسمى بالأمم، حيث تعتبر العقائد والأديان هى المميزة بينها»[٥] وإليها الاشارة بقول الله – تعالى –: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٦]. وإقامة الأمة أمر إلهى ومطلب ربانى

---

(١) سورة ص آية: ٧١، ٧٢.

(٢) محمد قطب: حول التفسير الاسلامى للتاريخ، مؤسسة بدران ص ٣٧.

(٣) سورة الحجرات آية: ١٣.

(٤) سورة النساء آية١.

(٥) منصور زويد المطيرى: الصياغة الاسلامية لعلم الاجتماع الدواعى والامكان، كتاب الأمة ٣٣ ط أولى ١٩٩٣م ص ١١٠.

(٦) سورة آل عمران آية: ١١٠.

وواجب دينى إجتماعى وهذا مايشير إليه قول الله - تعالى - :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

ومما سبق يقرر القرآن الكريم الحقائق التالية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية المجتمعات:

* أن آدم هو الإنسان الأول الذى خلقه الله خلقا مستقلا منفصلا عن بقية الأجناس الأخرى للاستخلاف فى الأرض وعمارتها بمنهج العبادة لله.
* أن الله خلق له زوجه حواء من نفسه لتكون المودة والرحمة والسكن بينهما أتم وأكمل وأشمل وأعم، وبذلك كانت النواة للأسرة الأولى.
* ومنذ هذه اللحظة بدأت الأسرة الأولى فى التكاثر والتناسل فكان أولاد آدم، وهذا مايقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وأما عن موقف الانسان الأول من النظم والقوانين والقواعد المنظمة لحياته بما فيها من معتقدات وأفكار ومعاملات وأخلاق، «فمن الأمور البدهية حاجة المجتمع إلى قانون ينظم العلاقة بين الأفراد، ويقضى على النزاعات والخصومات، ويحكم ويعدل. وقد اتبع آدم - عليه السلام - وزوجه القانون الإلهى، وهو الدين الحنيف»[3] وقد بينت آيات القرآن الكريم هذا الجانب أوضح بيان، فآدم نال من التكريم الإلهى مالم ينله مخلوق آخر، وأوليات التكريم تقتضى المحافظة على هذا المخلوق ولايتم ذلك إلا بالنظم والقوانين والقواعد

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٢) سورة المائدة آية ٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ١١٢.

تلك التى تبينها الشرائع الإلهية يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١).

وآدم – عليه السلام – علمه الله الأسماء كلها وخصه دون بقية المخلوقات بالبيان، ومن جملة الأسماء التى علمه الله إياها النظم والقواعد، وقد استوعبها آدم واستظهرها من خلال خصيصة البيان. يقول تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾(٣).

هذا على سبيل الاجمال أما على سبيل التفصيل والبيان فهناك علامات ومعالم واضحة فى حياة آدم تؤكد مصاحبة النظم له منذ البداية، فقد نظم الله له حياته الزوجية وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾(٤). أى أن حواء كانت زوجة لرجل واحد هو آدم – عليه السلام – ولم تكن مجرد امرأة، وإنما كانت زوجة أى قرينة له، تقوم الحياة بينهما على مواثيق وعهود مغلظة، لكل منهما فى هذه الحياة دوره وعمله.

وظهرت صورة النظام والقانون الإلهى فى حياة آدم من خلال مفردات القانون والتى تتمثل فى المأمورات والمحظورات، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥). ومن جملة القوانين الإلهية التى أوحاها الله إلى آدم لتنظيم حياته ماجاء فى قول الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء آية: ٧٠.
(٢) سورة الرحمن آية ١:٤.
(٣) سورة البقرة آية ٣١.
(٤) سورة البقرة آية ٣٥.
(٥) سورة الأعراف آية ١٩.
(٦) سورة طه آية: ١١٧.

وهكذا «لم يترك الله – تعالى – حياة هذه الأسرة تسير فوضى، دون تنظيم وضوابط تحكم سلوك الزوجين، وإنما إراد الله – سبحانه وتعالى – أن ينظم حياتهما ويدربهما على النظام والطاعة»(١).

ولم يكن هذا جديداً على آدم فقد عاشر من قبل «قانونا صدر لغيره، وخوطب به الملائكة، ورأى آدم عاقبة مخالفته، وهو مايبينه قول الله – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٣).

ولم يقف القانون الذى صدر للملائكة على الأمر بالسجود – وهو محتمل التنفيذ وعدم التنفيذ – وعلى صدور الحكم من الحاكم – جل وعلا – بالجزاء والعقوبة، بل أضيف إلى ذلك تنفيذ الحكم، وإيقاع الجزاء على المجرم العاصى الخارج على القانون، فإذا نظرنا إلى الأمر الصادر من الله للملائكة وتنفيذ الأمر، وظهور تمرد وعصيان ومخالفة من أحد المأمورين، وصدور الحكم وتنفيذه، نجد أن عناصر القاعدة القانونية وخواصها موجودة ومتحققة، كما هى موجودة ومتحققة فى القانون الصادر للأسرة الأولى، المكونة للمجتمع الإنسانى»(٤).

ولما نزل آدم إلى الأرض نزل مزوداً بهذه التجربة العملية وذلك لأهمية النظام ودوره فى إصلاح حياة الفرد والجماعة، وقد تلقى آدم من ربه أول دستور جامع لقواعد وقوانين ومبادئ إدارة الحياة والاستخلاف فى الأرض وإلى هذا يشير قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

---

(١) د. محمد طموم: الانسان الأول والتشريع السماوى ص ٥٩.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٤.

(٣) سورة ص آية: ٧٥: ٧٨.

(٤) المصدر السابق ص ٦٢.

إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ ﴾(١). وأعلن الله آدم أن التشريع والقانون هو ماكان من عند الله وحده لاشريك له، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٢). وفى قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾(٣). وهكذا فخصائص النظم كانت واضحة فى حياة الإنسان منذ الأسرة الأولى، وإلى هذا تشير كلمة (هدى) التى تفيد النظام كما سبق فى المعنى اللغوى لكلمة نظم.

وفى قصة ابنى آدم توضيح وبيان لرحلة الإنسان مع النظم الإلهية، وقيامها منذ اللحظة الأولى ترعى جوانب حياته المتعددة، يقول تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٤).

يروى ابن كثير عن ابن عباس قال:«نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى دميمة فقال أخو الدميمة

---

(١) سور البقرة آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية ٣٨، ٣٩.

(٣) سورة طه اية ١٢٣، ١٢٤.

(٤) سورة [illegible] ٣١.

أنكحنى أختك وأنكحك أختى فقال لا أنا أحق بأختى فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله»[١].

٢) معالم النظم فى حياة آدم وأسرته:

ظهرت معالم النظم فى حياة آدم وأسرته من خلال الحقائق القرآنية على النحو التالى:

* أن الأسرة كما رأينا هى الخلية الأولى للمجتمع الإنسانى، وفى ذلك الذى ورد فى القرآن الكريم ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٢] رد كاف على من يقول: إن أساس الخلية الاجتماعية هو القبيلة أو العشيرة.

* أن هذه الأسرة كانت أسرة أبوية، والقيادة فيها كانت للزوج آدم، حيث توجه الخطاب فى كل الأحوال، سواء أكان الخطاب من الله أم الوسوسة من الشيطان ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾[٣].

---

(١) قال ابن كثير: إسناده جيد. تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار التراث ٢/٤٢.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٥ سورة النساء آية: ١.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٩، ٢٠. سورة طه : آية ١١٦ : ١٢٠.

* علم الله آدم معنى القانون والنظام، ومايترتب على الطاعة والمعصية والفرق بينهما.
* علم الله الإنسان أموراً كثيرة ومعانى متعددة لايمكن حصرها، منها على سبيل المثال:

الجنة والنار، الخلود والتأقيت، الكفر والتسليم، المعصية والطاعة، الكبر والخضوع، المتعة والشقاء، السكن والاستقرار والخوف والحزن، الأمر والنهى والاباحة، يوم القيامة والحشر، الهبوط والخروج، الهدى والاعراض، العرى والستر (العورات) الجوع والظمأ، وغير ذلك[1]. ومن المعالم التى نستخلصها مايأتى:

* أن تشريع الزواج كان موجوداً، وأنه لم يكن مباحاً بكل النساء، وأن بعض النساء كن محرمات على بعض الرجال، فلا يجوز الزواج بهن.
* أن الزواج بدأ برجل وامرأة واحدة، دون تعدد مطلقا، حيث لاتعدد فى النساء ومن باب أولى لم يوجد تعدد فى الرجال بالنسبة للمرأة الواحدة، كما يدعى أصحاب النظريات السابقة، القائلون بالنظام القبلى الأمى فى تكوين المجتمع الإنسانى الأول.
* تحريم القتل، وعلم أفراد المجتمع الإنسانى الأول بذلك التحريم، ومايترتب عليه من إثم، ودخول النار، لأن ذلك جزاء الظالمين.
* دفن الإنسان شرع من أول وجود الإنسان وموت أول إنسان على الأرض[2].
* القربى والتقرب، ووسيلة التقرب، وعلامة القبول وعدم القبول، ومن الذى يتقبل منه.

---

(١) انظر د. محمد طموم : الانسان الأول والتشريع السماوى ٥٨، ٥٩، ١٠٤.

(٢) سورة المائدة آية: ٣١.

* الصفات الأخلاقية، التقوى وخوف الله، والمعصية والاثم، والظلم والاعتداء وجزاء ارتكاب المعاصى.
* اليوم الآخر والحساب والجنة والنار[١].

وبذلك يكون آدم -- الإنسان الأول - قد بدأ حياته متبعاً للوحى الإلهى، مما يؤكد أنه كان هناك قانون ونظام وتشريع يحكم سلوكه وتصرفه، بل وتفكيره وقلبه لتصلح عقيدة الإنسان، ويكون مؤمنا بالله - تعالى - خالقه، ولم يقف الأمر على مجرد الارشاد والتوجيه والتنبيه، وإنما كان هناك جزاء وعقاب، وتنفيذ وإيقاع لهذا الجزاء على الفور، وهذا بخلاف العقوبة الأخروية لمن أصر على مخالفة أوامر الله - تعالى - وتمادى فى ذلك وكفر.

وكل هذا يؤكد وجود القانون والتشريع الإلهى الذى بدأ مع الإنسان الأول - آدم - وطبقة آدم على نفسه وعلى أسرته.

٣) النظم فى حياة ذرية آدم - عليه السلام -:

رافقت النظم ذرية آدم من بعده فى كل زمان ومكان، وهذا مايوضحه القرآن الكريم من خلال الحقائق التى تتصل بنشأة المجتمعات الانسانية.

الحقيقة الأولى: إرسال الرسل:

والرسل بشر، ولكل رسول رسالة تحتوى على القواعد والمبادئ المنظمة لحياة من أرسله الله إليهم، وحتى تتضح لنا هذه الحقيقة لابد أن نستعرض بعض النصوص القرآنية الواردة فى هذا الموضوع، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَن

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨

هدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾(١). وهذه الآية تقرر أن الله «بعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة وينهون عن عبادة ماسواه»(٢). فما بقي في الأرض أحد لم تبلغه الدعوة يقول تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(٣). أرسلناه إليهم بشيراً ونذيراً إما بنفسه وإما بما أبقى في أعقابهم من شرائعه من أقواله وأفعاله ورسومه مع مالهم من العقول الشاهدة بذلك، والنذارة دالة على البشارة»(٤). ومن ثم تلاحقت رسالات الأنبياء وتواصلت يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥). وذلك حتى لايبقى لأحد من الناس على الله احتجاج يقول تعالى: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾(٦).

وقد كانت أخبار الرسالات معروفة لدى الأقوام والأجيال، فكان اللاحق على علم ودراية بالأنبياء والرسل السابقين يقول تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾(٧). ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾(٨). ويقول على لسان نبي الله شعيب -عليه السلام- وهو يذكر قومه بالرسل السابقين: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ

---

(١) سورة النحل آية: ٣٦.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٦٨/٢.

(٣) سورة فاطر آية: ٢٤.

(٤) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تخريج عبدالرازق غالب، دار الكتب العلمية لبنان ط أولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ٢١٩/٦.

(٥) سورة المؤمنون آية: ٤٤.

(٦) سورة النساء آية: ١٦٥.

(٧)، (٨) سورة الأعراف آية: ٦٩، ٧٤.

قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾(١). ويقول على لسان مؤمن آل فرعون الذى آمن برسالة موسى -عليه السلام- وهو يذكر قومه برسالات بعض الرسل السابقين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾(٢).

وهكذا أرسل الله الأنبياء والرسل دعاة ومؤسسين ومطبقين للنظم الإلهية فى حياة المجتمعات الإنسانية.

ومن ثم كان عددهم كثيراً ليناسب تفرق الناس شعوباً وقبائل وليقوم بالدور الإعلامى الشامل الكامل الذى يغطى كل الأماكن والبقاع التى وقفت صعوبة المواصلات والاتصالات حائلا أمام جمع الناس على رسالة واحدة حتى جاءت الرسالة العالمية الخاتمة رسالة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- والتى تؤكد نظم الاتصالات الحديثة أن العالم أصبح قرية صغيرة تمثل وحدة واحدة تضمن لها الرسالة المحمدية الخاتمة القواعد والمبادئ والقوانين التى تنظم لها حياتها فى كافة المجالات.

وفى الهدى النبوى شرح وبيان لهذه الحقيقة التى تتصل برسل الله - تعالى - من ناحية كثافتهم فى السابق وتواصلهم الزمانى والمكانى منذ آدم -عليه السلام- وإلى أن وصلت منظومة النبوة والرسالة إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - عن أبى ذر - رضي الله عنه - قال: قلت يارسول الله: كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: يارسول الله: من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت يارسول الله: بنى مرسل. قال: نعم

(١) سورة هود آية ٨٩.

(٢) سورة غافر آية: ٣٤.

خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلا... وأول البنيين آدم وآخرهم نبيك»(١).

الحقيقة الثانية: إنزال الكتب:

جاء الهدى الإلهى المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾(٢). لينظم جوانب الحياة الإنسانية من خلال الكتب التى أنزلها الله - تعالى - على أنبيائه ورسله يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾(٣). وقد أوجب الله على «عباده - فى مواطن عديدة من التنزيل الحكيم - أن يؤمنوا بما أنزل على رسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه على خاتمهم وعليهم أجمعين - من كتب وصحف»(٤). فقال - تعالى -: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٥).

وهذا شأن المؤمنين الصادقين، فالإيمان بالكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء والرسل إيمان بشمولية النظم الالهية وحقيقتها فى حياة الإنسان منذ وجد، وأما الكفر والتكذيب والتفريق بين الكتب المنزلة أو التحريف فيها والتمسك بها مع نزول اللاحق فإن هذا المعتقد يعمل

---

(١) ابن مردويه فى تفسيره. الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى فى كتابه الأنواع والتقاسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزى فذكر هذا الحديث فى كتابه الموضوعات وقدروى هذا الحديث من وجه آخر عن صحابى آخر عند ابن أبى حاتم. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٨٥/١. وأخرجه الامام أحمد فى مسنده بسنده إلى أبى أمامه - رضي الله عنه - ٢٦٦/٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٣٨.

(٣) سورة النساء آية: ١٦٣.

(٤) د. جوده المهدى: الإيمان والتقوى فى القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦ هـ ١٩٩٥/م ٤٠.

(٥) سورة البقرة آية: ١٣٦.

لصالح التيار المادى الملحد الذى يبحث الاجتماع والنظم الإنسانية بعيداً عن الوحى الإلهى الصحيح والعناية الإلهية بالإنسان منذ وجوده. وعليه فقد توعد الله - تعالى - هذا الصنف الأخير بما ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾(٢).

ومن ثم كان الإيمان بكل الكتب التى أنزلها الله على رسله لتنظيم حركة الإنسان فى الحياة هو معتقد الصادقين من أولى الألباب والنهى يقول الله - تعالى -: ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾(٣).ويقول تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(٤).

وقد أوقفنا القرآن الكريم على بعض الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله، وذكرلنا المنهج العام للوحى الإلهى عموماً ومايقوم به هذا الوحى من دور فى حياة الإنسان، بل إن هذا الوحى هو الإنسان نفسه، فالإنسان الصحيح السوى هو الوحى الإلهى فى الايمان به والطواعية. والإذعان والاستجابة له، ومن ثم فكل وحى لايسعد الإنسان فليس بإلهى أو داخله التخريف والتبديل.

---

(١) سورة النساء آية: ١٣٦.

(٢) سورة النساء آية: ١٥٠، ١٥١.

(٣) سورة الشورى آية: ١٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٨٥.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾(١).

هذا بشأن التوراة وقت نزولها، كان فيها الهدى والنور من أصول الشريعة وفروعها فيما يتعلق ببنى إسرائيل، وكانت مصدر الحكم والنظم للأنبياء والربانيين والأحبار، أما بعد ذلك فقد تغير حال التوراة وذلك بسبب الذين استحفظوا عليها يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾(٣).

ومن جمله الكتب التى أنزلها الله - تعالى - الإنجيل، وقال فى شأنه وقت إنزاله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤). وقد شهد القرآن الكريم للإنجيل الصحيح بتحقق صفات خمس فيه وهى: أنه ذو هدى وأنه ذو نور وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة، وأنه هدى وأنه موعظة للمتقين.

ويلقى الفخر الرازى الضوء على هذه الصفات فيقول: «إن الإنجيل هدى بمعنى: أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه وبراءة الله - تعالى - عن الصاحبة والولد، والمثل والضد، وعلى النبوة والمعاد، فهو هو

(١) سورة المائدة آية: ٤٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٧٥.

(٣) سورة المائدة آية ١٣.

(٤) سورة المائدة آية: ٤٦.

المراد بكونه هدى. وأما كونه نورا: فالمراد به كونه بيانا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف. وأما كونه مصدقا لما بين يديه: فيمكن حمله على كونه مبشرا بمبعث محمد - ﷺ - وبمقدمه. وأما كونه هدى - مرة أخرى - فلأن اشتماله على البشارة بمجئ محمد -ﷺ - سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد - ﷺ - ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى فى ذلك لاجرم أعاده الله تعالى مرة أخرى تنبيها على أن الإنجيل يدل دلالة واضحة على نبوة محمد - ﷺ - فكان هدى فى هذه المسألة التى هى أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير. وأما ماكونه موعظة: فلا شتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة، وإنما خصها بالمتقين لأنهم الذين ينتفعون بها»[1].

تلك هى صفات الإنجيل الذى أنزله الله - تعالى على عيسى بن مريم، وأما بعده فقد أصبحت أناجيل ليست من كلام الله - تعالى - ولهذا لم تنسب إليه - سبحانه - وإنما نسبت إلى واضعيها من البشر. يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[2].

وهناك الزبور أنزله الله - تعالى - على نبيه داود -عليه السلام- يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾[3]. وهناك صحف سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ذكرها القرآن الكريم فى

---

(١) مفاتيح الغيب ٣/٤١١.

(٢) سورة المائدة آية: ١٤.

(٣) سورة الإسراء آية: ٥٥.

قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[(١)]. كما كانت هناك صحف لنبى الله موسى - عليه السلام - ، وهذه الكتب حرفها وبدلها أهل الكتاب فأصبحت مصدراً للمتناقضات وأصلاً للإفساد والتفرقة بين بنى الإنسان.

وقد جاءت الكتب الإلهية لتحقق للإنسان أمنه وأمانه فكانت وثيقة الصلة فيما بينها تحمل النظم والقوانين الإلهية التى تربى الإنسان وتنظم له جوانب حياته المختلفة.

وقد تحدثت السنة النبوية الشريفة عن هذا الرصيد الذاخر من الوحى مبينة غزارته ودوره فى حياة البشرية، وذلك كما جاء عن أبى زر - رضي الله عنه - «قلت يارسول الله: كم كتاباً أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب (١٠٤) أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان..»[(٢)].

وبعد أن قطعت الإنسانية شوطاً طويلاً جمع الله كل الكتب السابقة فى القرآن الكريم وجعله مصدر الهداية والنظم الإلهية الوحيد، لايجتمع معه كتاب آخر مهما كانت صلته بالوحى قبل ذلك يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[(٣)].

وما أجمل الإسلام وهو يؤصل للنظم الالهية منذ بداية الإنسان ويجعلها عقيدة وفكراً إسلاميا لايصح الإسلام ولايكمل الإيمان إلا بهذه العقيدة التى تحمل فى طياتها الاقرار بنظم الله، فالمسلم كما رأينا مطالب بأمرين:٠

---

(١) سورة الأعلى آية: ١٨، ١٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٥٨٦/١.

(٣) سورة البقرة آية: ٢.

* الإيمان بالكتب المنزلة على الرسل والأنبياء السابقين.
* الإيمان بالرسل والأنبياء السابقين.

وقد روى الإمام البخارى ومسلم فى صحيحهما الحديث الذى يبين ذلك ويوضحه واللفظ للإمام مسلم عن عبدالله بن عمر قال: حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد بياض الشعر لايرى عليه أثر السفر لايعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى - ﷺ - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، قال يامحمد أخبرنى عن الإسلام: فقال رسول الله - ﷺ -:الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا: قال: صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال فأخبرنى عن الساعة. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرنى عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان. قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى: ياعمر أتدرى من السائل. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان. باب تعريف الايمان والاسلام - شرح النووى المطبعة الأميرية ١٥٧/١.

البخارى فى صحيحه كتاب الايمان، باب سؤال جبريل النبى - ﷺ - عن الايمان والإسلام والاحسان وعلم الساعة وبيان النبى - ﷺ - له فتح البارى، راجعه طه عبدالرءوف سعد، مصطفى محمد الهوارى، مكتبة القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ١٩٢/١.

ثالثاً: موازنة بين النشأتين:

ربط علماء الاجتماع حديثهم وبحثهم فى نشأة النظم ببحثهم فى نشأة الإنسان الذى تطور فى نظرهم عن مخلوقات أخرى، ومن ثم لم يكن حديثهم محدداً ولايقينيا وغاية مايقال فيه: إنه إفتراضات وتصورات تجعل الإنسان فى أسفل سافلين، ولذلك أسباب عديدة نذكر منها مايلى:

* نقل معطيات العلم التجريبى إلى مجالات النظم والاجتماع وتعميم هذه المعطيات فى كل المجالات الحياتية.
* الخلط بين الثوابت والمتغيرات فى الأنفس والآفاق.
* التخلى عن أصول المنهج العلمى فى البحث، ومن ذلك دخولهم فى مجالات لا تتوفر لديهم المعلومات ولا الأدوات الكافية للبحث فيها.
* غياب الجانب الخلقى عن مقاصد البحث والدراسة، وبالتالى غياب العلاقة بين البحث العلمى والغاية العظمى التى تتمثل فى عبادة الله بالمنهج الذى ارتضاه أى الدين الصحيح الذى أنزله لينظم حياة الإنسان فى يسر وسهوله فى كل مجالات الحياة، وهذا يتطلب التخلى عن العصبيات والقوميات والرجوع بالإنسان إلى آدميته التى يشترك فيها الجميع.
* **كان لرجال الدين من أهل الكتاب وغيرهم دور كبير فى إقصاء الدين عن ساحة البحث العلمى وعدم الاقتناع به، ومن ثم كان من بين المجالات التى اهتم علم الاجتماع بدراستها والبحث فيها ماأسموه «بالنظم الدينية» التى تعددت، واختلفت الأديان باختلاف الشعوب تبعاً للقواعد المضطربة التى وضعها علماء الاجتماع.**

ولنا أن نستأنس فى هذا المقام بأقوال بعض الباحثين بغية إلقاء الضوء على جوانب هذه القضية.

إن أخطر مايحاول دعاة التغريب والماديون وأصحاب الفلسفات أن يقولوا: إنهم يصدرون فيما يقولون به من نظريات وأيدلوجيات ومذاهب عن أساس علمى لايقبل النقض، ونحن نعلم أن هناك فارقا بعيداً جداً بين العلم وبين الفلسفة وبين معطيات العلم التجريبى القائمة على البحث والتجربة على النحو الذى يتم داخل المعامل وبين الفرضيات التى لم تؤكدها التجربة بعد، أو التى قال بها العلم فى مرحلة ماثم جاءت تجارب أخرى غيرت هذه المسلمات وتخطتها، ذلك أن الخطأ والخلط إنما يجئ نتيجة تبنى الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها من مجال العلم التجريبى، أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة إلى مجال المفاهيم الإنسانية وقضايا النفس والاجتماع والأخلاق، بينما لاتصلح أساليب العلم التجريبى فى التطبيق على شئون الإنسانيات من نفس وإجتماع وأخلاق، هذه التى يجب أن تدرس وفق منهج غير مناهج العلوم المادية(١).

والسبب فى ذلك يرجع إلى الكنيسة الأوربية فقد كانت «سببا غير مباشر أحيانا وسببا مباشراً أحيانا أخرى فى نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله، وذلك لأن القائمين على هذه الكنيسة أدخلوا فى دينهم كثيراً من الخرافات والخزعبلات، وجعلوها عقائد دينية، كألوهية عيسى - عليه السلام - والصلب والفداء، وأضافوا إلى ذلك كثيراً من الخرافات، الدارجة عن الأرض والكون والحياة، وعندما اكتشف العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة هب رجال الكنيسة ينكرون ذلك، ويتهمون من يعتقد

---

(١) أنور الجندى: معلمة الإسلام، دار الصحوة ١٤١١ هـ ١٩٩١/م ٢/١٠٤.

بالحقائق الجديدة ويصدق بها بالكفر والزندقة، ولكن حركة العلم لم تتوقف وقدم العلماء براهين جديدة على نظرياتهم العلمية فبدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها تهزم كل يوم هزيمة جديدة، فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادى كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس، فكان الرفض لكل المعتقدات الدينية والكراهة العامة لكل عقيدة تنادى بالإيمان بالغيب واتهام الرسل جميعا بالكذب والتدليس وهكذا برزت تيارات الإلحاد العالمى»[١]. وهكذا اتخذت الكنيسة ورجالها الآراء والمواقف التى كان من شأنها أن تذيع فى بعض العصور مذاهب بلغت من التطرف فى الإلحاد أقصى الحدود[٢].

وقد استغل اليهود ذلك فنقلوا النظريات والمصطلحات والمفاهيم من مجال العلم إلى مجال الفلسفة والاجتماع والنظم «فإنها تخضع لكثير من الأهواء والدوافع، وقد ظهرت نظريات متعددة فى مجال العلم البيولوجى ثم لم تلبث أن نقلت إلى مجال العلوم الاجتماعية كحقائق مسلمة، من ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء. وقد تبين أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليما على إطلاقه، وأن تطبيقه فى المجال الاجتماع ليس صحيحا دائماً»[٣].

وهنا يمكننا أن نعلل اهتمام اليهود بالنظريات الجديدة ونقلها من ميدان العلم إلى ميدان الفلسفة والاجتماع والنظم، وقد جاء ذلك

---

(١) انظر عبدالرحمن عبدالخالق: الإلحاد أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، مكتبة الحرمين ط ثانية ص ٨.

(٢) أندرو ديكسون وايت: بين الدين والعلم تاريخ الصراع بينهما فى القرون الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء، ترجمة إسماعيل مظهر، دار العصور بمصر ١٩٣٠ ص ٢٧.

(٣) أنور الجندى: معلمة الاسلام ٢/٤٠١.

فى البروتوكول الثانى «إن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل.

والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهود) سيكون واضحاً لنا على التأكيد»[١].

وكان لذلك أثره البالغ فى معظم البلاد الإسلامية وخصوصاً على شباب الجامعات تخصص الآداب والقانون، فالقائمون على تدريس علم الاجتماع وتاريخ القانون ومايتصل بذلك من نشأة المجتمعات والنظم يخالفون حقائق القرآن الكريم ويستبدلون بها آراء اليهود من علماء الاجتماع الروس والأوربيين الذين أصبحوا تابعين لهم «منذ سنة ١٩١٣/م حيث ظهرت أول رسالة مصرية فى علم الاجتماع»[٢].

وعلى الجانب الآخر جاءت الحقائق الإسلامية فيما يخص نشأة الإنسان وبداية النظم واضحة تتصل بمصدرها الإلهى متتابعة فى عقيدة الإيمان بالكتب التى أنزلها الله على رسله حاملة لأصول وقواعد النظم، وعقيدة الإيمان بالرسل الذين غطت وشملت رسالاتهم الأرض. أينما وجد الإنسان، وقد توافقت هذه الرسالات مع الإنسان زمانا ومكانا، فالأصول واحدة والأهداف مشتركة والغايات متحدة يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[٣]. وتلك إشارة إلى الإطار العام الذى يجمع بين الرسالات وتتفق عليه وتعمل من أجله وذلك من خلال

---

(١) محمد خليفة التونسى: الخطر اليهودى بروتوكولات حكماء صهيون، تقديم وترجمة عباس محمود العقاد، المكتب العربى لبنان ط رابعة ص ١٢٣.

(٢) منصور زويد المطيرى: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٨٧.

(٣) سورة الشورى آية: ١٣.

المحافظة على النظم والقواعد والقوانين الإلهية، وإلى هذا تشير لقطة الدين الواردة فى الآية القى آنية. «والمعنى شرع الله لكم ياأصحاب محمد من الدين ماوصى به نوحا ومحمدا وإبراهيم وموسى وعيسى، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة»(١). كما كانت الرسالات الإلهية - وهذا فى التصور الإسلامى - المنظمة لحياة الإنسان قائمة على رعاية مصالح وأحوال الإنسان فى المكان والزمان اللذين يعيش فيهما الإنسان وصولاً به إلى المثل الكامل والقدوة الصالحة والإنسان السوى الذى خلقه الله فى أحسن تقويم، ومن ثم كان لكل رسالة بعض السمات والخصائص والتشريعات التى تتفق مع الزمان والمكان تحقيقا لمقتضيات التربية الإلهية، وهذا أمر تقره وتأخذ به أصول ومناهج التربية تبعا للفروق الفردية الواقعة بين الناس والنشأة الاجتماعية وغير ذلك من الملابسات الأخرى التى تتصل بمجتمع دون مجتمع وبزمان دون زمان، وإلى هذه الحقائق يشير قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾(٣).

ولم يكن هذا تطوراً وإنما كان تربية تناسب مقتضى الحال تبعاً للعلم والحكمة الإلهية، ومن ثم كان التضييق أحيانا والتوسعة أحيانا أخرى، مع التنوع فى طرق الأداء، وكل هذا تربية للإنسان للقيام بالأصول والقواعد الأساسية التى اتفقت فيها كل الرسالات فكانت فى النهاية رسالة واحدة، والحقيقة الثابتة فى ذلك« أن أصل الدين واحد اتفق عليه الزنبياء - عليهم السلام - وإنما الاختلاف فى الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك: أنه أجمع

---

(١) الرازى: مفاتيح الغيب ١٥٦/٢٧.

(٢) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٣) سورة الحج آية: ٦٧.

الأنبياء – عليهم السلام – على توحيد الله – تعالى – عبادة واستعانة وتنزيهه عمالا يليق بجنابه، وتحريم الإلحاد فى أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيما لايشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن لله ملائكة لايعصونه فيما أمر ويفعلون مايؤمرون، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ويفرض طاعته على الناس، وأن القيامة حق والبعث بعد الموت حق والجنة حق والنار حق، وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله، وكذلك أجمعوا على النكاح وتحريم السفاح، وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصي، والجهاد مع أعداء الله، والاجتهاد فى إشاعة أمر الله ودينه فهذا أصل الدين، وإنما كان الاختلاف فى صور هذه الأمور وأشباحها »[١].

---

(١) عبدالرحيم الدهلوى: حجة الله البالغة، دار التراث القاهرة ١٩٧٧م ١/٨٦.

الفصل الثاني

المجتمعات والنظم

المبحث الأول: الإجتماع ضرورة إنسانية

المبحث الثاني: ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية

المبحث الثالث: حاجة المجتمعات إلى النظم الإسلامية

المبحث الأول
الإجتماع ضرورة إنسانية

أولاً: أسبابه ودوافعه:

قيام المجتمعات ضرورة تقتضيها السنن والقوانين التى خلق الله الإنسان عليها، وهذه حقيقة لاخلاف عليها.

يقول ابن خلدون: «إعلم أنه قد تقدم لنا فى غير موضع أن الاجتماع للبشر ضرورى، وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه»(١).

لقد أوجد الله المجتمع البشرى، لنفس الحكمة التى أوجد لها الإنسان كفرد، وأوجد لها العالم، «فغاية وجود المجتمع البشرى،تتفق وتتمشى مع الغاية من الوجود الإنسانى - بخاصة - من ناحية، ومع غاية وجود العالم - بعامة - من ناحية أخرى، فالله - سبحانه وتعالى - القدير على كل شئ، لو شاء لجعل الإنسان مخلوقا فرديا، لايعيش فى مجتمع بالضرورة، ولكنه شاءه اجتماعيا، تحقيقا للحكمة التى من أجلها خلق الإنسان، وهى الابتلاء، حيث يمتحن الله الناس بالناس فى المجتمع عن طريق التفاعل بينهم، المتمثل فى العلاقات والمعاملات الاجتماعية بشتى صنوفها»(٢).

والمجتمع هو مجموعة من الأفراد، يربط بينها رابط مشترك يجمعها تعيش عيشه مشتركة، وتنظم حياتها علاقات منتظمة معترف بها فيما بينهم. قد يكون هذا الرابط الأرض ومايقوم عليها من مصالح مشتركة كالمجتمع السويسرى وقد يكون الجنس والأصل ومايتصل به من لغة وثقافة وتاريخ ومبادئ وهو المجتمع القومى، وقد يكون المبادئ السائدة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم بيروت ط رابعة ١٩٨١/م ٣٠٢ ومابعدها.

(٢) د. فاروق أحمد دسوقى: مقومات المجتمع المسلم دار الدعوة الاسكندرية ١٧٥.

والمعتقدات المشتركة، ومايتولد عنها من أفكار وعواطف وسلوك، وهو المجتمع العقائدى كالمجتمع الإسلامى»(١).

وللاجتماع البشرى أسباب كثيرة ودوافع عديدة تجعله مطلبا إنسانيا وحاجة وجدانية فطرية.

يأتى على رأس هذه الدوافع وتلك الأسباب الدافع النفسى، فالإنسان يميل بفطرته إلى الأنس بالجماعة، ومن أجل ذلك كانت عقوبة السجن حرمانا من الجماعة، يشعر معه السجين بالألم النفسى(٢).

وهناك الدافع المادى. فالإنسان لايستطيع أن يقوم بتحصيل حاجته بمفرده،ولنضرب مثلا بحاجة الإنسان إلى الغذاء الذى به بقاؤه، «فإن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل مايمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطه – مثلا – فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لاتتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى، وهب أنه يأكله حبا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج فى تحصيله – أيضا – حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة

---

(١) المصدر السابق ١٧٦ ومابعدها.

(٢) وفى قصة الثلاثة الذين خلفوا إشارة إلى ذلك فقد عالجهم رسول الله -ﷺ - بترك الحديث معهم من جميع أفراد مجتمعهم فكان العلاج ناجعا ولكن بعد أن وصلوا إلى مرحلة عبر عنها القرآن الكريم ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ سورة التوبة: آية ١١٨ مع أن سجنهم كان نفسيا معنويا لاحقيقيا

أكثر من الأولى بكثير ويستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم»[١].

وهناك الدافع الأمني الذى لايتحقق إلا بالأخوة الإسلامية والمحبة الايمانية التى تقوم على التوصى بالحق والصبر والتعاون على البرد والتقوى ومجالس العلم والذكر وتلاوة القرآن، وليس هذا تحيزا، وإنما بيانه: أن الأمن أمر نفسي. والنفس لايعلمها إلا الذى خلقها فهى تحتاج فى أمنها إلى أسباب من شرعه تناسبها وتتفق مع طبيعتها وجوهرها وعمقها حتى يتحقق لها الإشباع النفسى الذى عبر عنه القرآن بالسكينة والرحمة والمودة والمحبة والخشية والأمن والنور.

وعلى كل فهو دافع إلى الإجتماع الإنسانى ينضم إلى الدوافع السابقة، والناس جميعا متساوون فى هذه الدوافع، ففطرتهم واحدة وتكوينهم واحد، لذلك، «احتاج الناس أن يجتمعوا فرقة فرقة، متظاهرين متعاونين، ولهذا قيل: الإنسان مدنى بالطبع، أى أنه لايمكن التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا»[٢].

ثانيا: إشارات قرآنية:

القرآن الكريم كتاب دلالة وهداية، يمكن الإنسان من توظيف ملكاته، ولكن بطريقة مثلى تتفق مع أحكامه ونظمه، وقد خلق الله الإنسان واستعمره فى الأرض، وجعل له ميلا وفطرة إلى الاجتماع الإنسانى الذى لاتتم مصالحه إلا به، هذا الميل وتلك الفطرة تتحرك من

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٤١.

(٢) الراغب الأصفهانى: الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق د. أبواليزيد العجمى، دار الوفاء بالمنصورة ط ثانية ١٤٠٨هـ ١٩٧٧م ص ٣٧٤.

خلال دوافع مادية ومعنوية تدفع بالإنسان إلى تحقيق تلك الضرورة التى خلق الكون من أجلها، وفى القرآن إشارات إلى أن الاجتماع الإنسانى سنة ربانية وفطرة إنسانية، وفيه معالجة للدوافع التى تحقق هذا الاجتماع.

أما إشارته إلى أن الاجتماع ضرورة ففى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1]. ولاتتكون القبائل والشعوب فى قرى ومدن إلا إذا أحست بفطرة هذا الاجتماع وضرورته، وحركتها إليه الدوافع.

ويعرض القرآن الكريم مثلا عمليا ونموذجا تطبيقيا لبيان هذه الفطرة وتلك السنة الربانية من خلال نبى الله ورسوله إبراهيم - عليه السلام - وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2]. وقوله: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[3].

وفى هذه الآيات يعالج القرآن الكريم الحقائق المتصلة بضرورة الاجتماع الإنسانى مبينا أنه فطرة ينبغى على الإنسان أن يأخذ لها من الوسائل مايحققها، وقد أفادت الآيات القرآنية الكثير من الحقائق التى تتصل بذلك.

---

(١) سورجة الحجرات: آية ١٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٦.

(٣) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

* أن الاجتماع الإنسانى ضرورة وفطرة «اجعل هذا بلدا» «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» «أسكنت من ذريتى بواد» «قال ومن كفر».

* أن هذه الفطرة وتلك الضرورة ترتبط بدوافع لايملك تحقيقها إلا الخالق لها ولأسبابها ودوافعها التى تحركها كالأمنى والنفسى والمادى ولذلك قال: «بواد غير ذى زرع» وقال: «وارزقهم من الثمرات».وقال: «رب اجعل هذا البلد أمنا».

* أن الاجتماع البشرى لايكون عشوائيا، وينبغى أن يسبق بالدراسة والتخطيط وحسن الاختيار حتى يحقق أهدافه وغاياته ولذلك قال: «عند بيتك المحرم» حتى يتحقق للاجتماع البشرى أمنه الحقيقى فى جوار مؤسساته الإيمانية العلمية والفكرية والثقافية وهى المساجد عموما، وفى النص إشارة إلى المحافظة على المجتمع من المؤسسات الصناعية وكل مايسبب عدم الراحة والأمن أو يفتح على المجتمع أبواب الشهوات والمعاصى.

* أن دوافع الاجتماع الإنسانى ليست ذاتية وإنما هى وسيلة إلى غايات كبرى ومقاصد عليا ولذلك قال: «ربنا ليقيموا الصلاة» «لعلهم يشكرون».

وقد استخرج الفخر الرازى من هذه الآيات بعض الحقائق التى تتصل بالاجتماع الإنسانى منها، أن إبراهيم -عليه السلام- «طلب من الله نعمة الأمان، والابتداء بطلب نعمة الأمن فى هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لايتم شئ من مصالح الدين والدنيا إلا به»[١]. ومنها أن إيصال الثمرات إليهم يحتمل أن يكون بسبب التجارات، ويحتمل أن يكون على سبيل التجارات، ويكون المراد: عمارة القرى بالقرب

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/١٣٥.

منها لتحصيل الثمار منها»[١]. ومنها أن إبراهيم طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات»[٢]. وبذلك تأخذ دوافع الاجتماع الإنسانى صبغتها الربانية ووجهتها الإسلامية.

وإلى جانب القرآن الكريم جاءت السنة النبوية منبهة على ذلك «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٣]. «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٤].

وفى ظل هذا التوجيه النبوى تتبلور الدوافع وتظهر حقائق الإيمان لدى المسلم فيشارك أهل مجتمعه المودة والرحمة والعطف، وهذا يحقق ترابط المجتمع الإنسانى وتواصله ويبتعد به عن عوامل الإندثار.

(١ . ٢) المصدر السابق ١٣٧/١٩.

(٣) رواه البخارى. كتاب المظالم. باب نصر المظلوم. فتح البارى ١٠/١٨٠.

ومسلم. كتاب البر والصلة. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم. شرح النووى ١٦/١٣٩.

(٤) رواه مسلم. كتاب البر والصلة. باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم. شرح النووى ١٦/١٤٠.

المبحث الثانى
ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية

أولاً: عرض وبيان:

من الحقائق الثابتة أن المجتمع ضرورى للإنسان، لأنه لا وجود للإنسان إلا فى مجتمع، ووجوده فى غير مجتمع مجرد تصور، والنظام ضرورى للمجتمع أيا كان هذا النظام»[١].

يقول ابن خلدون: «إعلم أنه قد تقدم لنا فى غير موضع أن الإجتماع للبشر ضرورى، وهو معنى العمران الذى نتكلم فيه، وأنه لابد لهم فى الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه»[٢].

ويؤكد ضرورة النظم للمجتمعات أمور عديدة:

* الطبيعة الإنسانية التى تحمل الخير والشر وتمتلك الحرية الكاملة فى تصرفاتها، ووقوعها تحت المؤثرات الخارجية والداخلية مما يجعل مواقف الناس تتعدد تجاه الشئ الواحد، وهذا يؤدى إلى التناحر والتصادم.
* الاستعداد الإنسانى، فقد خلقه الله مستعداً للتعلم وأعطاه القدرة على البيان ومنحه وسائل للإدراك وملكات للإبداع، والتنظيم يحافظ عليها أولا وينميها ويزيدها صفاء ثانيا، وترك التنظيم يبددها ويغيرها وهذا يفقد الإنسان الإحساس بالجمال والتذوق للمعانى ويعرض إنسانيته للضياع.

---

(١) د. محمد طلعت أبو صير، د. مصطفى أبو سمك: دراسات فى النظم الإسلامية ١٦.

(٢) المقدمة ٣٠٢

* المثال الكونى حول الإنسان بكل أجزائه ومكوناته يقوم على التنظيم فكل شئ فى الكون فى مكانه الصحيح، وكل مخلوق يعرف دوره ويؤدى عمله تبعا لسنة التسخير الإلهى. يقول تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[1]. ويقول: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].

وهذا النظام الكونى يطالب الإنسان بضرورة تنظيم حياته، حتى لاتمتد يده إلى العبث بنظامه الذى يضفى عليه جمالاً ربانيا.

* الواقع الحياتى العملى، «فالعلاقة بين أفراد الجماعات البشرية تضرب فى اتجاهات متعددة، فالفرد يريد أن يشبع حاجات كثيرة، لايتم إشباعها إلا عن طريق الآخرين (وتلك هى الضرورة) فيريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتزوج وأن يأمن على نفسه وعلى ماله وعلى عرضه، فكيف يحقق كل هذا؟.

لابد من وجود نظم تحدد ماله وماعليه في جماعته التى يعيش فيها، وقد تدخل هذه الجماعة فى علاقة مع غيرها من جماعات، ولابد من وجود نظم تحدد هذه العلاقات.. وكلما نمت الجماعات البشرية كلما احتاجت إلى مزيد من النظم»[4].

ومن هنا بدأت الجماعات والأمم تبحث عن حل لكل هذه القضايا - وهذا فيما يخص غير المسلمين منذ آدم وإلى الآن - فكانت الأعراف

---

(١) سورة الفرقان: آية ٢.

(٢) سورة طه: آية ٥٠.

(٣) سورة يس: آية ٤٠.

(٤) د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٢.

والتقاليد وكان مايسمى بالضبط الاجتماعى، ومفهومه «ذلك النمط من الضغط الذى يمارسه المجتمع على جميع أفراده للمحافظة على النظام ومراعاة القواعد المتعارف عليها أو الموضوعة»(١).

ويشير هذا المفهوم إلى القوى التي يمارسها المجتمع على أفراده والطرق أو المعايير التي يفرضها للهيمنة والإشراف على سلوكهم وأساليبهم فى التفكير والعمل، وذلك لسلامة البنيان الاجتماعى والحرص على أوضاعه ونظمه والبعد عن عوامل الانحراف، ومن ثم تبدو أهمية الضبط لتقرير العلاقة بين النظام الاجتماعى والفرد أو العلاقة بين الوحدة والمجموع»(٢).

وبناء على ماتقدم أصبحت النظم ضرورية للمجتمعات الإنسانية بعد أن تكونت وأصبحت تمثل كتلا بشرية، وهذا مايشترك الناس جميعا فى الإقرار به وهو ضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية، أما الخلفية المعرفية التى يبنى عليها علماء الاجتماع هذه الحقيقة لتصبح واضحة لدى الأفراد وضوحاً يتيح للإنسان حرية الاختيار بين النظم فهذا أمر كتمه علماء الاجتماع، أو لم تتيسر لهم أدواته، أوهم أرادوا المغالطة.

ثانياً: حقائق قرآنية:

بناء الفكر لدى الأفراد أمر مهم، وتقديم مفردات الأشياء ضرورى فكل ذلك يساعد على قبول الحقائق ويجعلها محل تسليم، وقد سلك القرآن الكريم هذا المسلك وهو يعرض لضرورة النظم للمجتمعات الإنسانية، وتلك تربية نظمية، فقد عرض هذه الحقيقة من جوانبها المختلفة وزواياها

---

(١) د. محمد عبدالمعبود مرسي: دراسات فى مشكلات الضبط الإجتماعى ص ٦.

(٢) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الإجتماع ٣٨٢.

المتعددة حتى تأخذ هذه الحقيقة مكانها الصحيح من قلب المسلم وعقله بصورتها الصحيحة التى تجعل الإنسان يختار النظم الإسلامية على غيرها، وتجعل المسلم يزداد تمسكا بنظمه الإسلامية.

والنصوص فى ذلك كثيرة تخاطب الجميع ولكن العالم الاجتماعى المسلم يحسن قراءتها وتدبرها وتصنيفها فى صورة تغطى هذا الجانب المهم، فليس المهم أن يقرر الأفراد ضرورة النظم ولكن الأهم أن يقتنع الإنسان بالنظام الحق، وهذا دور الباحثين المسلمين فى العلوم الاجتماعية.

وقد عرض القرآن الكريم هذه الحقيقة فى النقاط التالية:

* أن ضرورة النظم توجيه إلهى وتعليم ربانى، فهى ليست من اختراع المجتمع الذى دعته الحاجة إليها، فقد علم الله آدم عليه السلام أن التنظيم ضرورة إيمانية عندما أمره ونهاه وعندما أنزله إلى الأرض قائلا له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ﴾[١]. والهدى هو النظام الإلهى وقد وعد الله به آدم، وانتظار آدم له إنما ليدرك أهميته.
* بيان مصدر النظم وأن الله هو الحاكم يقول تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[٢]. وأن الناس أمام الله فى هذا النظام سواء.
* وصف من لم يهتم بالنظم الإلهية ولم يقر بضرورتها بالعجز ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[٣]. مع بيان حال من يحافظ على النظم ويبين للناس ضرورتها للمجتمع.

---

(١) سورة طه: آية ١٢٣.

(٢) سورة يوسف: آية ٤٠.

(٣) سورة المائدة: آية ٣١.

عرض نماذج للمصلحين الذين يشغلهم حال المجتمع عندما يفقد النظم الإلهية وينسى ضرورتها. يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[١]. ويقول: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٢]. وفي هذا لوم لقومه وحثّ لهم على اتبـاع المرسلين الذين يحملون رسالة النظام الإلهى، وماكان لتقصيرهم من سبب إلا أنهم نسوا ضرورة النظم الإلهية فذكرهم بهذه الضرورة. كما هو الحال والشأن فى مؤمن آل فرعون ولقمان وزوجة فرعون، وأهل الإيمان فى مواجهة أصحاب الأخدود، كلها نماذج جاء عرضها فى القرآن لغرس حقيقة ضرورة النظم الإلهية فى القلب والعقل المسلم، فالرجوع إلى الحق والالتزام به لايكون إلا بعد معرفة ضرورته وأهميته.

* أن النظم الإلهية هى المحور الأساسى والشرط الرئيسى وحجر الزاوية لقيام الحضارات وبقائها. وهذا اختصار لعوامل البقاء والاندثار التى تمثل قانونا إلهيا يعمل فى الأمم والمجتمعات.

وقد بين القرآن ذلك أوضح بيان عند ماتحدث عن المجتمعات القديمة وذكر عوامل القوة والضعف فيها وبين أسباب اندثارها وزوالها، وعوامل قوتها وبقائها، فمملكة سبأ وقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم توفرت لهم دوافع الاجتماع البشرى حتى شيدوا هذه الحضارات ولكنها لم تكن كفيلة ولا كافية لبقائها، لأن الدوافع تحتاج إلى نظام من خلق فى الإنسان هذه الدوافع.

وأما مملكة ذى القرنين ونبى الله داود وسليمان - عليهما السلام -

---

(١) سورة القصص: آية ٢٠.

(٢) سورة يس: آية ٢٠.

فقد توفرت لهم أسباب النجاح والقيام بمهمة الخلافة فى الأرض حتى أدت دورها الإسلامى الحضارى.

وهذا أسلوب قرآنى غير مباشر لترسيخ الحقائق فى القلوب والعقول فمن يقارن بين الصورتين والنموذجين تتضح له أهمية وضرورة النظم الإلهية الإسلامية.

ويراعى القرآن الكريم فى التعليم السننى والاجتماعى الفروق الفردية فيعرض النماذج الكبيرة فى صورة فردية تقريبا للحقيقة وزيادة فى البيان والتوضيح، فهذه للسواد الأعظم وتلك للمتخصصين ومن يرصدون النتائج، ومن هذا القبيل حكايته عن قارون وصاحب الجنتين وأبولهب والوليد بن المغيرة المخزومى وفى المقابل ذكره لأهل الكهف والعبد الصالح وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم.

ولما كانت الحقائق واحدة والنفس الإنسانية واحدة والنعم الإلهية واحدة والسنة الإلهية فى بقاء الأمم أو زوالها واحدة فإنها صالحة لاستغراق كل أفراد الجنس فى كل زمان ومكان، وبذلك ينقل الإسلام التجارب التى خاضتها الأمم السابقة ورصدها القرآن مختصراً الزمن ليجعلها واقعا حقيقا للمعاصرين لنزول القرآن ومن يأتى بعدهم إلى قيام الساعة، وأنهم فى نفس التجربة والابتلاء فلابد من البحث عن مخرج يقول تعالى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١).

وهكذا يقرب القرآن الأفكار ويبنى العقول ويقدم الدليل وينفى الشبهات ويبعد الشوائب ليزداد اليقين بضرورة النظم الإسلامية، فلايجد القلب مناصا من التسليم لحكم الله ونظامه.

---

(١) سورة التوبة: آية ٦٩.

المبحث الثالث

حاجة المجتمعات إلى النظم الإسلامية

أولاً: من ينظم المجتمعات؟

إذا كان الإجتماع البشرى ضرورة إنسانية وفطرة خلق الله الإنسان عليها، وإذا كانت النظم ضرورية لصيانة المجتمعات ورقيها، فإن هذا لايتم «إلا فى ظل نظم تحدد الحقوق والواجبات، وتضع الحدود والعقوبات، وتملك قوة السيطرة على الأفراد والجماعات، لذا كانت المجتمعات - ولاتزال - فى حاجة ماسة إلى نظم تنظم حركتها، وتكفل لها النجاح فى خطواتها، وتحقق لها السعادة الدائمة»[١].

ولما كانت النظم الوضعية فى دنيا الناس كثيرة، وكانت هناك نظم الوحى والتى يتجاهلها علماء الاجتماع، فإن الإنسان يقع بين أمور عديدة: إما التقليد والسير على طريق الآباء، وإما اتباع الهوى، وإما أن يبحث عن الحقيقة التى تتلاءم مع الفطرة، وليس هذا إلا فى نظم الإسلام.

وكما يقول ابن خلدون عن الوازع الحاكم الذى ترجع إليه المجتمعات فى نظمها: «تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالثواب والعقاب عليه الذى جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها مايتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم»[٢]. فالنظم إما أن تكون إلهية، وإما أن تكون بشرية، والأولى أساسها الوحى، والثانية ترجع إلى العقل.

---

(١) د. مصطفى أبوسمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦.

(٢) المقدمة ص ٣٠٣.

أما بالنسبة للعقل فهو الطريق الذى سلكه الذين أعرضوا عن طريق الوحى فى تنظيم المجتمعات، ومن خلاله وضعوا لأنفسهم تشريعات جاءت على هيئة أفكار وفلسفات ومذاهب وتيارات عرفت عند البعض بالشيوعية والديمقراطية والعلمية وغير ذلك من المسميات والاتجاهات التى لايمكن الحكم عليها بالنجاح أو الفشل فى تنظيم المجتمعات إلا بعد الوقوف على غايات وأهداف المجتمعات البشرية والعمران الإنسانى، ومعرفة أهداف ومقاصد النظم فى حياة الناس.

ثانياً: غايات المجتمعات والنظم:

عندما تتضح الغاية من الاجتماع الإنسانى يستبين للعقل البشرى السليم المصدر الحقيقى لتنظيم المجتمعات دون تعصب أو عنصرية.

ونستطيع أن يقول إن الغايات التى يتفق عليها الجميع أن يكون كل فرد فى المجتمع متمتعا بكل حقوقه، فنفسه محفوظه، ورأيه مكفول الحماية، وعرضه مصون، وماله فى أمن، قد وجد حاجاته الضرورية، ووجد حاجاته التحسينية، وشعر بالأمن والاستقرار، وأمن من جور الآخرين عليه»[١]. وهذه غايات جمع كبير من البشر، ويضيف إليها المسلمون «أن من الغايات التى ينبغى أن يحرص عليها - أيضا - للمجتمعات البشرية كلها. أن تجد دينها محفوظا لتحقيق عبوديتها لخالقها، ورازقها ومسخر الكون لها، وبالقيام بحق العبودية تتحقق الغايات السابقة من العيش الرغد ومن الأمن والطمأنينة. وتبقى الغاية الأخرى وهى تحقيق النجاة لهذه المجتمعات يوم لقاء ربها من عذابه والفوز بالنعيم بجنته[٢].

وهذه الغايات يجمعها مايعرف فى النظم الإسلامية بالكليات الخمس أو الضروريات الخمس، «ومجموع الضروريات خمسة وهى: حفظ الدين

(١، ٢) د. محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٤.

والنفس والنسل والمال والعقل. وقد قالوا إنها مراعاة فى كل ملة»[١]. من الملل التى شرعها الله تعالى. وعندما ننتقل إلى الغايات التى تحققها النظم فإننا نرى البروفيسور چورج هيتكروس باتون يتساءل قائلاً: «ما (المصالح) التى لابد للدستور المثالى أن يحافظ عليها؟ إنه سؤال يتعلق «بالقيم»، ويدخل فى فلسفة التشريع. وما أكثر مانرجو من الفلسفة أن تساعدنا، ولكن ماأقل ماهى مستعدة لبذله فى هذه السبيل. فقد فشلنا فى الكشف عن «ميزان للقيم» يمكن قبوله لدى جميع الأطراف»[٢].

فالغاية الجامعة للمجتمعات والنظم هى تحقيق السعادة للإنسان، ومفهوم السعادة لايستطيع الإنسان أن يحدده لأنه مخلوق، ولذلك إذا ترك له تحديد هذا المفهوم فإن الآراء ستتعدد والأهواء ستختلف «حتى قال خبير فى التشريع «لو طلبت من عشرة خبراء أن يعرفوا القانون، فعليك أن تستعد لسماع أحد عشر جوابا»[٣].

وإذا كانت السعادة منوطة بالنظم والمجتمعات، وطريق ذلك، «البحث عن العدل، فإذا سلمنا بهذه النظرية واجهنا سؤالا هاما هو: ما العدل؟ وكيف يمكن تعيينه؟ كما يقول اللورد رايت، أما جون أستين فيقول:

ومرة أخرى نقف أمام ظاهرة أن الإنسان لن يستطيع الكشف على أساس واقعى للتشريع، رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى هذا الحقل منذمئات السنين، ويزداد يوما بعد يوم شعور بالمرارة وخيبة الأمل بين رجال التشريع، لأن الفلسفة قد فشلت فى بحثها عن أهداف الدستور»[٤].

---

(١) الشاطبى: الموافقات ٢/١٠.

(٢) وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، كتاب المختار ١٩٩١م ٢١٧.

(٣) المصدر السابق ٢١٤.

(٤) نفس المصدر ٢١٦ ومابعدها.

ثالثاً: قصور العقل البشرى فى التنظيم:

لايخفى على أحد أن التخصص فى كل المجالات مطلوب، وأن الحقائق لاتأتى إلا من أهل التخصص، وقد مر بنا كلام علماء التشريع والقانون الغربيون وهو يشير إلى قصور العقل البشرى عن الوصول إلى تحقيق غايات الإجتماع والنظم.

وأوجه القصور فى تنظيم العقل البشرى للمجتمعات كثيرة منها:

* القصور الزمانى. فالإنسان محدود بحدود زمنية، فلو علم حاضره الذى يعيش فيه، وعلم شيئاً عن الماضى بالإطلاع والمدارسة فإنه لايدعى علما بالمستقبل، ولذلك لو صلح نظامه فسيكون ذلك الصلاح فى حدود فترة زمنية محدودة، ثم يأتى الغد بما لم يعمل له حسابا، ومن أجل هذا يتغير النظام... وأى نظام يكون على هذه الدرجة من التغيير السريع لايحقق للمجتمع استقراراً واطمئناناً، بل يبقى فى تقلب مستمر.

* القصور المكانى. فوسائل الإدراك فى الإنسان محدودة بقدرات محدودة لا تتجاوز مكانا محدداً، والإنسان لايدعى الإحاطة بالبيئات كلها، وإن صلح نظامه فى بيئته فإنه لايتفق مع البيئات الأخرى، وتبعا لذلك تتعدد النظم ويأتى الاختلاف والتصادم ويأتى حب السيطرة وفرض النظم من القوى على الضعيف دون النظر إلى خصائص كل بيئة، فيقع الشقاق مكان التعارف والتنافر مكان التعاون، لأن الإنسان لم يعترف بقصوره المكانى والزمانى، ولم يترك ذلك لمن لايحيط به الزمان ولا المكان وهو الله الخالق سبحانه.

* الجهل بحقيقة الإنسان والأشياء. فالإنسان مخلوق فكيف يحيط بحقائق الأشياء وهو يجهل حقيقة نفسه وكيف يضع نظما وهو محل النظم، وتلك بدهية من البدهيات ولكن الضلال فيها كبير. يقول «ألكسيس كارليل»: لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكى يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التى كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين فى جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لانفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير فى وسطها حقيقة مجهولة، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التى يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشرى تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة فى دنيانا الباطنية مازالت غير معروفة.. وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب»[(١)].

وقد لمس هذا الباحث الكثير من جوانب القصور بحقيقة الإنسان، فكيف ينظم لنفسه من يجهل نفسه فضلا عن أن ينظم لغيره؟.

* الميل إلى طرف من الأطراف. وهى حالة لاشعورية تحكم الإنسان إذا لم تكن له وجهة من الحق. فهى التى توجه الدوافع وتنظم ملكات النفس «وباستقراء للفكر البشرى قديمه ومعاصره نجد أن المفكر يجنح فى تفكيره لجهة من الجهات ولطرف من الأطراف، وذلك لأنه يفكر باللون الذى ربى عليه، فمن ربى على نزعة مادية تطرف وصار إليها. ومن ربى على نزعة خيالية فى فكره صار إليها، ومنهم من يميل مع الفرد على

---

(١) الكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول. تعريب شفيق أسعد فريدمكتبة المعارف بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م ٦١: ١٨.

حساب الجماعة، ومنهم من يميل مع الجماعة على حساب الفرد، وهكذا نرى ميلا وتطرفا إلى جانب واحد. ولما كان هذا الميل فى التفكير من عادة البشر كان النظام الذى يأتى من قبلهم لايحقق التوازن فى المجتمعات البشرية»[١].

وهذا يبين لنا كيف نشأت المذاهب والتيارات الكثيرة، ولماذا نشأت؟

ومن الأمثلة التى تشرح ذلك أفلاطون ذلك اليونانى الذى أخذ يفكر لمجتمعه ويرسم معالم لمدينة يتخيلها ويريد أن يحقق الخير والسعادة من خلالها. ولكن كيف يتوصل إلى ذلك؟.

إن تفكيره عجيب ومدمر، إنه يرى قتل الأولاد الذين يولدون لآباء شريرين حتى يقضى على الشر.

وهو يريد لمدينته أن تكون قوية والسبيل إلى ذلك أن يقضى على المرضى والضعفاء من الأولاد»[٢].

وهذا اللون من التفكير القديم له نظائر فى الفكر المادى الحديث وتعاد كتابته وصياغته تحت مسميات جديدة.

رابعاً: حتمية النظم الإسلامية للمجتمعات:

القول بحتمية النظم الإسلامية للمجتمعات البشرية له من الأدلة والشواهد مايؤيده، ويجعله بمعزل عن العنصرية، وخصوصاً إذا كانت البشرية لاتعرف غاياتها من الاجتماع الإنسانى ولاتعرف غايات النظم وأهداف الدستور، فضلاً عن جهل الإنسان بحقيقة نفسه وقصوره المكانى والزمانى وميله فى تفكيره لجهة من الجهات.

---

(١) محمد رأفت سعيد: المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٢٥ ومابعدها.

(٢) عمر عودة الخطيب: المسألة الإجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، مؤسسة الرسالة ط ثانية ١٩٧٨م ٤٦.

وهنا يأتى دور النظم الإسلامية فى تنظيم المجتمعات وأنها الأجدر بذلك، وهذا أمر حتمى كحتمية السنن والقوانين الكونية التى خلقها الله وأبدعها.

وحتمية النظم الإسلامية للمجتمعات تقوم على ركائز إسلامية وحقائق قرآنية يلخصها الدكتور مصطفى أبوسمك بقوله:

«إن مرد احتياج المجتمعات إلى النظم الإسلامية وحده، راجع إلى ماتتمتع به من:

* صلاحية ذاتية.

* آثار طيبة.

وهذا هو جوهر الاختلاف بين النظم الإسلامية والوضعية(١).

وبشئ من التفصيل نتناول المصطلحين السابقين.

أولاً: الصلاحية الذاتية:

صلاحية النظم الإسلامية للمجتمعات البشرية نابع من ذاتها، فالنظم وثيقة الصلة بالمجتمعات فمصدر النظم هو خالق الكون والإنسان، وتتجلى صلاحية النظم الذاتية فى الحقائق التالية:

١) أنها نظم الخالق الذى خلق الإنسان ويعلم ماتوسوس به نفسه، وخلق الكون وصنعه فأتقنه، ومنهما وعليهما تقوم المجتمعات، فالعلاقة بينهما واحدة وقائمة، وهى وَحدة المصدر، ووَحْدَة الخالق والصانع الذى يرجع إليه فى معرفة أسرار صنعته وكيفية عملها. والسبيل إلى ذلك ممثل فى الوحى الإلهى.

---

(١) انظر نظرات فى نظم الاسلام وثقافته٢٢.

وقد جاءت هذه الحقائق فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[١]. وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾[٤]. وفى قوله تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٦].

وهذه الآيات تقرر أن الله هو الخالق للكون والإنسان، وأنه يعلم دقائق هذا الخلق وأسراره، فلايسأل عن الخلق غيره، ولا ينظم أموره سواه، وهذه الحقيقة تقرها العقول السليمة وحقائق العلوم الإنسانية التجريبية، ومما لاشك فيه أن هذه الحقيقة تجعل الثقة كاملة فى النظم الإسلامية، فهى نظم الخالق الصانع الرازق.

٢) أن هذه النظم تنطلق من أصول وركائز تجعلها حاضرة فى قلب المسلم وعقله دائماً، وتمدها بحيويتها وفاعليتها المستمرة، كما تحميها من المؤثرات الداخلية والخارجية فلها أساس فكرى عقدى، ومنهج تعبدى سلوكى متواصل، ولها واقع عملى يجرى فى إطار خلقى تربوى.

---

(١) سورة الزمر: آية ٦٢.

(٢) سورة لقمان: آية ١١.

(٣) سورة الصافات: آية ٩٦.

(٤) سورة ق: آية ١٦.

(٥) سورة الملك: آية ١٤.

(٦) سورة الأنعام: آية ٥٩.

فالمسلم أينما كان يراقب الله، وهو يغذى هذه المراقبة بشعائر العبادة التى تثبت فى قلبه معالم النظم وأحكامها، ثم هو يدلل على تغلغل تلك العقيدة فى قلبه واستقرارها فى عقله بسلوك خلقى يطبق من خلاله هذه النظم فتبقى النظم حاضرة على الدوام لديه. وبذلك فالنظم الإسلامية لاتحتوى على أحكام وقوانين فقط، ولو كانت كذلك لكانت بعيدة عن القلب والعقل وكانت أقرب إلى النسيان والفتور، ولكنها تحمل معها مقومات حبها واستحضارها والتفكر فيها والمحافظة عليها فتبقى جديدة مثمرة، سهلة واضحة.

وهذا الارتباط بين النظم الإسلامية والعقيدة والعبادة والأخلاق منظومة كاملة فقها وتطبيقاً، «ونعنى بهذا أن مجرد الالتزام بأحكام الإسلام فى أى مجال (سياسة - معاملات - قضاء - حدود) دون الالتزام بسائر العبادات، أمر يسلب (الإسلامية) عن الأحكام الملتزم بها، حتى لو كانت هذه الأحكام إسلامية فى شكلها وصورتها، فهيهات أن تبقى صفة الإسلام لفرد أو لمجتمع يفرط فى أداء العبادات»[١]. أو يتخلى عن مكارم الأخلاق، فكلها مظاهر وحقائق العقيدة الصادقة.

ثانياً: الآثار الطيبة:

١) جمعها بين التربية وحسن التوجيه.

جاءت النظم الإسلامية تجمع بين الفكر والتطبيق، فالنصوص (الدستور) مكتوبة فى القرآن ومحفوظة فى الصدور، ويأخذ المسلم حظه منها فى الصلوات الخمس سرية كانت أو جهرية، فردية كانت أو جماعية، ثم هو بعد ذلك مطالب بتطبيقها وتحقيقها وهذا يتأتى من

---

(١) د. مصطفى أبوسمك: مصدر سابق ١٩.

الاتصال المباشر لأحكام النظم بالعقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة والخلق الكريم، وفى ظل هذه المنظومة يقبل المسلم بكل ملكاته وجوارحه على مفردات هذه النظم ينزل أحكامها على حياته الشخصية والعامة يوما فيوما وشيئا فشيئاً تدفعه إلى ذلك عقيدته وعبادته وأخلاقه، وهو فى كل ذلك يترسم خطى الطاعة ومعالم الإيمان فتتحقق له الشخصية السوية والفكر الواعى والعقل الناضح والقلب السليم، وتلك هى الصورة المثلى التى تنشدها التربية، إنها الاستقامة التى تبنيها النظم الإسلامية فى المسلم يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

وهكذا تضع النظم الإسلامية الإنسان على الطريق المستقيم محركة فيه جوارحه الظاهرية وملكاته وقدراته الداخلية، وذلك بالامتثال والتطبق لمفردات هذه النظم فى كل صغيرة وكبيرة وفى كل شأن من شؤون حياته، وتلك تربية الظاهر، وأما تربية الباطن وطهارته فتساعد عليه وتصنعه العقيدة بمفرداتها التى تتصل بالعلم الإلهى والمراقبة والخشية لله سبحانه وتعالى، وبذلك تتفوق النظم الإسلامية فقد جمعت بين الأحكام والقوانين وبين الأثر الفعال لهذه النظم والذى يتمثل فى التربية الظاهرية والباطنية، الجسدية والروحية القلبية والعقلية.

٢) تحقق الأمن والاستقرار:

لما كانت النظم الإسلامية مصدرها خالق الإنسان جاءت على قدر الإنسان ووفق طبيعته، فالمناسبة قائمة بين الحكم وطاقة الإنسان، ومن ثم كانت قادرة على تحقيق الإشباع النفسى الذى يصبو إليه الإنسان ويبحث

---

(١) سورة الملك : آية ٢٢.

عنه، محققة لاستقراره من خلال الأمن الذى تشيعه العقيدة فى قلب المسلم، فصفات الله وأسماؤه الحسنى تغطى جوانب النفس الإنسانية وتجيب على كل تساؤلاتها، قاضية على الشكوك قاطعة للأوهام مزيلة للخوف والقلق فكما للجسد غذاؤه فكذلك للروح غذاؤها وطاقتها، وسبيل الأمن غذاء الروح بتعاليم النظم وأحكامها، إنه أمن تحققه معرفة الإنسان بحقائق الماضى والحاضر والمستقبل، تلك المعرفة التى عالجته عند التقصير وفتحت له أبواب القرب من الله يزداد منها كلما رغب فى ذلك، تزرع فيه الأمل وتقيه الملل يشعر به المسلم فى يسر العبادة وقلة التكاليف ووجود العزائم والرخص، والتوبة والمغفرة، كل هذا تحققه النظم الإسلامية وتغذية فى المسلم من خلال العقيدة والعبادة التى تأخذ بقلب المسلم إلى شكر المنعم وذكره الذى تحقق الطمأنينة ومعالم الإيمان التى تحقق الأمن يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[2].

إن الحلول التى تضعها النظم الإسلامية فى مواجهة المشكلات، والمعيار الذى تفاضل به بين الناس، والميزان الذى تصحح به المفاهيم والبرهان الذى تقيم على أساسه القيم والفضائل كفيلة أن تقى الإنسان الغضب والانفعال والهوس والجنون وتبعده عن الأزمات وتحقق له السكينة وتحيطه بالنور.

---

(١) سورة الرعد: آية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ٨٢.

٣) التوافق والانسجام:

النظم الإسلامية بناء واحد ونسيج واحد، لاتعرف التضارب ولا الاختلاف، فليس فيها حكم يعارض حكما ولا نص يخالف نصا آخر، وماذلك إلا لأن المشرع واحد وقوله الحق وحكمه الصدق «إن الحقائق لايمكن أن تكون متناقضة، ولما كان الإسلام قد قدم للبشرية الحقائق كاملة، وحسم بذلك كل المنازعات والخلافات التى ثارت حول كثير من قضايا الإنسان والكون والحياة، فإنه قد أرسى دعامة الوحدة الفكرية والروحية على قاعدة المنهج الربانى الذى هدم الخرافات والأوهام والتناقضات»[1]. إنها ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾[2]. إن أهداف النظم وغاياتها تقوم على تحقيق التوافق والانسجام فى الأحكام وتعمل على تطبيق ذلك فى المجتمع أفراداً وجماعات، «إنها النظم التى حصرت كل غايات البشر فى غاية واحدة هى إرضاء الله تعالى، كما حصرت أهداف الناس فى هدف واحد هو تحقيق العبودية لله والتحرر من عبادة ماسواه»[3]. إنه انسجام الأحكام وتوافقها وتلاقى الغايات وتعانقها فى يسر وسهولة تنفرد به النظم الإسلامية. وهذا التوافق فى الأحكام توافق قانونى فى الحكم والمقاصد، وتربوى نفسى يسير فى انسجام مع خصائص النفس وملكاتها لتحقق فى النهاية صلح الإنسان مع نفسه ومع نظمه ولتحقق له إنسجاماً مع الجماعة فى الوحدة والهدف يقول تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ

---

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات فى الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة ط تاسعة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ٧٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٨.

(٣) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٢٠.

سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾(١). ونختم حديثنا عن حاجة البشرية إلى النظم الإسلامية وحتميتها للمجتمعات بما ذكره الدكتور يوسف القرضاوى من مقومات تجعل هذه الحاجة ضرورية وحتميتها لازمة، وتجعل رسالة الأمة حضارية، وتلك هى المقومات:

١) رسالة العقيدة الموافقة للفطرة.

٢) رسالة العبادة الدافعة للحضارة.

٣) رسالة العقل المهتدى بالوحى.

٤) رسالة العلم المرتبط بالإيمان.

٥) رسالة الإيمان المقترن بالعمل.

٦) رسالة العمل الملتزم بالدعوة.

٧) رسالة الدنيا المعدة للآخرة.

٨) رسالة الجسم المحدود بالروح.

٩) رسالة القوة المدافعة عن الحق.

١٠) رسالة المال الصالح للمرء الصالح.

١١) رسالة الحقوق المتوازنة مع الواجبات.

١٢) رسالة الحرية الخادمة للفضيلة.

١٣) رسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.

١٤) رسالة الفرد المنتظم فى أسرة ومجتمع.

---

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

١٥) رسالة المجتمع الذى لايطغى على الأفراد.

١٦) رسالة الأمة المنفتحة على العالم.

١٧) رسالة الدولة المقيمة للدين.

١٨) رسالة التشريع المحقق للمصالح.

١٩) رسالة العدل المؤيد بالإحسان.

٢٠) رسالة الفن الملتزم بالقيم[١].

---

(١) د. يوسف القرضاوى: حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا، وهبة ط أولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م ٧٢.

الفصل الثالث

مصادر النظم

المبحث الأول: مصادر الرسالات السابقة

المبحث الثاني: مصادر النظم الإسلامية

المبحث الثالث: مصادر النظم الوضعية

تمهيد: التعريف بمصادر النظم:

مصادر جمع مصدر، وقد جاء فى مصادر اللغة حول مادة صدر هذه المعانى:

يقال: صدر الأمر - صدراً وصدوراً: وقع وتقرر. والشئ عن غيره: نشأ.

ويقال: فلان يصدر عن كذا، أى يستمد منه»[(١)].

والمصدر أصل الكلمة التى تصدر عنها صوادر الأفعال، وتفسيره أن المصادر كانت أول الكلام[(٢)].

والمصدر: مايصدر عنه الشئ[(٣)].

ويتضح من ذلك أن المصادر تسبق النظم، وأنها الأساس الذى تقوم عليه النظم وتنشأ عنه وتستمد أحكامها وقوانينها منه. والمصادر هى التى تجعل النظم أقرب إلى الواقع ومن خلالها يتم تقريرها.

وعلى ذلك فالمصادر هى الأصول التى تنشأ عنها النظم وتستمد منها.

فالنظم والقوانين والأحكام تستقى من مصادر تتضمن الأصول التى تقوم عليها، وهذه المصادر تختلف من مجتمع لآخر مابين إلهية وبشرية، وبقدر مايتوافر لها من الخصائص والمقومات التى تشهد بسلامتها من التغيير وصيانتها عن التلاعب والهوى بقدر ماتكون شرعيتها ثابتة وحجتها ظاهرة، ويترتب على هذا تحقيقها لمصلحة الإنسان المادية والروحية الدنيوية والأخروية.

---

(١) المعج الوسيط ٥٠٩/١.

(٢) لسان العرب ٢٤١٣/٣.

(٣) المعجم الوسيط ٥١٠/١.

وهذا مايعرف فى فقه القانون بالتشريع وهو «يشمل التشريع الدستورى، والتشريع العادى (القانون) ثم اللائحة ثم القرار والعرف بعد التشريع، ثم مصادر أخرى كالقضاء والمبادئ العامة»[١].

ومن هنا كان مايسمى بالشرعية، أى سيادة القانون وتعنى «خضوع الجميع لحكمه حكاماً ومكومين»[٢]. فالقوانين والنظم هى الصورة الحقيقية للمصادر والدساتير، وتحمل أهم خصائصها، والمجتمع هو المرآة التى تظهر عليها تلك الصورة، ومن خلالها يمكن الحكم على شرعية هذه المصادر أو عدم شرعيتها. وهذا يؤكد أهمية دراسة مصادر النظم والتعرف عليها وعلى الظروف والملابسات التى رافقت نشأتها، وكذلك المقومات التى تجعل منها مصادر للنظم.

---

(١) د. على جريشة: المشروعية الإسلامية العليا، دار الوفاء بالمنصورة ط ثانية ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م ٨٧.

(٢) المصدر السابق ٢٥.

المبحث الأول
مصادر الرسالات السابقة

تمهيد: الوحى ومصادر النظم:

الوحى الإلهى هو الطريقة التى نقلت بها الأحكام الإلهية إلى الإنسان لينظم حياته وفق التوجيهات والتعاليم الربانية، فالوحى هو مصدر النظم الإسلامية منذ الإنسان الأول – آدم –عليه السلام–.

والوحى أن يعلم الله – تعالى – من اصطفاه من عباده، كل ماأراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر»[١].

ويتضمن الوحى للأنبياء والرسل الأوامر والأحكام الإلهية التى تمثل النظم الإلهية الإسلامية لإصلاح الجبلة الإنسانية.

وقد وصلت هذه الأوامر إلى المجتمعات من خلال الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله للتبليغ والإنذار، وأهلهم الله لذلك، فكانوا أكمل الناس خلقا وأحسنهم سيرة وطريقة، فهم أهل الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، جمعوا بين التبليغ والتطبيق شرحا وبيانا سلوكا وأخلاقا فى يسر وسهولة، يثبتون الدعائم وينصبون الدلائل، قطعا لعذر المعتذر وإقامة للحجة على الجاحد المتكبر. يقول تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[٢]. والوحى حقيقة تتوافر

---

(١) محمد عبدالعظيم الزرقانى: مناهل العرفان، الحلبى ١٩٨٠م ٦٣/١.

(٢) سورة النساء: آية ١٦٥.

ـها فى الفطرة الإنسانية والسنن الكونية، وتظهر جليا فى معجزات الأنبياء والرسل، وفى المناهج والتعاليم التى يدعون إليها، ويبقى أثرها فى الناس زمنا طويلاً. ولذلك جاءت شبه المنكرين للوحى بعيدة عن الموضوعية مجافية للحقيقة تحمل فى طياتها عوامل هدمها، لم يدفعهم إليها إلا بغض الخير واستعباد البشر وحب العلو والإفساد فى الأرض،[(١)]. وقد دحض الأنبياء والرسل هذه الشبه بحقائق واضحة تبين لهم مكانة الوحى وتشرح لهم آثاره ومقاصده يقول الله – تعالى – على لسان نوح – عليه السلام –: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[(٢)]. وبالوحى بدأت رحلة النظم مع الإنسان، فالوحى مصدرها الأول الجامع الشامل، وحتى تستبين الحقائق المتعلقة بمصادر النظم فى الرسالات السابقة على رسالة سيدنا محمد – ﷺ – فإننا نعرض لذلك على النحو التالى:

أولاً: الوحى الإلهى مصدر النظم السابقة:

منذ خلق الله – تعالى – الإنسان والوحى ينظم حياته، وذلك من خلال الأنبياء والرسل الذين يمثلون القدوة والمثل الأعلى فى حياة الناس، وقد جاءت حقائق القرآن جلية واضحة وهى تغطى الجوانب التى تتصل بهذه الحقيقة. يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[(٣)]. ويقول – سبحانه –: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[(٤)].

---

(١) راجع فى ذلك: محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى ٤٢، محمد عبدالعظيم الزرقانى: مناهل العرفان ٦٥.

(٢) سورة الأعراف: آية ٦٣.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٧.

(٤) سورة النساء: آية ١٦٣.

هذا فى أصل الوحى وحقيقته ومصدريته للنظم، أما من الناحية الموضوعية للوحى، وبيان مصادر النظم الإلهية فيقرره خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم فى قولهم: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(١). وهذا على لسان نوح -عليه السلام- وقولهم: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾(٢). وهذا على لسان هود -عليه السلام- وقولهم: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾(٣). وهذا على لسان صالح -عليه السلام- وقولهم على لسان لوط -عليه السلام- ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾(٤).

والإشارات واضحة فى الآيات، فالرسالة صورة الوحى وفيها النظم الإسلامية، وقد اتخذ الأنبياء والرسل كل الوسائل لتثبيت هذه الحقائق فى قلوب المدعوين مرة بالنصح والبيان العملى القائم على الأمانة، ومرة بمعالجة المدعوين الذين حال المرض النفسى بينهم وبين قبول النصح.

وقد جمع الله هذه الرسالات فى كتب تجمع أحكام النظم، وكان منها صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، وجاءت صياغة الأحكام فى هذه الكتب وتلك الرسالات مقرونة بالغايات والمقاصد التى تحققها، والاثار المترتبة عليها عليها، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾(٥). ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف: آية ٦٢.

(٢) سورة الأعراف: آية ٦٨.

(٣) سورة الأعراف: آية ٧٩.

(٤) سورة الأعراف: آية ٩٣

(٥) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٦) سورة المائدة: آية ٤٦.

وبهذه الطريقة يؤكد الوحى الإلهى قيام العلاقة بين النظم ومقاصدها حتى يعمل فى الإنسان ملكة التفكير ويفتح أمامه الطريق إلى الإيمان بالله الواحد الأحد عن قبول واقتناع، وإلى هذا يشير قول الله - تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢).

وهكذا «فكل الرسالات جاءت لتقيم فى الأرض وفى حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم - حياتها فى مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميانا لايحابى أحداً لأنه يزن بالحق الإلهى للجميع، ولايحيف على أحد لأن الله رب الجميع»(٣).

ومن خلال القضايا التى عالجها الوحى الالهى فى رسالات الأنبياء والرسل السابقين تظهر مقاصد الوحى فيما يتصل بالنظم.

وعلى رأس هذه القضايا تأتى حقيقة المساواة بين الناس جميعاً فى الخلق والعبودية لله رب العالمين، يقول الله - تعالى - على لسان نوح - عليه السلام - : ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤) وكذلك على لسان عاد - عليه السلام -(٥). وهذا صالح - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

---

(١) سورة الأعراف: آية ٦٣.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٣) سيد قطب: فى ظلال القرآن ٦/٣٤٩٤.

(٤ ، ٥) سورة الأعراف: آية ٦١، ٦٧.

إنْ أَجْـرِيَ إلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَـالَمِينَ ﴾(١). ولـوط - عليه السلام - بلغ قـومـه هذه الحقيقة(٢)، وهذا إبراهيم يقول لقومه: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣). وفى ظل ربوبية الله - عز وجل - للعالمين فالجميع متساوون فى الخلق وفى الحقوق والواجبات، يقول تعالى - على لسان نوح - عليه السلام - ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾(٤). ويقول على لسان صالح - عليه السلام - ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾(٥).

وإذا كـان الله هو رب العـالمين، وهو الخـالق لكل شئ بما فى ذلك الإنسان فهو الإله الحق الواحد الأحد المستحق للعبادة، وهنا تأتى الحقيقة الثانية التى عالجها الوحى الإلهى فى الرسالات السابقة، وهذه الحقيقة تشمل جانب العقائد فيما يتصل بعالم الغيب الدنيوى والأخروى حيث الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره، يقول تعالى: ﴿ وَمَـا أَرْسَلْنَا مِن قَـبْلِكَ مِن رَّسُـولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٦). والآيات التى توضح جانب العقائد فى الوحى الإلهى للأنبياء والرسل السابقين كثيرة فى القرآن الكريم، ومن خلالها تظهر معالم النظم فيما يخص هذا الجانب، وينضم إلى ذلك الحقيقة الثالثة التى جاءت لتعالج نظام العبادات التى يتقرب بها الإنسان إلى مولاه والتى تتحقق له النجاح فى القيام برسالته التى خلق من أجلها، وتحقق له السعادة والأمن الشامل الكامل، وصورة العبادات فى الرسالات السابقة عرض لها القرآن الكريم فى كثير من الآيات يقول - تعالى - : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْـهِمْ نَبَـأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ

(١ ، ٢) سورة الشعراء: آية ١٤٥، ١٦٤.

(٣) سورة الشعراء: آية ٧٧.

(٤) سورة نوح: آية ١٧.

(٥) سورة الشعراء: آية ٦١.

(٦) سورة الأنبياء: آية ٢٥.

قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾(١). ويقول تعالى:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾(٢).

وإلى جانب العقائد والعبادات أرسى الوحى الإلهى قواعد الأخلاق والمعاملات ووضع قانون العقوبات التى تحقق للإنسان الأمن والأمان، كما قاوم الوحى الإلهى صور الانحراف المتعددة فى المجتمع، من خلال التقويم وتقديم الحلول التى تقيم الإنسان على الصراط المستقيم والمنهج القويم، مع ذكر المفاسد والسلبيات المترتبة على ارتكاب الموبقات.

والحقائق التى تتصل بذلك بيانا وتفصيلا كثيرة وثابتة فى القرآن الكريم.

يقول تعالى:﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾(٣).

ويقول تعالى:﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾(٤).

ومعالم التعليم والتربية واضحة فى معالجة هذا السلوك المعوج الذى قد تتعدد صوره فى مجتمعات كثيرة سابقة أو لاحقة.

ويقول تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾(٥).

---

(١) سورة المائدة: آية ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: آية ٨٠، ٨١.

(٤) سورة الشعراء: آية ١٦٥، ١٦٦.

(٥) سورة هود: آية ٨٥.

والمتأمل فى رحلة الوحى الإلهى عبر الأجيال والأزمان يجد أن التربية الإلهية للإنسان قد تحققت من خلال أمرين:

الأول: الثوابت التى لاتتطور ولاتتغير، وهذا فيما يتصل بالعقائد «لأن العقيدة إيمان فشأنها الثبات والاستقرار...، يتفرع عليها شرع عملى يرتبط بهذه الأصول التى تستقر وتثبت وتتولد فى نفس المؤمن ولا تهتز أو تتزعزع، يتناقلها الأجيال، ويتوارثها الأعقاب، وتعرض على العقول والعلوم الصحيحة، فلاتجد معها إلا الإقتناع والتسليم، إلا إذا تدخلت الأهواء وعبثت بها يد البشر»[1].

الثانى: الشرائع التى تتغير وتتطور من جيل إلى جيل ومن مكان إلى مكان، «ومن هنا كان تتبع الإنسانية بالشرائع التى يكمل بعضها بعضا، ويجبر حديثها، ماينقص قديمها، حتى تجد الحياة منها مبتغاها، ويكتمل نضج الإنسانية فتبلغ مراتب القدرة على إدارة حياتها وتوجيهها من خلال الشريعة الملائمة»[2].حيث إن الإنسانية قد تدرجت فى التعرف على السنن الكونية، فكان كل جيل يضم رصيد الأجيال السابقة إلى رصيده العقلى، فجاءت الشرائع مناسبة لكل جيل، «واعلم أنه إنما اختلفت شرائع الأنبياء - عليهم السلام - لأسباب ومصالح، وذلك أن شعائر الله، إنما كانت شعائر لمعدات، وأن المقادير يلاحظ فى شرعها حال المكلفين وعاداتهم.وأن مظان المصالح تختلف باختلاف الأعصار والعادات... فمن عرف أصل الدين وأسباب اختلاف المناهج لم يكن عنده تغيير ولاتبديل ولذلك نسبت الشرائع إلى أقوامها»[3].

---

(١) د. عماره نجيب: الإنسان فى ظل الأديان، المعتقدات والأديان القديمة، المكتبة التوفيقية ١٩٧٧م ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى: حجة الله البالغة، دار التراث ١ ,٨٩.

فالشريعة فى المجتمعات السابقة نظام يحمل مناهج ووسائل وأساليب تنظم حياة كل مجتمع تبعا لعلم الله وإرادته وحكمته، ولما كان هذا التغيير فى الشريعة «من لدن الخالق فقد تم بحكمة العالم المحيط الخبير بأسرار النفس الإنسانية ونظم الاجتماع، ودراسة هذا التطوير وتتبعه من خلال منهج علمى يدل على أن صانع هذا التطوير إله قادر عليم محيط خبير»(١).

ثانياً: الوحى الإلهى والتدرج فى تشريع النظم:

أعطى الله الإنسان ملكة التعلم والتعليم، وهذه الملكة تتعامل مع الافاق والأنفس، وكلما تأمل الإنسان فيها وتفكر كلما تذكر وتعقل واستنبط القوانين والسنن التى تصلح حاله وحياته، وهو فى كل ذلك ينتقل من حال إلى حال ومن مرحلة إلى مرحلة، وتبعاً لذلك جاء الوحى الإلهى بشرائع ونظم تتناسب مع حالة الإنسان، فكان لكل جيل من التشريع والنظم ماينا سبه، وهكذا كلما زادت علاقة الإنسان بالكون فى الاستخلاف والاستعمار والتمكين، كلما جاءت النظم التى تناسب ذلك.

«ويتضح من تتبع التشريع الإلهى أنه قام على أسلوب علمى لاينكر، هو أسلوب التربية والتعليم والتوجيه بالنظرية وبالتجربة.

أما النظرية فكانت برسالة الرسل والأنبياء وعظتهم وتبليغهم وحى الإله الخالق، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن.

وأما التجربة فكانت باحتكاك الرسالة بالعقول والبيئات والظروف الخاصة، وتفاعل هذا الاحتكاك بالعقول والبيئات والظروف ومانيتج من العائد الاجتماعى والثقافى والنفسى والتاريخى المادى والمعنوى فتنقل هذه

---

(١) د.عمارة نجيب: الإنسان فى ظل الأديان ٩٣.

التجربة وناتجها إلى جيل آخر ومعها رساله أخرى تحتك بمجتمع جديد يفترض أنه استفاد من تجربة السابقين، وتجرى عملية التربية والتعليم والتوجيه بهذا الأسلوب العلمى جيلا بعد جعل، حتى يجئ الجيل الذى تتحصل له كل التجارب ويمكنه أن يستفيد منها فيما يمكن أن يجد له من أحداث ويمكنه أيضا أن ينقل هذه التجارب ونتائجها إلى الجيل الذى بعده دون حاجة إلى رسالة جديدة فكانت الرسالة الخاتمة»(١).

وهكذا جاء الوحى الإلهى فى الرسالات السابقة مراعياً سنة التدرج فى التشريعات التى تنظم حياة الإنسان منذ وجوده على الأرض، والحقائق كثيرة فيما يتصل ببيان ذلك.

يقول الشيخ/ أحمد عبدالرحيم الدهلوى: «اعلم أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء - عليهم السلام - وإنما الاختلاف فى الشرائع والمناهج... فكان فى شريعة موسى -عليه السلام- الاسقبال فى الصلاة إلى بيت المقدس وفى شريعة نبينا - ﷺ - إلى الكعبة، وكان فى شريعة موسى -عليه السلام- الرجم فقط وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وكان فى شريعة موسى -عليه السلام- القصاص فقط وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعا، وعلى ذلك اختلافهم فى أوقات الطاعات وآدابها وأركانها، وبالجملة فالأوضاع الخاصة - للإنسان أفراداً وجماعات - التى مهدت وبنيت بها أنواع البر والارتفاقات هى الشرعة والمنهاج»(٢).

فإذا كانت الإنسانية قد بدأت بآدم وحواء فإن محارم الزوجية لاتحرم إلا الأم ولا تمنع زواج الأخ بأخته عند ذاك، حتى إذا ساعد التكاثر على تحريم هذا الزواج فإنه لم يساعد على تحريم زواج العمات والخالات، فإذا ساعد التكاثر مرة أخرى على تحريم زواج العمات والخالات، فإنه

---

(١) د.عمارة نجيب: المصدر السابق ٩٤.

(٢) حجة الله البالغة ٨٦/١ ومابعدها.

لايساعد فجأة على تحريم زواج بنات الأخ وبنات الأخت.. وهكذا تدرج التشريع الإلهى بلوغا بالإنسانية مراحل التقدم والنضج الفكرى تبعا لحاجة الإنسانية وظروفها وقدراتها المادية والعقلية حتى وصل بالإنسان إلى أرقى مراحل النضج من خلال أعظم أسلوب للتربية والتعليم والتوجيه»[١].

وقد وضع الإسلام الأصول الإيمانية العقدية الفكرية التى تتصل بهذا الموضوع، وذلك من خلال نصوص قرآنية ثابتة.

يقول تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٢]. فقد جعل الله لكل أمة أحكاماً تتصل بالنظم التي تنظم صلة الإنسان بمجتمعه، كما جعل لكل أمة منهاجاً يحمل طرق الأداء ووسائل التطبيق حتى تنتقل الشريعة من الميدان النظرى إلى الواقع التطبيقى، فالمنهاج «هو الطريق الواضح»[٣]. وهذا المنهاج يرسم صورة حقيقية لأهل التوحيد تغاير صورة أهل الشرك، وذلك فى العقائد والمعاملات والعبادات والأخلاق، وبها يبقى الداعى حاضراً منادياً «ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به»[٤].

ومن ثم فكل وحى إلهى لرسول من الرسل جاء بشرعة ومنهاج يحمل من الخصائص والأساليب مايحقق الهداية والرشاد لمن أرسل إليهم الرسول، ومن هنا تعددت الشرائع والمناهج والكتب المنزلة، وكانت هداية هذا الوحى خاصة بمن نزل إليهم، يقول تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾[٥].

---

(١) د. عمارة نجيب: الإنسان فى ظل الأديان ٩٤.

(٢) سورة المائدة: آية ٤٨.

(٣) الرازى: مفاتيح الغيب ١٢/١٢.

(٤) سورة الأحقاف: آية ٣١.

(٥) سورة آل عمران: آية ٣، ٤.

وفى الآية إشارة إلى علاقة الوحى بالزمان والمكان من جهة تحقق الهداية به، فهداية التوراة والإنجيل للناس كانت قبل نزول القرآن الكريم، أما بعد نزوله فالهداية فيه لاتتعداه إلى غيره.

يقول الإمام ابن كثير: «وأنزل التوراة» أى على موسى بن عمران «والإنجيل» أى على عيسى ابن مريم – عليهما السلام – «من قبل» أى من قبل هذا القرآن «هدى للناس» أى فى زمانهما»(١).

وقد أخذ الله العهود والمواثيق على الأنبياء ببيان هذه الحقيقة لمن أرسلوا إليهم، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾(٢). ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾(٣). ويقول تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٥).

وهناك الميثاق العظيم الذى أخذ على الأنبياء والرسل جميعاً بشأن الرسالة الخاتمة، وإليه الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٤٤/١.

(٢، ٣) سورة الأعراف: آية ٦٩، ٧٤.

(٤) سورة الصف: آية ٦.

(٥) سورة الأحقاف: آية ٣٠.

(٦) سورة آل عمران: آية ٨١، ٨٢.

وفى ظل هذه الحقائق القرآنية كانت البشرية كلها على اختلاف أممها على علم بالشرائع السابقة بالإضافة إلى الشريعة الجديدة لهم مع الحفاظ على القاسم المشترك بين الجميع وهو أصل الدين.

يقول الإمام الرازى: «وردت آيات دالة على عدم التباين فى طريقة الأنبياء والرسل، وآيات دالة على حصول التباين فيها... وطريق الجمع أن نقول: النوع الأول من الآيات مصروف إلى مايتعلق بأصول الدين، والنوع الثانى مصروف إلى مايتعلق بفروع الدين»[١].

ثالثاً: حقائق ثابتة تتصل بالرسالات السابقة:

الدين الصحيح الذى ارتضاه الله لخلقه يحمل من الحقائق والثوابت الكثير والكثير، وهو فى كل عصر من العصور السابقة على رسالة سيدنا محمد - ﷺ - كان يحمل من الشرعة والمنهاج مايحفظ على الإنسان عبوديته لله الواحد الأحد رب العالمين، وذلك من خلال حكمة إلهية حاكمة، وعلم إلهى قديم، وقدرة لايعجزها شئ فى الأرض ولا فى السماء، ورحمة سابغة.

وهذه حقائق يسلم بها من له دراية وعلم بالسنن والنواميس الاجتماعية والقانونية والتربوية.

والمتأمل فى حياة الإنسان على الأرض، يجد أنها بدأت بأسرة واحدة ثم بقبائل وشعوب متفرقة، ومن هنا تفرقت الرسالات وتعددت فى الأرض، وربما بعث نبى فى مكان وآخر فى مكان آخر، وذلك تبعا لحاجة الإنسان الذى تربيه الحكمة الإلهية، ولما أصبح الناس قرية واحدة لاتفصل المسافات بينهم، فالإنسان قد كشف الكثير من سنن الكون، اقتضت الحكمة الإلهية التى تشرع لمصلحة الإنسان، أن تكون الرسالة الخاتمة واحدة تأخذ الثوابت السابقة والأصول العقدية والأخلاقية ومايتصل منها

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢/١٢.

بالعبادات والمعاملات، وتضيف إليها من الشرعة والمنهاج النظم التى تواكب انفتاحه على الكون وانغماسه فى عالم العلم والمعرفة حتى يصبح العالم وحدة واحدة وقرية صغيرة، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[1].

وفى ظل ماسبق نلاحظ الحقائق العلمية التالية:

* الرسالات التى سبقت الرسالة الخاتمة كانت خاصة، لأن التفاعل الناتج عن الاحتكاك قد يؤدى إلى عملية تدمير وإبادة أو شبههما، فاكتفى العالم الأكبر - رحمة منه بخلقه - بعينات من الشعوب أو الأمم، تكفى التجربة معها بالحصول على القانون العلمى المطلوب لتعليم وتربية من يلى هذه العينة أو تلك، أو يعاصرها، كاكتفاء العقلاء بالنظر إلى من صعقة التيار الكهربائى للتعلم والعلم بخطر التيار والبعد عن ممارسة نفس العمل الذى أدى إلى هلاك من وقع تحت التجربة.

* كان كل نبى ورسول يكلف بالتبليغ يذكر قومه بالتجارب السابقة مع النظرية (الرسالة) التى جاء بها حتى حمل محمد - ﷺ - تجارب الأنبياء والرسل أجمعين»[2].

* جاء الوحى السابق لنزول القرآن الكريم لتحقيق هداية الإنسان بعيداً عن الإعجاز أو التحدى بالكتب التى حملت هذا الوحى، ﴿ **واعتمدت الرسالات السابقة لرسالة الاسلام على المعجزات المادية الحسية لأنها الطريق الوحيد لإثبات أنها وحى إلهى، حيث لم يبلغ العقل الإنسانى الاجتماعى مرتبة الكمال، وشأن العقل الذى لم يبلغ هذه المرتبة، ألا يقتنع بغير مايعجزه، ولهذا كانت المعجزات من جنس مايبرع الإنسان فيه مبالغة فى تحقيق الإعجاز** ﴾[3].

---

(١) سورة الشورى: آية ٧.

(٢ ، ٣) د. عمارة نجيب: الإنسان فى ظل الأديان ٩٥ ومابعدها.

* أن حفظ الكتب التى حملت هذا الوحى كان متروكا للبشر، لأنها كانت تعالج مجتمعات محددة فى أزمنة محددة، يقول تعالى: ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾[١].

فالله – عز وجل – يخبر أنه استحفظ بنى إسرائيل التوراة فحرفوها، فلما وكل إليهم حفظها ضيعوها»[٢].

* مصدر الوحى واحد وهو الله، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[٣].

وقد جاء هذا الوحى يصدق بعضه بعضا، فأصوله واحدة، وقضاياه الكلية واحدة يقول تعالى: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾[٤]. فالسابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، وهذا هو منهج الوحى الإلهى فالرسالة الجديدة امتداد للرسالات السابقة، وكل كتاب يخرج به أتباعه عن هذا المنهج فقد أصيب بالتحريف والتبديل.

ولما شاءت إرادة الله أن يجمع البشرية على كتاب واحد ورسول واحد، وذلك بعد أن أصبحت مهيأة لذلك إجتماعيا واقتصاديا وعلميا أرسل رسوله محمداً – ﷺ – بالقرآن الكريم الذى يحمل آخر وحى إلهى لتنظيم حياة الإنسان فى كل زمان ومكان – وبنزول القرآن انتهت المرحلية فى الوحى والتعدد فى الرسالات، فالعالم قرية صغيرة تشترك فى المصالح والخصائص.

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٢) القشيرى: لطائف الإشارات ٤٢٥/١.

(٣) سورة الشورى: آية ٥١.

(٤) سورة الصف: آية ٦.

المبحث الثانى
مصادر النظم الإسلامية

تمهيد : الوحى ومصادر النظم فى رسالة الإسلام الخاتمة.

الرسالة الخاتمة هى رسالة سيدنا محمد - ﷺ - وهى آخر وحى إلهى فى موكب الرسالات الإلهية التى تقوم على تثبيت قواعد وأصول دين الإسلام فى الأرض يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(١).

وقد جاء الوحى فى الرسالة الخاتمة عاما وشاملاً لكل مقاصد الوحى فى الرسالات السابقة، وبيانا يحمل القواعد الكلية التى تنظم حياة الإنسان من خلال شرعة ومنهاج يتفقان مع واقع الانسان ومستقبله العلمى والكونى والإنسانى. فكان التصديق، وكانت الهيمنة، يقول تعالى : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٢) وهذا فى حق الرسول الخاتم - ﷺ - وفى حق رسالته يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٤).

ولما كانت هذه الرسالة هى ختام الرسالات، ورسولها هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كان من اللائق بها أن تنال دوراً إعلاميا فى المكان والزمان

---

(١) سورة الشورى : آية ١٣.

(٢) سورة الصافات : آية ٣٧.

(٣) سورة يونس : آية ٣٧.

(٤) سورة المائدة : آية ٤٨.

يشمل جميع الأمم السابقة، وقد قام بهذا الدور الرسل والأنبياء السابقون يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[٢].

وبذلك أصبح خبر الرسالة الخاتمة حقيقة يقينية ثابتة لدى الأمم السابقة عموما، ولدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى خصوصا، وكذلك بين العوالم الأخرى ومنها عالم الجن، إما على سبيل التشريف وإما على سبيل التكليف، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) ﴾[٤] ويقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾[٥]. وبهذا البيان والإعلام أصبحت البشريه مهيأة لاستقبال الوحى الإلهى الخاتم الذى يحمل النظم الإلهية التى تتوافق مع الفطرة التى خلق الله الإنسان عليها.

---

(١) سورة آل عمران : أية ٨١.

(٢) سورة الصف : أية ٦.

(٣) سورة القصص : أية ٥٢، ٥٣.

(٤) سورة الأحقاف : أية ٢٩ ، ٣٠.

(٥) سورة الشعراء : أية ١٩٦.

وهذا الوحى يمثل الأدلة النقليــة للنظم الإسلاميـة، وإليه ترجع كل المصادر الأخرى. ويشمل «ما أوحى به الله - سبحانه - من كتاب وسنة، الأول بلفظه ومعناه، والثانى بمعناه دون لفظه وباستعمالنا للوحى جمعنا الكتاب والسنة»[١].

والذى يجب التنبيه إليه هو أن هذه المصادر كلها ترجع إلى مصدر واحد وهو النصوص، وهى الكتاب والسنة، فكل مصدر بعد ذلك منبعث منهما ومعتمد عليهما، ولذا كان الشافعى - رضي الله عنه - يقول فى قوة : «إن الأحكام لا تؤخذ إلا من نص أو حمل على نص»[٢].

ومن الوحى المتمثل فى الكتاب والسنة جاءت بقية مصادر النظم الإسلامية من إجماع وقياس وغير ذلك من الأدلة، «وهذه الأدلة كثيرة بعضها مجموع عليه، وبعضها موضع خلاف، فموضع الاتفاق الكتاب والسنة والإجماع، والجمهور على اعتبار القياس دليلا رابعا»[٣].

يقول الامام الشافعى : «ليس لأحد أن يقول فى شئ : حل ولا حرم إلا من جهة العلم. وجهة العلم الخبر فى الكتاب أو السنة، أو الإجماع أو القياس»[٤].

وقد اصطلح العلماء على تقسيم مصادر النظم التى تتعلق بالشريعة المحمدية الخاتمة إلى قسمين :

«الأول : قسم الأدلة النقلية، والآخر قسم البراهين العقلية»[٥].

---

(١) المستشار د. على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا، دار الوفاء بالمنصورة ط ثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م ٨٩.

(٢) محمد أبو زهرة : أصول الفقه، دار الفكر العربى ٥٨.

(٣) المصدر السابق ٥٧.

(٤) محمد بن إدريس الشافعى : الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية ٣٩.

(٥) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٦٤.

وهناك من قسم مصادر الشرعية الإسلامية إلى :

* المصدر الأصيل : الوحى.

* مصادر ملحقة وتابعة (١).

وقريب من هذا من قال : مصادر أصلية ومصادر تبعية (٢).

ويرى البعض أن بعض هذه الأدلة نقلى، وهو الكتاب والسنة .. وأن بعضها عقلى وهو القياس، والمصلحة المرسلة والاستحسان والاستصحاب، فإن الواضح فيها هو عمل العقل واجتهاده»(٣).

يقول الإمام الشاطبى : «الأدلة الشرعية ضربان : أحدهما مايرجع إلى النقل المحض. والثانى مايرجع إلى الرأى المحض. وهذه القسمة هى بالنسبة إلى أصول الأدلة، وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر، لأن الاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر، كما أن الرأى لا يعتبر شرعا إلا إذا استند إلى النقل»(٤).

والذى نختاره أن مصادر النظم الإسلامية فى الشريعة المحمدية الخاتمة ترجع إلى الوحى وحده، لأنها جميعا تفتقر إلى الأدلة النقلية ودور العقل فيها إنما هو الاستخراج والبناء والاستنباط، فهى لا تصدر عن تفكير عقلى مجرد.

---

(١) المستشار د. : على جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ٨٩.

(٢) د . عبد الغفار عزيز وآخرون : أضواء على النظم والثقافة الإسلامية ١٩٨٢ ص ٤٩.

(٣) د . زكريا البرى : مصادر الأحكام الإسلامية، دار الاتحاد العربى للطباعة ١٩٧٥ ص١٣.

(٤) الموافقات فى أصول الشريعة ٣/٤١.

المصدر الأول القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله على رسوله سيدنا محمد - ﷺ - رحمة وهداية للعالمين، «وهو كتاب الإسلام، والمصدر الأول لتشريعه وتوجيهه»[١]، وهو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر المسلمة»[٢].

وقد ذكر العلماء تعريفات كثيرة للقرآن الكريم من باب «تقريب معناه وتمييزه عن بعض ماعداه مما قد يشاركه فى الاسم ولوتوهما، ولبيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التى امتاز بها عن سائر كتب الله - تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية التى تشارك القرآن فى كونها وحيا إلهيا»[٣].

ومن هذه التعريفات أن القرآن الكريم هو «اللفظ المنزل على النبى - ﷺ - المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته»[٤].

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخاتم وآخر الوحى الإلهى الذى اختص به رسوله محمد بن عبدالله - ﷺ - المعجز المصدق المهيمن، الجامع للنظم الإلهية والأحكام الربانية التى تحقق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة، ولبيان ذلك نعالج الأمر فى الخطوات التالية.

أولا : دعائم مصدرية القرآن للنظم :

تحتاج المصادر فى إثباتها إلى دعائم وأدلة موضوعية تتواءم مع مكانتها التشريعية ورسالتها الحضارية، وتحقق للعقل والقلب اليقين

---

(١) د . يوسف القرضاوى : الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، دارالقلم ط ثانية ١٩٨٩ ص ١٧.

(٢) الشاطبى : الموافقات ٣٤٦/٣.

(٣) د . دراز : النبأ العظيم، دار القلم ط رابعة ١٩٧٧ ص ١٤.

(٤) الزرقانى : مناهل العرفان ٢٠.

والاستقرار، وقد توافرت الأدلة والدعائم التى تجعل القرآن الكريم المصدر الأول للنظم الإسلامية.

١) القرآن كتاب الله.

أولى هذه الدعائم أن القرآن الكريم كتاب الله - تعالى - الذى يتضمن كلماته وأحكامه وأوامره ونواهيه، فالقرآن الكريم إلهى المصدر، إنسانى المقصد، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[١].

وقد تولى الله أمر القرآن الكريم فى كل شأن من شؤونه من البداية حتى كمل وتم إنزاله يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾[٢] ويقول تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾[٣] هذا هو الخط النورانى الذى انتقل فيه القرآن الكريم من الملأ الأعلى حتى نزل على قلب سيدنا محمد - ﷺ - تتولى يد القدرة الإلهية والعناية الربانيه تثبيته فيه وجمعه له وقراءته له يقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٤]. ويقول تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦)﴾[٥]. ويقول تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾[٦].

---

(١) سورة التوبة : آية ٦.

(٢) سورة ص : آية ٢٩.

(٣) سورة الشعراء : آية ١٩٢ : ١٩٥.

(٤) سورة طه : آية ١١٤.

(٥) سورة الأعلى : آية ٦.

(٦) سورة القيامة : آية ١٦ : ١٩.

وعلى ذلك «يجب أن ينظر إلى القرآن بوصفه «كلام الله» المعبر عما يحبه ويرضاه من خلقه، ليس لجبريل - أمين الوحى - من القرآن إلا نقله من (أم الكتاب) أو (اللوح المحفوظ) إلى قلب محمد - ﷺ - وليس لمحمد - ﷺ - منه إلا قراءته وحفظه حتى لا ينسى»[١].

ولما كان القرآن الكريم إلهى المصدر، تجلت فيه صفات الربوبية والألوهية وصفات الجلال والكمال والجمال، فى عقائده، وعباداته، ومعاملاته وفى كل جانب من جوانب النظم الآفاقية والأنفسية.

إن القرآن الكريم كتاب إلهى، وتلك حقيقة ميسرة الفهم واضحة المعانى والمضامين، دلل عليها القرآن الكريم بدليل موضوعى يناسب كل العقول، وذلك فى قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾[٢].

وهذا ميزان يضعه القرآن الكريم لمعرفة الوحى الإلهى من الوحى الذى داخله التحريف والتبديل مما ينسبه البشر إلى الله ويزعمون أنه وحى إلهى.

والاختلاف يعنى التضارب والتعارض والتناقض فى الشئ الواحد، وكذلك بين ماهو مسطور وماهو فى الكون والنفس منظور.

وقد جاء القرآن حاملا أدلته على أنه من عند الله وذلك «لا تساق معانيه وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق»[٣]. وظهور آياته واضحة جلية فى الآفاق والأنفس كما

---

(١) انظر د . يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق ط ثالثة ٢٠٠٠ ص٢٠.

(٢) سورة النساء : آية ٨٢.

(٣) محمد بن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى القرآن ٥٦٧/٨.

يقول تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(١).

وهكذا فالوحى الصحيح الصادق كلما تقدم العلم التجريبى كلما ضاقت المسافة بينهما، والوحى المحرف المبدل كلما ظهرت الحقائق الكونية والانسانية كلما ظهر تحريفه وتبديله وزيفه وأنه ليس كلام الله، لأنه من عند غير الله.

أما القرآن فكلام الله فى اللفظ والمعنى والمظهر والجوهر(٢).

٢) الحفظ الإلهى للقرآن.

من الدعائم التى تؤكد المصدرية المؤيدة للقرآن الكريم حفظ الله له، وصيانته جملة وتفصيلا عن عبث العابثين وتحريف المحرفين يقول تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾(٣).

والصيغة تدل على التأكيد من عدة أوجه يعرفها دارسوا العربية، منها: اسمية الجملة وتأكيدها بحرف «إن» ودخول اللام المؤكدة على الخبر (لحافظون)(٤).

ومفهوم الحفظ الإلهى للقرآن الكريم عام وشامل يستعرض الزمان والمكان والأحداث والمتغيرات، ويبقى القرآن الكريم كما قال الله

---

(١) سورة فصلت : آية ٥٣.

(٢) راجع فى هذا الصدد :

. د. محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ١٩ ومابعدها.

. موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ ص١٣٥ وما بعدها.

(٣) سورة الحجر : آية ٩.

(٤) د. يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ٣٠.

- تعـالى - : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾[(١)].

وهكذا يبقى الحفظ الإلهى للقرآن الكريم معجزة باقية مابقى القرآن الكريم شاهدة بربانية هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة»[(٢)].

يقول الإمام الفخر الرازى : «لم يتفق لشئ من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما فى الكثير منه أو فى القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعى الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات»[(٣)].

والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت لا التأبيد، وأن القرآن جئ به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها ولم يكن شئ منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه، وهو الحكيم العليم»[(٤)].

وعندما نتأمل هذا الحفظ الإلهى للقرآن الكريم نجد أنه حجة قائمة على غير المسلمين. إذ كيف بهم لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة وقد مضى عليها أكثر من ألف وأربعمائة سنة ... ؟

---

(١) سورة فصلت : آية ٤٢.

(٢) انظر سيد قطب : فى ظلال القرآن ٤ / ٢١٢٧.

(٣) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ١٩/١٦١.

(٤) د . محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ١٣ وما بعدها.

إننا نقول إنهم يؤمنون بالحقائق والقوانين الكونية ويقولون إنها ثوابت لا تتغير وهى فى رأيهم محفوظة، وكان هذا يقتضى منهم أن يبحثوا عن الكتاب الثابت المحفوظ الذى لا يتغير - رغم محاولة أعداء الاسلام ذلك - وأن يبحثوا عن أسباب ذلك، ولن يصلوا إلى ذلك إلا إذا طبقوا مناهج البحث عندهم تطبيقا صحيحا سليما وذلك بأن يعتبروا الكتب الدينية مجالا للبحث وصولاً إلى القانون الثابت منها، فإذا كانت القوانين العملية محفوظة من التغيير وهى تمثل الكتاب العملى المنظور، فأين الكتاب المسطور الذى يمثل القانون النظرى الثابت المحفوظ الذى يشرح القوانين العملية المنظورة؟

إن القرآن محفوظ لأنه كتاب الله، يضم كلام الله، وكلام الله حق - قانون - ثابت لا يتغير، والقوانين والثوابت لا تتبدل ولا تتغير فى منطق العقلاء ولا عند المتخصصين من علماء الطبيعة.

يقول موريس بوكاى : «لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى»[1].

٣) السند المتصل للقرآن.

الوحى حقيقة والإيمان بالكتب الإلهية شرط لصحة الإيمان فى كل الرسالات، ولكن نسبة أى كتاب إلى الله - سبحانه - دعوى تحتاج إلى دليل يثبتها، وقد وضع الباحثون قواعد وشروطا لأجل أن يكون الكتاب حجة وتصح نسبته إلى الله تعالى منها : أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبى الذى أنزل عليه، ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل بلا

---

(١) موريس بوكاى : دراسة الكتب المقدسة ٢٨٦.

تغير ولا تبديل»[١] وعندما نطبق ذلك على القرآن الكريم المصدر الأول للنظم الإسلامية فإننا نجد الآتى :

- تدوين القرآن بين يدى رسول الله ﷺ .

تم جمع القرآن الكريم فى عهد النبى - ﷺ - بطريقتين :

طريقة الحفظ فى الصدور، وطريقة الكتابة فى السطور، وقد اتخذ رسول الله - ﷺ - لنفسه كتابا يكتبون الوحى ويسجلونه عند نزوله، «وكان للنبى - صلوات الله وسلامه عليه - من الكتاب مايزيد عددهم على أربعين كاتبا»[٢]، وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة الذين لا يخلو مجلس رسول الله - ﷺ - منهم أو يرسل فى طلبهم إذا نزل الوحى بشئ من القرآن ليكتبوه، يقول البراء بن عازب - رضي الله عنه - لما نزلت - لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله[٣] - قال النبى - ﷺ - ادع لى زيداً وليجئ باللوح والدواة أو الكتف والدواة. ثم قال : اكتب - لا يستوى القاعدون»[٤] فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله : «غير أولى الضرر»[٥] وهذا زيد بن ثابت يخبر عن نفسه بذلك فيقول : «كنت جار رسول الله - ﷺ - فكان إذا نزل الوحى أرسل إلى فكتبت الوحى»[٦] وقد اشتملت كتابة النبى - ﷺ - على إثبات النص وتوثيقه، وإنزاله فى مكانه من السورة التى يرشده إليها جبريل - عليه السلام - وقد جاء فى مسند الإمام

---

(١) رحمت الله الهندى : إظهار الحق، تحقيق د. محمد أحمد ملكاوى، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء. السعودية ط أولى ١٤١٠هـ ١ / ١٠٩.

(٢) محمد زاهد الكوثرى : مقالات الكوثرى، المكتبة الأزهرية ١٤١٤هـ ١٩٩٤/م ١٠٢.

(٣) سورة النساء : آية ٩٥.

(٤) صحيح البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب كاتب النبى. فتح البارى ٢٦/١٩.

(٥) المصدر السابق، كتاب التفسير، باب «لا يستوى القاعدون من المؤمنين» الآية ٦٢٨/١٧.

(٦) أبو بكر السجستانى : كتاب المصاحف، مؤسسة قرطبة ١٩٨٦ ص ٣.

أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : «كنت جالسا عند رسول الله - ﷺ - إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾[١] [٢].

وطبقا لهذا المنهج الذى اتبعه رسول الله - ﷺ - لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن الكريم مكتوب كله.ومدون وموثق ومرتب.

- جمع القرآن الكريم فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

ترك رسول الله - ﷺ - القرآن مكتوباً فى العسب واللخاف والرقاع وغير ذلك «لكن كانت مفرقة فجمعها أبو بكر فى مكان واحد ثم كانت بعده محفوظة إلى أن أمر عثمان بالنسخ منها فنسخ منها عدة مصاحف وأرسل بها إلى الأمصار»[٣].

وقد أعلم الله - تعالى - فى القرآن بأنه مجموع فى الصحف فى قوله تعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾[٥] وقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) ﴾[٦].

ولذلك لما دعت الدواعى إلى ذلك واجتمعت الأسباب لم يتأخر أبو بكر الصديق ومعه جمع الصحابة - ﷺ - عن جمع القرآن فى مصحف واحد،

---

(١) سورة النحل : آية ٩٠.

(٢) مسند أحمد. دار صادر لبنان ط أولى ١٩٦٩م ٢١٨/٤.

وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب التفسير باب فى تفسير سورة النحل وقال بعد أن عزاه إلى أحمد والطبرانى : وبشر وثقه أحمد وجماعة وضعفه لا يضر، ط القدس ٧/ ٤٨.

(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى ١٤/١٩.

(٤) سورة البينة : آية ٢.

(٥) سورة القيامة : آية ١٧.

(٦) سورة الأعلى : آية ١٨.

وقد اتبع أبو بكر فى ذلك منهجا إيمانيا علميا واضح المعالم، فقدم الأسباب التى دفعته إلى ذلك وهى المتمثلة فى قول عمر - رضي الله عنه - لأبى بكر : «ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن»[١]، ثم اتخذ الوسائل والأسباب المتممة لهذا الواجب فأرسل إلى زيد بن ثابت ليقوم بهذه المهمة التى قال عنها : «فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ماكان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن»[٢] وعلل أبو بكر اختياره لسيدنا زيد بن ثابت بقوله : «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -»[٣] فما كان من زيد إلا أن قبل المهمة، «فقام عمر فى الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا من القرآن فليأتنا به»[٤] وقال أبو بكر لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت : «أقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شئ من كتاب الله فاكتباه»[٥].

وكان هذا رغبة فى توسيع دائرة الإعلام بجمع القرآن الكريم بغية الاستقصاء وأن يكون ذلك بإجماع الأمة.

وبعد أن أتم زيد بن ثابت جمع القرآن الكريم كاملاً «كانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه »[٦] وفى خلافة سيدنا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - كثرت الفتوحات الإسلامية ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وكان أهل كل إقليم من أقاليم

---

(١) أورده البخارى فى صحيحه كتاب فضائل القرآن؛ باب جمع القرآن فتح البارى ١٩/١٢.

(٢) المصدر السابق ١٩/١٥.

(٣) نفس المصدر ١٩/١٤.

(٤) أبو بكر السجستانى : المصاحف ١٠.

(٥) المصدر السابق ٦.

(٦) البخارى فى الصحيح كتاب فضائل القرآن. باب جمع القرآن. فتح البارى ١٩/١٨.

الإسلام، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ... فكان بينهم اختلاف فى حروف الأداء ووجوه القراءة، «فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى»[١] فاجتمع الصحابة لذلك وبدأ سيدنا عثمان بن عفان تشكيل اللجنة التى تقوم بنسخ الصحف التى تركها أبو بكر فى المصاحف التى أراد أن يجمع عليها الناس، وكان على رأس القائمين بهذه المهمة زيد بن ثابت، «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا»[٢].

وبذلك توحدت الأمة فقد أرسل عثمان بن عفان «إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا»[٣].

والفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان، أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شئ بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد فجمعه فى صحائف مرتبا لآيات سوره على ما أوقفهم عليه النبى - ﷺ - فجمع عثمان كان لما كثر الإختلاف فى وجوه القراءة، حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجا بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع قراءته بلغة غيرهم رفعا للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر - أى فى التدوين - على لغة واحدة»[٤].

---

(١) المصدر السابق ١٩ / ٢٠.

(٢، ٣) نفس المصدر ١٩ / ٢٣.

(٤) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث ط ثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ١/١٧١.

وكما كان جمع أبى بكر للقرآن وكتابته فى الصحف بإجماع الصحابة، كان جمع عثمان للمسلمين على قراءة واحدة كتب بها المصحف الشريف بإجماع الصحابة الذين هم أهل العقد والحل.

يقول الإمام على بن أبى طالب - ﷺ - : «يا أيها الناس لا تغلوا فى عثمان ولا تقولوا له إلا خيرا فى المصاحف - أى التى جمعها - وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا جميعا»[١].

وهكذا كتب القرآن الكريم كاملا بين يدى رسول الله - ﷺ - وجمع بين يدى أبى بكر الصديق فى الصحف كاملا، وجاء سيدنا عثمان فكتب من هذه الصحف المصحف الإمام الذى جمع عليه المسلمين جميعا.

يقول موريس بوكاى : «صحة القرآن التى لا تقبل الجدل تعطى النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ولا يشترك مع نص القرآن فى هذه الصحة لا العهد القديم - كتاب اليهود - ولا العهد الجديد - كتاب النصارى - ... لسبب بسيط وهو أن القرآن قد ثبت فى عصر النبى - ﷺ[٢].

٤) التصديق لمصادر النظم السابقة والهيمنة عليها.

- التصديق.

شأن الوحى الصحيح أن يصدق ماسبقه من رسالات وأن يمهد ويقدم لما يخلفه من وحى ورسالات، فالركب واحد والطريق واحد والمقصد والغاية واحدة يشير إليها قول الله تعالى : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[٣].

---

(١) أبو بكر السجتانى : المصاحف ٢٢.

(٢) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ١٥١.

(٣) سورة الشورى : آية ١٣.

وقد قطعت الرسالات الإلهية فى ذلك شوطا عظيما فكان التصديق بجميع الكتب التى أنزلها الله وجميع الرسل الذين أرسلهم الله شرطا لصحة الإيمان، وكان كل نبى يذكر قومه بذلك ويدعوهم إليه تحقيقا لإقامة الدين التى بها تتم مواجهة المشركين، وبذلك تتصل حلقات الوحى الإلهى وتبقى حقائقه قائمة فى دنيا الناس إما بإرسال رسول أو ببعثة نبى أو بتابع يدعو إلى الدين وحقائقه كما هو الحال فى مؤمن آل فرعون، ولقمان، وأصحاب الكهف وغيرهم. حتى أذن الله بتمام الأمر وختام الوحى بنزول القرآن الكريم فجاء مصدقا لما بين يديه متفرداً بالهيمنة على كل ماسبقه.

أما التصديق فإليه الاشارة بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) ﴾[٢].

والتصديق[٣] الذى صدق فيه القرآن الكريم ماسبقه من كتب الله متعدد المظاهر.

- مظاهر التصديق.

* أنه أثبت الوحى وقرر إمكانه ووقوعه[٤].
* أنه قرر أن الله أرسل رسلا كثيرين قبل محمد - ﷺ - وأوحى إليهم، فهذا تصديق لأصل الوحى وللرسالات السابقة، وبذلك يكون القرآن مصدقا لما بين يديه، ويكون محمد كذلك مصدقا لمن سبقه من رسل الله.

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢، ٣.

(٢) سورة يونس : آية ٣٧.

(٣) ورد هذا الوصف فى ست عشرة آية. انظر محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة ط رابعة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ٥١٣ وما بعدها.

(٤) انظر محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ١٠٩.

* أنه جاء حسب وصفه الموجود فى تلك الكتب، وذلك أنها قد اشتملت على وصف خاتم الرسل وأنه يأتى بكتاب من عند الله، فنزول القرآن على وفق هذه النعوت تصديق له(١).

* أن القرآن قد وافق هذه الكتب فى مقاصد الدين الإلهى وأصوله التى لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات.

* أن الله جمع فيه ماتوزع فى هذه الكتب من فضائل وصاغها فى قوالب جديدة، فأنقذ بذلك تراث من سبقه من كتب الله وحفظه وصدقه ولولاه مابقى لهذا التراث وجود(٢)، ولذلك سمى هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعا لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم»(٣).

وهذه الحقيقة - التصديق - تقرر - ضمنا - أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة، فهى سائرة على نمط الرسالات قبلها، وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة. ونزل على رسول البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر، وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله، يضم جناحيه على «الحق» الذى تضم جوانحها عليه. وقد نزله من يملك تنزيل الكتب.. فهو منزل من الجهة التى لها «الحق» فى وضع منهاج الحياة للبشر، وبناء تصوراتهم الإعتقادية، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم فى الكتاب الذى ينزله على رسوله»(٤).

---

(١) انظر الواحدى : الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، تحقيق محمد حسن أبو العزم، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٤١٦هـ ١٩٩٥م ٢/٧.

(٢) انظر د. إبراهيم عبدالحميد سلامه : محاضرات فى التفسير الموضوعى ١٤٠٤هـ ١٩٨٣ ص٣ وما بعدها.

(٣) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ٤٠٢.

(٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن ١/ ٣٦٢.

إن القرآن الكريم بتصديقه للكتب الإلهية السابقة قد أثبتها كحقيقة سابقة وكذلك من أنزلت عليهم، كما أنه جدد الدعوة إلى كل ماكان فيها من أصول وأحكام، وبذلك يكون قد أحياها، والأهم من ذلك أنه أضاف إليها الأحكام الجديدة التى لم تكن فى الكتب السابقة، وكان يكفى أهل الكتاب أن يصدقوا به فكتبهم موجودة فيه كما أنزلها الله وليست كما فى أيديهم الآن مما يسمى بالعهد القديم والعهد الجديد.

- الهيمنة.

من الخصائص التى تفرد بها القرآن الكريم دون سائر كتب الله السابقة عليه أنه مهيمن عليها يقول تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(١).

والهيمنة تعنى أن القرآن أمين على كل كتاب قبله .. فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل، وهو عليها شهيد وحاكم، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ماقبله وزاده من الكمالات ماليس فى غيره لهذا جعله شاهداً وأمينا وحاكما عليها كلها وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة»(٢).

وهذا يقرر لنا أن مفهوم الهيمنة أتم وأشمل من مفهوم التصديق، لأن الهيمنة لا تقتصر على مجرد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزالها وتقرير أصول شرائعها، بل تتعدى ذلك فتبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن بذلك مهيمن على المعانى الصحيحة التى

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٨.

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢/٦٥.

كانت فى تلك الكتب وشاهد بكونها من عند الله وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق ولكنه كذلك يشهد عليها بما أصابها من تحريف وتسرب إليها من باطل وكذب أو نسخ، وبه تنفرد الهيمنة بمفهومها الذى هو أتم وأشمل من مفهوم التصديق»[١].

وصفة الهيمنة واسعة الدلالة بعيدة المعانى، فالقرآن إذا قارنت بينه وبين أى كتاب إلهى آخر سبقه فى أى جانب من الجوانب التى يعالجها الوحى الإلهى لوجدت أن الهيمنة للقرآن فهو كتاب الساعة وكتاب المستقبل وتلك كتب الماضى، وحقيق بالإنسان أن ينتقل من الماضى إلى الحاضر. إن هيمنة القرآن الكريم، هيمنة موضوعية، وعلمية، وهى هيمنة القوة الفكرية والعقلية، وهيمنة النظم الإسلامية، وهيمنة السيطرة على المشاعر والأحاسيس والعواطف، إنها هيمنة الطاقة التى تظهر ظهوراً لا يدانيه ظهور آخر يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾[٢].

- مظاهر الهيمنة.

* إخباره بتحريف وتبديل الكتب السابقة وخصوصا ما بأيدى أهل الكتاب، وأنها لم تبق على ماكان مفروضا فيها من الثقة بها، بل تناولتها أيدى أهل الكتاب بالتحريف والحذف والإضافة.
* بين كثيرا من المسائل الكبرى التى خالفوا واختلفوا فيها فى العقائد[٣] والعبارات والمعاملات.

---

(١) د . ابراهيم سلامة : محاضرات فى التفسير الموضوعى ١١.

(٢) سورة الصف : آية ٨ ، ٩.

(٣) راجع فى ذلك رسالتنا للتخصص (الماجستير) مفتريات أهل الكتاب حول الذات الإلهية فى العهد القديم والعهد الجديد والرد عليها. مكتبة كلية أصول الدين القاهرة ١٩٩٢م.

* بين كثيراً من المسائل التى أخفوها أو حاولوا إخفاءها، ومن ذلك أن الدارس لأسفار العهد القديم يرى أنها جاءت خالية من ذكر اليوم الآخر[١]، وكذلك إخفاؤهم ما يتصل بخاتم الرسل - ﷺ - سيدنا محمد من بشارات ونعوت وتحريفهم لها. يقول تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٢].

ومن مظاهر هيمنة القرآن الكريم على كتب الله الأخرى، أنه أنهى العمل بها فلا اعتبار لها بجانبه لأنه شغل الكون كله بتشريعه الجديد، وليس لأحد أن يركن إلى ماجاء بها بعد أن تسرب الباطل إليها،[٣] وهذا ما يؤكده قول سيدنا رسول الله - ﷺ - لعمر بن الخطاب حين رآه ينظر فى صحيفة من التوارة المحرفة :

«لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى»[٤]

٥) الاعجاز القرآنى.

من الدعائم المحورية التى يقوم عليها القرآن الكريم فى صدارته لمصادر النظم إعجازه الشامل الكامل حيث تحدى الله به الإنس والجن، يقول تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾[٥].

وحتى تضح الصورة فى الأذهان فإننا نبين مفهوم الإعجاز.

---

(١) راجع فى ذلك رسالتنا للعالمية (الدكتوراة) الإنسان فى العهد القديم والقرآن الكريم دراسة مقارنة فصل نهاية الإنسان فى العهد القديم. مكتبة كلية أصول الدين القاهرة ٢٣٢.

(٢) سورة المائدة : آية ١٥.

(٣) انظر د . إبراهيم سلامة : محاضرات فى التفسير الموضوعى ١٣ وما بعدها.

(٤) رواه أحمد عن ابن عباس وابن حبان بلفظ «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى» عن جابر كنز العمال كتاب الإيمان والإسلام قسم الأقوال. دار الكتب العلمية ط أولى ١٩٩٨م ١١٣/١.

(٥) سورة الطور : آية ٣٤.

- مفهوم الإعجاز.

يقال عجز عن الشئ عجزاً : ضعف ولم يقدر عليه، ويقال أعجز فلان : سبق فلم يدرك، والشئ فلانا : فاته ولم يدركه[١]. والعجز القصور عن فعل الشئ وهو ضد القدرة[٢] والإعجاز الفوت والسبق[٣].

والمعجزة : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبى تأييداً لنبوته، وما يعجز البشر أن يأتوا بمثله»[٤].

وفى الاصطلاح : أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد الأنبياء مقرونا بالتحدى مع عدم المعارضة»[٥].

وعلى هذا فإعجاز القرآن للإنس والجن يعنى أنه فوق قدرتهم أن يأتوا بمثله أو ببعضه أو حتى يحاكوه، فقد فاتهم ذلك وسبقهم القرآن فلم يدركوه، إذ هو كتاب الله فيه كلامه، والله هو القوى وهم أهل الضعف وشأنهم القصور والتقصير فليس لهم قدرة على ذلك، فالفارق بين المخلوق والخالق فى النقل والعقل ثابت.

- حقيقة الإعجاز القرآنى.

أرسل الله الأنبياء والرسل دعاة هداة يخاطبون الناس بما يفهمون ويجادلونهم فيما يعرفون أخذاً بأيديهم إلى النظم الإلهية التى تحقق لهم كمال العبودية وكمال الإنسانية ومن هنا كان كل رسول يتحدث بلسان قومه يقول تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[٦] أى بما

---

(١) المعجم الوسيط ١/ ٥٨٥.

(٢) الراغب الأصفهانى : المفردات ٣٢٢.

(٣) ابن منظور : لسان العرب ٣ / ٢٨١٧.

(٤) المعجم الوسيط ١ / ٥٨٥.

(٥) انظر القرطبى : الإعلام، دار التراث العربى ١٩٨٠/ م ٢/٢٣٩.

(٦) سورة إبراهيم : آية ٤.

يعرفون ويفهمون، ولكن أسباب الجمود الداخلية والخارجية كانت تمنع الإنسان من الإيمان، وذلك لجهله بها فكانت الحجج الدامغات والآيات البينات والقواطع الثابتات متمثلة فى المعجزات حتى لا يبقى لدى الإنسان حجة فى عدم الإيمان، وكانت المعجزات الإلهية مناسبة للزمان والمكان الذى تأتى فيه.

والمتأمل فى أحوال الأمم السابقة يرى عجز الإنسان - غير المسلم - أمام الطبيعة مما جعل علاقته بها قائمة على العبادة والتقديس لمظاهر هذه الطبيعة، وذلك لوقوف الإنسان عند الحسيات دون استخدام العقل والفكر. وتبعا لذلك جاءت معجزات الأنبياء والرسل السابقين تتصل بالواقع الفكرى والعقلى لكل مجتمع، فكانت المعجزات حسية، تقوم على خرق النواميس الكونية التى يراها الناس ثابتة، فكان تغييرها دليلا على الإعجاز للغير وتحقيقا لصدق الرسول وتصحيحا للمفاهيم الخاطئة والسائدة، فالطبيعة كلها لله مسبحة وطائعة وللإنسان مذللة ومسخرة. فكيف تعبد وتقدس وهى تخرق وتوقف خواصها عن العمل كما هو الشأن فى إبراهيم - عليه السلام - ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾[1] وفى موسى - عليه السلام - ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[2] ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾[3] وفى عيسى - عليه السلام - يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٦٩.

(٢) سورة البقرة : آية ٦٠.

(٣) سورة الشعراء : آية ٦٣.

فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾[1].

ولكن المقدرات الربانية فى الإنسان أعلى من ذلك القصور فى التفكير وأعظم من الوقوف عند المحسات فقط، وكلما زاد احتكاك الإنسان بالكون وسننه كلما ارتقى فكريا وعقليا، فكان بحاجة إلى خطاب جديد يحتوى على إعجاز جديد يتفق مع واقعه العلمى والفكرى، وهذا هو إعجاز القرآن الكريم للناس جميعا منذ نزوله وإلى أن تقوم الساعة، يقول تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم (٥٢) ﴾[2].

ويقول رسول الله - ﷺ - : «ما من نبى من الأنبياء إلا أوتى من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[3].

وهنا تظهر حقيقة الإعجاز القرآنى، «فهو معجزة معنوية لا مادية، وآية عقلية لا حسية»[4].

إن الكتب التى نزلت قبل القرآن الكريم لم تكن هى معجزة الأنبياء والرسل، ولذلك لم تكن مجالا للإعجاز ولا التحدى، أما القرآن الكريم فهو المعجزة وهو المتحدى به، وهنا يأتى الفرق بين معجزات الأنبياء والرسل السابقين وبين القرآن الكريم. فالمعجزات الحسية تعتمد على إدهاش

---

(١) سورة المائدة : آية ١١٠.

(٢) سورة الشورى : آية ٥٢.

(٣) الحديث فى صحيح البخارى عن أبى هريرة - ﷺ - كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل. فتح البارى بشرح صحيح البخارى، راجعه طه عبد الرؤف سعد وآخرون، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ١٩/٦.

(٤) د . يوسف القرضاوى : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ٤١.

الأبصار، وإخضاع الأعناق. والقرآن يعتمد على إخضاع العقول، وإنارة البصائر، بما يعجزهم من العلم والحكمة ولهذا كان الإعجاز الحسى لائقا بالأمم فى طفولة النوع الإنسانى، والثانى لائقا بها بعد أن ارتقت الإنسانية وبلغت رشدها[١]، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾[٢] كما أن المعجزات الحسية تنتهى بانتهاء وقوعها، «من رآها فقد آمن بها، ومن لم يرها صارت عنده خبراً إن شاء صدقه وإن شاء لم يصدقه، ولو لم يَرد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث»[٣] أما القرآن الكريم فيبقى ويستمر إعجازه إلى ماشاء الله. والمعجزات الحسية تدل على صحة النبوة والرسالة، ولكنها خارجة عن مضمون الرسالة، أما القرآن الكريم، فهو معجزة الرسالة وهو دستورها الذى يحمل نظمها، ليظل المنهج محروسا بالمعجزة، وتظل المعجزة محروسة بالمنهج.

- **وجوه الإعجاز القرآنى.**

ماكتبه العلماء عن وجوه الإعجاز القرآنى كثير، منه مايتصل بالبيان القرآنى وفيه مايتصل بالإخبار عن الحقائق الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومنه مايتصل بالنواحى العلمية التجريبية إلى غير ذلك من الوجوه، ولكن إعجاز القرآن أعظم من ذلك وأشمل من ذلك.

«إن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير المكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر كغيره من الآثار

---

(١) المصدر السابق بتصرف، نفس الصفحة.

(٢) سورة الشعراء : آية ٤.

(٣) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن. كتاب اليوم ١٩٨١/ م ١٩/١.

الإلهية، يشاركها فى إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها، وما نظنه إلا الصورة الروحية للانسان، إذا كان للإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله»[١] إنه إعجاز شامل شمول نظم الإسلام لكل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان، فكل مجال ينظمه القرآن سواء كان فكراً أم سلوكا فهو معجز لكل تنظيم بشرى فى نفس المجال. إن القلوب مغاليق، يقلبها خالقها فعنده وحده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، والقرآن هو كلام الله وهو المفاتح التى تفتح مغاليق القلوب «وإعجاز القرآن يأتى فى أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا .. الغنى منهم والفقير .. التعيس منهم والسعيد .. الخادم والسيد .. إنه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين .. أى أن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا الخالق، فالله – سبحانه وتعالى – يخاطب فى النفس البشرية ملكات هو خالقها وأن هذه الملكات تتأثر بكلام الله – سبحانه وتعالى – وتهتز له دون فارق من فوارق الدنيا»[٢] إن لسان القرآن الكريم يخاطب العربى وغيره ممن لا يعرف اللسان العربى فيؤثر فيه، بل ويخاطب الجماد وغيره فتراه خشاعا متصدعاً من خشية الله، يقول تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[٣] وماذلك إلا لأن القرآن الكريم يتوافق مع النفس الإنسانية فى المصدر.

ومن صور الإعجاز القرآنى «أننا نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة فى التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار المنار ط أولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م ص ١٢٢.

(٢) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ٣٦/١ وما بعدها.

(٣) سورة الحشر : آية ٢١.

المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التى كانت مغيبة وفى علم الله مايكون من بعد ... وأكبر السبب فى ذلك أن هذا القرآن الكريم يدائر المعانى، ويريغ الأساليب ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهى بهم مما يفهمون إلى مايجب أن يفهموا، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحق، وتراه فى أوضاعه من أجل ذلك يستجمع درجات الفهم كأن فيه غاية لكل عقل صحيح»(١).

- الإعجاز النظمى.

كانت صياغة النظم فى رسالات الأنبياء والرسل السابقين موافقة لأقوامهم، ومن ثم لم تكن هى المعجزة، بينما النظم الإسلامية فى شريعة سيدنا محمد هى أصل المعجزة، والمتأمل فى منظومة النظم الإسلامية من خلال مصدرها الأول وهو القرآن الكريم يرى أن النظم هى بيت القصيد فى الإعجاز، فحروف القرآن وكلماته وآياته أنزلها الله لتؤسس النظام العقدى والتشريعى والأخلاقى والاجتماعى، ومن خلالها تبنى أنظمة الحياة المختلفة وفق المنهج الإلهى والقانون الربانى. واللسان القرآنى العربى الذى تتألف منه النظم الإسلامية على اختلاف مجالاتها بحمل من «الإعجاز مالا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره، إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق، ذلك أن القرآن للعالمين .. أى الدنيا كلها لا يقتصر على أمة بعينها وإنما هو

---

(١) انظر مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ١٦٢ وما بعدها.

الدين الكامل لكل البشر»[١]، ومن ثم كانت نظمه عامة وشاملة وكاملة وباقية يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾[٢] وفى الحديث النبوى عن القرآن : «ولا تنقضى عجائبه»[٣].

يقول ابن تيمية : «ونفس ما أخبر به القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجد مثل ذلك فى كلام بشر، لا نبى ولا غير نبى. وكذلك ما أخبر عن الملائكة، والعرش والكرسى والجن، وخلق آدم وغير ذلك ونفس مايأمر به القرآن من الدين والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو أيضا كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء فى العلوم الإلهية والخلقية والسياسية، وجد بينه وبين ماجاء فى الكتب الإلهية التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء، - الصحيحة المنزلة من الله - تفاوتا عظيما ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم، فالإعجاز فى معناه، أعظم وأكثر من الإعجاز فى لفظه»[٤].

فالقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل، وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لا يساويه شئ من الكتب، بل لا يقرب منه شئ من المصنفات ... فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، عقليها ونقليها، اشتمالا يمتنع حصوله فى سائر الكتب فكان ذلك معجزا»[٥].

---

(١) انظر محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن ٢٣.

(٢) سورة الكهف : آية ١٠٩.

(٣) جزء من حديث رواه الترمذى فى سننه كتاب فضائل القرآن باب ماجاء فى فضل القرآن رقم ٢٩٠٦ سن الترمذى تحقيق أحمد محمد شاكر المكتبة الثقافية ٥/ ١٥٨.

(٤) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، قدم له على السيد صبح المدنى، مطبعة المدنى ٤/ ٧٨.

(٥) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ١٧/٩٥.

وبإعجاز القرآن الكريم جاءت نظم الاسلام معجزة لكل النظم البشرية، وبيان ذلك أن الباحث فى النظم الإسلامية يرى القوانين والمبادئ والأحكام مرتبطة بالعقيدة فكراً وقلبا وبالأخلاق سلوكا وتطبيقا، تحمل فى طياتها حقائق علم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الصحة بوجه عام والعلوم الاقتصادية والعسكرية، فى الوقت الذى لم يدرك العلم الحديث هذا التداخل والترابط بين العلوم والنظم إلا مؤخراً، ولكن أنى لهم أن يجمعوا ذلك فى نص واحد يملك خصائص النص القرآنى المعجز.

وبالمثال يتضح المقال. حدود العورة فى النظم الإسلامية، يقسمها الإسلام ويبين حكمها، وكيف يتعامل المسلم معها، ثم يفصل القول فى زى المرأة ويعقب على ذلك بالآثار الايجابية المترتبة على الالتزام، والآثار الفاسدة المترتبة على المخالفة والعصيان.

ولا شك أن التبرج يؤدى إلى خلل نفسى فى المجتمع وخلل اقتصادى وعسكرى وقضائى وعلمى وصحى وفكرى.

تقول إحصاءات جمعية السرطان الأمريكية إن مايشخص الآن من سرطانات الجلد بأمريكا يبلغ ثمانية أضعاف ماكان يشخص من ثلاثين عاما. ويعتقد معظم الباحثين أن الأسباب الرئيسية فى ذلك هى :

- كبر السن.
- تحسين إمكانات كشف المرض.
- كثرة الخروج من المنازل.
- موضة الملابس التى تعرض من الجسم الكثير إلى الشمس. لا سيما المايوهات البكينى.
- وربما كان نضوب الأوزون هو الآخر سببا.

ومن المتوقع كما يقول تقدير حكومي أمريكي - أن يؤدى هذا السرطان إلى وفاة ٣ ملايين من البشر فى عام ٢٠٧٥»[١].

وهنا يأتى إعجاز النظم فى القرآن الكريم، فالنظم الوضعية لا تستطيع الوقوف على العلاقة القائمة بين مخالفة المنهج الإلهى وظهور الفساد فى البر والبحر. لأنها تفقد أصلا البناء الهيكلى للنظم المختلفة ولا تدرى الجوهر الذى يمثل روح النظم، ولهذا كان القرآن معجزاً وكانت نظمه هى الأخرى معجزة، وكلما قطعت البشرية شوطا فى البحث والمعرفة كلما ظهر هذا الإعجاز مهيمنا ومتحديا الجميع، يقول تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٢] وإمعانا فى التحدى وإظهاراً للعجز البشرى تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور مثله[٣] أو بسورة واحدة من مثله[٤]، ولكن أنى لهم ذلك فهم بشر والقرآن كلام الله المعجز ونظمه هى الأخرى معجزة.

ثانيا : علاقة القرآن بالنظم.

علم الله آدم الأسماء، وخص الإنسان بالبيان، وأنزل القرآن الكريم بيانا مبينا الحقائق والأصول التى تشمل الوجود كله، فبين القرآن والنظم علاقة تتمثل فى عدد من الحقائق.

١) التأصيل للنظم الإسلامية.

أصل القرآن الكريم للنظم المتعددة التى يحتاج إليها الإنسان فى استقامة حياته، وذلك من خلال المصطلح الجامع لهذه النظم وهو الإسلام الذى يقتضى مسلما ومسلما إليه، وعقد يكون عليه التسليم، وبيان ذلك فى

---

(١) د . أحمد مستجير : أسطورة ثقب الأوزون، مجلة العربى العدد ٤٦١ إبريل ١٩٩٧، دمار البيئة دمار الإنسان كتاب العربى العدد ٤٨ط أولى ٢٠٠٢ ص ٦٥.

(٢) سورة الاسراء : آية ٨٨.

(٣) سورة هود : آية ١٣.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٣.

قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾(١) ومن معانى الدين فى القرآن الكريم «النظام الفكرى والعملى المتكون تحت سلطان من له الحاكمية المطلقة وهو الله تعالى»(٢) فالإسلام هو النظام الفكرى والعملى الذى أنزله الله، وهذا تأصيل للفكر النظمى يبدأ مع عقيدة المسلم ويبدأ مع أركان الإسلام التى قال عنها رسول الله - ﷺ - : «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»(٣) وكذلك مع حقائق الإيمان والإحسان التى جاءت فى قول رسول الله - ﷺ - جواباً عن «سؤال جبريل النبى - ﷺ - عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى - ﷺ - له ثم قال : جاء جبريل - عليه السلام - يعلمكم دينكم فجعل ذلك كله دينا»(٤) أى أن نظام الإسلام شامل وكامل، ويجب أن يقيمه المسلم فى عقله وقلبه وواقعه العملى عملا بقوله تعالى : ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ أى اجعلوه حقيقة إنسانية بارتسامه وحقيقة كونية بتطبيقه فى كل المجالات، أقيموه فى ذواتكم أفراداً وفى حياتكم وكونكم جماعة وأمة، يرى الغير أثر عقيدتها فى الكون، ومعاملاتها التى تقوم على العدل والمساواة، وأخلاقها التى تسمو بالإنسان، فيقول هذا الغير ما أجمل هذا النظام.

والمتأمل فى العرض القرآنى للدين الإسلامى فى كل جوانبه يرى أن المقصد الأسنى فى هذا العرض تنمية الفكر النظمى الإسلامى فى قلب المسلم وعقله حتى يظهر الدين الإسلامى - أى النظام - على الدين كله - أى النظم الوضعية كلها - ومن هنا كان النهى عن التشبه باليهود والنصارى فضلا عن الوثنيين، يقول تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٩.

(٢) انظر أبو الأعلى المودودى : المصطلحات الأربعة فى القرآن ٨١.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام. شرح النووى ١٧٦/١ والبخارى كتاب الايمان باب دعاؤكم إيمانكم. فتح البارى ١٠٠/١.

(٤) البخارى كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، فتح البارى ١٩٢/١.

نصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كَانَ من المشْرِكِينَ (٦٧) ﴾[١] ويقول تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[٢] وقد جاء فى السنة قول النبى - ﷺ - : «خالفوا اليهود»[٣] وقوله : «خالفوا المشركين احفوا الشوارب وأوفوا اللحى»[٤] وقوله : «خالفوا المجوس»[٥].

وقد استوعبت الأمة الإسلامية ذلك منذ القرون الأولى فبحثت فى القرآن الكريم لتستخرج منه النظم الإسلامية التى تعالج قضايا النفس والكون فكانت كتب الأحكام وكتب الفقه مقسمة على أبواب النظم. وكانت كتب العقيدة وكتب الأخلاق والكتب الكونية التى تعرض حقائق القرآن فيما يتصل بالسماء والأرض إلى غير ذلك. وإلى جانب ذلك قامت المؤسسات فى الأمة الإسلامية تؤكد هذا التأصيل والتأسيس، فالجميع معتصمون بحبل الله ويطبقون تعاليمه ونظمه فى كل جوانب الحياة، وبذلك أخذت الأمة الإسلامية صبغتها الربانية يقول تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾[٦] إن القرآن الكريم جاء ليؤصل لعلم النظم الإسلامى ويصبغ الحياة بصبغته التى تقوم على ميزان الحق والعدل والمساواة، ويبنى قواعده فى قلب المسلم وعقله حتى تتجاوب الأمة مع نظم الإسلام منهجا وتطبيقا، وتصبح النظم علما وعملا، فالقرآن «نظام ربانى إنسانى قديم جداً، يبتدئ تاريخه من أول يوم ظهر الإنسان فيه على هذه الكرة الأرضية، وكان ينزل بالتدرج وينتقل من مرحلة إلى مرحلة، وأثناء هذا

---

(١) سورة آل عمران : آية ٦٧.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٢، ١٦٣.

(٣) الحديث فى الصغير برقم ٣٨٧٩ لأبى داود والحاكم والبيهقى عن شداد بن أوس، ورمز له بالصحة. قال المنادى : صححه الحاكم وأقره الذهبى ولم يضعفه أبو داود، وقال الزين العراقى فى شرح الترمذى : إسناده حسن. هامش جمع الجوامع للسيوطى رقم ١٣٤٩٨/٩.

(٤ ، ٥) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الطهارة باب خصال الفطرة شرح النووى ٣ / ١٤٧.

(٦) سورة البقرة : آية ١٣٨.

كانت تعرض أجزاؤه على محك التجربة فى مختلف الطبائع والأحوال والأجواء وقد سنحت له الفرصة لدراسة مقتضيات الحياة وزواياها دراسة فاحصة، ولما تحسنت الأحوال الداخلية للبشرية واستعدت الهيئات النفسية أن تنزل فى أبهى حلة وأكمل صورة وهى التى تجسدت فى الدستور القرآنى»[١] الذى يعطى للنظم «مذهبية تفصيلية فى الوجود كله، تقوم على الحق والعدل والميزان، تنبثق منه أسس وقواعد أنظمة عدة، مترابطة، يربط بينها منطق داخلى دقيق، بحيث يشكل نظاما واحداً متشابكا لا يمكن فصل جزء منه عن جزء»[٢] وبذلك تميزت الأمة الإسلامية وأخذت طابعها وصبغتها فلها شرعيتها، ومنهاجها، ولها طريقها المستقيم، ولها حبلها الممتد بين الخالق والمخلوق، والى ذلك يشير قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾[٤].

والخلاصة أن القرآن يحمل مفردات وكليات تؤصل وتوسس لإقامة النظم الإسلامية فى عقل المسلم وقلبه وواقعه الذى يعيش فيه حتى تتطابق الحقيقة الشرعية للنظم مع الحقيقة الربانية فى الكون يقول تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ ﴾[٥].

٢) المكانة التشريعية للقرآن.

نزل القرآن الكريم ليحمى الإنسان من نفسه ومن أعدائه الذين يتربصون به الدوائر، وذلك من خلال منهجه الوقائى الإلهى الذى يتعامل مع

---

(١) محمد تقى الأمينى : الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآنى، مراجعة د . عبدالحليم عويس، د. عبده زايد ، دار الصحوة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ / م ١٩.

(٢) د . محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى، كتاب الأمة ط ثانية ١٤٠٤هـ ٢٨.

(٣) سورة الكافرون : آية ٦.

(٤) سورة النمل : آية

(٥) سورة لقمان : آية ١١.

النفس الإنسانية ويربيها بتربية اللطيف الخبير الذى أنزل القرآن دستوراً ومنهجا يقدم النظم بطريقة تتوافق مع الخصائص التى أودعها الله فى الإنسان، وأهم معالم ذلك :

- النصوص الثوابت (الدستور).

تقوم الدساتير البشرية على نصوص وضعت من خلال أفراد فوض لهم المجتمع ذلك، ولكن هذه الدساتير كثيرة التغيير والتبديل وذلك لمعالجة القصور وتحقيق المصلحة من وجهة النظر البشرية.

أما النظم الإسلامية وأحكامها فتقوم على نصوص صياغتها ربانية، تتمتع بالثبات والعموم والشمولية، ضمن الله لها الحفظ وأضفى عليها تاج الإعجاز والهيمنة.

وهذه النصوص ثوابت قواطع في مجالها جوامع، قولها فصل سواء فى العقيدة أم فى العبادة أم في المعاملات السياسية والاجتماعية، أم فى الأخلاق أم في الكونيات والإنسانيات. صياغتها في التوجيه والتعلم تناسب المقام، وفي الأحكام والقوانين تناسب المقام، تجمع بين أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وتراعي الجوانب الإنسانية فتتعامل مع الخصائص النفسية بما يحقق لها صالحها.

وهذه النصوص ميزانها الحق بمعنى أنها ثابتة لأنها بقدر إلهى وتقدير ربانى فمثلا النصوص القواطع فى الصلاة تحدد عددها وأوقاتها وكيفيتها وآدابها وغير ذلك، والزكاة كذلك، والعقوبات المختلفة مفصلة معلومة الوصف والحقيقة مقدرة العدد ونوعية العقوبة وهكذا كل شئ فى القرآن الكريم ولا يتأتى ذلك إلا بعالم خبير حكيم عدل فعال لما يريد قوى قادر محيط.

وهذا الجانب يقول عنه بعض الباحثين إنه الجانب الدستورى فى الشريعة وهو عبارة «عن نصوص قاطعة سواء أكانت فى بيان أصول

العقائد أو مايتصل بأسس تنظيم الحياة البشرية فى كلياتها وبعض جزئياتها المهمة»[١].

ويقول عنها العلامة محمد تقى الأمينى : «الدستور القرآنى هو تلك الأصول العامة والقواعد الكلية والخطوط التشريعية التى تبنى عليها الحياة الشخصية والاجتماعية، وتوضع وفقها أسس الدولة، وتقوم عليها إدارتها وترتيبها بغية التناسق بين الفطرة الكامنة والشخصية المتموجة وبين الأسس الثابتة والفروع المتغيرة»[٢].

وعلى هذا فالمادة الدستورية والنصوص القانونية متوفرة فى النصوص القرآنية القطعية الثبوت، ولابد أن توظف هذه الثوابت فى واقعنا العملى ففيها الغناء عن كثير من المطارحات الشعرية والأمثال الشعبية والتقاليد الأجنبية ففى القرآن الكثير والكثير من القواعد الكلية التى يغذى بها المجتمع المسلم عقل وقلب أفراده من خلال المناهج التعليمية والإعلامية من مثل قوله تعالى :

- ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٣].
- ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[٤].
- ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٥] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٦].
- ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾[٧] ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾[٨].

---

(١) د . محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٢٤.

(٢) الأسس الفكرية الايمانية للدستور القرآنى ٧.

(٣) سورة الأعراف: آية ٣١.

(٤) سورة البقرة: آية ١٩٥.

(٥) سورة المدثر: آية ٤.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٧) سورة الإسراء: آية

(٨) سورة القيامة: آية ١٤.

- ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾(١) ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٢).
- ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾(٣) ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾(٤).
- ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾(٥) ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾(٦).
- ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾(٧) ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾(٨).
- ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(٩) إلى غير ذلك من الحقائق الواسعة المعانى الواضحة الدلالة القوية التأثير المربية للملكات الصارفة للهوى والشهوات.

وقد جمعت النصوص القرآنية كل الأحكام التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته، يومه وغده ومستقبله القريب والبعيد.

- الأحكام القواطع.

تحمل النصوص القرآنية أحكاماً قواطع تجمع بين أسلوب التشريع وعموم الموضوعية.

---

(١) سورة الواقعة: آية ١٠.
(٢) سورة العنكبوت: آية ٦٩.
(٣) سورة البقرة: آية ١٧٩.
(٤) سورة النجم: آية ٥٨.
(٥) سورة العنكبوت: آية ٤٣.
(٦) سورة : آية
(٧) سورة طه: آية ١١١.
(٨) سورة الكهف: آية ٣٠.
(٩) سورة الإسراء: آية ٣٦.

يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(١)
ويقول تعالى : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾(٢).

وهذه الأحكام قد تكون تكليفية وهى عبارة «عن خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين المفيد فائدة شرعية»(٣).

وقد تكون تكوينية ويترتب عليها الإيجاد بلا سبب، كما تشمل(٤) حتمية وقوع النتائج تبعا لنوعية مقدماتها، وهناك السنن المطردة وهى «مجموعة القوانين التى سنها الله - عز وجل - لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»(٥).

أما الأحكام التكليفية فيقول عنها العلماء : آيات الأحكام خمسمائة آية. وقال بعضهم : مائة وخمسون، قيل : ولعل مرادهم المصرح به، فإن آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام.

قال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام : «معظم آى القرآن لا يخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة وأخلاق جميلة، ثم من الآيات ماصرح فيه بالأحكام، فمنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط، إما بلا ضم إلى آية أخرى كاستنباط صحة أنكحة الكفار من قوله :﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾(٦). وصحة صوم الجنب من قوله : «فالآن باشروهن» إلى قوله :﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

---

(١) سورة الرعد : آية ٤١.

(٢) سورة يونس : آية ٦٤.

(٣) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام، الحلبى ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م ٩٠/١.

(٤) الحتمية والاطراد فى السنن ماهى إلا قدر من قدر الله عز وجل قدرها وأراد لها أن تعمل على هذه الصورة لكى يستقر أمر الخلق ويستطيع الإنسان تسخير ما فى الكون، وهو سبحانه يخرقها إذا شاء لحكمة يعلمها كما فى المعجزات.

(٥) د . أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق كتاب الأمة ٢٦ ط أولى ١٩٩٠م ٥٢.

(٦) سورة المسد : آية ٥.

الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[١].
وإما به كاستنباط أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾[٢] ويستدل على الأحكام تارة بالصيغة وهو ظاهر وتارة بالإخبار مثل ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾[٣]، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾[٤]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾[٥]، وتارة بما رتب عليها فى العاجل أو الآجل من خير أو شر، أو نفع أو ضر، وقد نوع الشارع ذلك أنواعاً كثيرة ترغيبا لعباده وترهيبا وتقريبا إلى أفهامهم»[٦]. وهذه الأحكام تحقق التربية الإنسانية بوسائل عديدة تشمل تصنيف الأحكام بما يناسب الطاعة أو المعصية كما تشمل أسلوب العرض الذى يساعد على فعل الطاعة واجتناب الإثم، ويضاف إلى ذلك شمول هذه الأحكام. «فالقرآن يمس الدوائر التى تمسها التشريعات الوضعية، ويفوقها من حيث حسن التنظيم وسمو الهدف، وتنزهه عن القصور أو الجهل أو الهوى، ثم هو وراء ذلك يمس دوائر لم يمسها التشريع الوضعى، كدوائر العقيدة والأخلاق والشعائر التى تكاد تخلو منها التشريعات الوضعية»[٧].

وأما الأحكام التى تمثل السنن الإلهية الثابتة فتتصف هى الأخرى بالعموم والشمول والثبات والاطراد، وهى من جملة النظم الإسلامية التى يتفرد بها القرآن الكريم، فالعلاقة وثيقة بين القرآن كمصدر يثبتها وبين هذه الأحكام كسنن ربانية، وهى تتصل بالأحكام التكليفية اتصالا وثيقا يمثل الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج، فالتكاليف مقدمات والسنن نتائجها.

---

(١) سورة البقرة : آية ١٨٧.

(٢) سورة لقمان : آية ١٤.

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٧.

(٤) سورة المائدة : آية ٣.

(٥) سورة البقرة : ١٨٣.

(٦) السيوطى : الإتقان ٤ /٣٥.

(٧) المستشار الدكتور : على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ٩٦.

وإن من يدقق النظر فى أحكام الشرع المختلفة، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة، التى لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شئ مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دوما، فى الدنيا قبل الآخرة، وإن الإتيان بشئ قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة فى الدنيا قبل الآخرة، وفى هذا غاية العدل والحكمة والتدبير»[١].

والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم. يقول تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾[٤].

وقد ذكر العلامة ابن قيم الجوزية – رحمه الله – بهذا الصدد مايلى : «لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة، والمعانى المعتبرة فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها»[٥].

والمتأمل يرى أن القرآن يعلل الأحكام ويجعل الجزاء من جنس العمل، «لذلك كان الجزاء مماثلا للعمل من جنسه فى الخير والشر، فمن ستر مسلما ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن نفس

---

(١) د . أحمد محمد كنعان : أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله في الخلق، كتاب الأمة رقم ٢٦ ط أولى خاصة بمصر ١٩٩٠/م ٧٨.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٢٠.

(٣) سورة النحل : آية ٩٧.

(٤) سورة النساء : آية ١٢٣.

(٥) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه طه عبد الرءوف سعد، الكليات الأزهرية ١٩٦٨/م ١/١٩٦.

عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادما أقاله الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضار مسلما ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه[١] ... فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل، وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل»[٢].

وهذا من صميم علوم النظم الإسلامية وخصائصها المميزة لها عن غيرها، ولم يكن ذلك إلا لأن القرآن الكريم مصدرها الأول الذى أنزله الذى يعلم السر وأخفى.

- الاعتصام والتمسك بنظم القرآن.

الأوامر الإلهية فى القرآن الكريم تدور غليها أحكام كثيرة، ولكن العمل بالقرآن والتمسك به أمر واجب فكل أمر وتكليف يجب تنفيذه على صورة حكمه التى قدرت له من الحل والحرمة والاستحباب والكراهية وغير ذلك، وتلك هى الصورة المثلى للتمسك بالقرآن والاعتصام به.

يقول تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[٣] ويقول عز وجل : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[٤] عن قتادة قال : حبل الله المتين الذى أمر أن يعتصم به : هذا القرآن» وبذلك قال عبدالله، والسدى ومجاهد والضحاك[٥].

---

(١) هذه الحقائق التى استخلصها العلامة ابن قيم وردت بها نصوص قرآنية ونبوية صحيحة فلتراجع فى مصادرها فى كتب السنة النبوية.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٣.

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٥.

(٥) الطبرى : جامع البيان ٧ / ٧١.

وفى الحديث «كتاب الله هو حبل الله»[١] ويقول رسول الله - ﷺ - : «تركت فيكم مالن تضلوا بعدى إن اعتصمتم به، كتاب الله وعترتى أهل بيتى»[٢].

ويقتضى الاعتصام والاتباع والإيمان بالقرآن كما جاء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾[٣] التحاكم إليه وتطبيقه فى كل الميادين والمجالات الحياتية يقول تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[٤] ويقول عز وجل : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٥] ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[٦] ويقول تعالى :﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[٧].

وقد قدم القرآن بين يديه من الوسائل ما يساعد على تطبيق أحكامه والعمل به، وذلك من خلال أسمائه وصفاته التى سماه الله بها.

قال أبو المعالى : «اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما : كتابا وقرانا وكريما، وكلاما ونورا، وهدى ورحمة، وفرقانا، وشفاء، وموعظة وذكرا ومباركا وعليا وحكمة وحكيما ومهيمنا وحبلا، وصراطا مستقيما، وقيما، وقولا وفصلا ونبأ عظيما، وأحسن الحديث ومثانى ومتشابها وتنزيلا وروحا، ووحيا، وعربيا وبصائر وبيانا وعلما وحقا وهديا وعجبا وتذكرة والعروة الوثقى، وصدقا وعدلا وأمراً، ومناديا وبشرى ومجيداً وزبورا

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه، تحقيق محمود شاكر رقم ١٢٣. هامش جامع البيان ٧ / ٧٣.

(٢) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه، والخطيب فى المتفق والمفترق عن جابر، وورد فى مجمع الزوائد ٩ / ١٦٢ كتاب المناقب فضائل أهل البيت مثل هذا الحديث عن زيد بن ثابت وقال الهيثمى : إسناده جيد. السيوطى : جمع الجوامع رقم ١٨٧ /١٢٥١٥.

(٣) سورة النساء : آية ١٣٦.

(٤) سورة الشورى : آية ١٠.

(٥) سورة يوسف : آية ٤٠.

(٦) سورة النساء : آية ١٠٥.

(٧) سورة المائدة : آية ٤٨.

وعزيزاً، وبلاغا وقصصا وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤)﴾[١] كما رغب الإسلام المسلم فى تطبيق أحكام القرآن ببيان الآثار الطيبة المترتبة على ذلك، يقول تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦)﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾[٤].

ورغبه كذلك ببيان أن هذه الأحكام القرآنية إنما هى بغية العقلاء وسبيل أهل التذكر والتفكر الذين يجدون فى أحكام القرآن ونظمه معاني الحق والعدل والمساواة. يقول تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥] ويقول تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٦] ويقول تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٧] ويقول تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[٨].

ورهبه من التفريط فى أحكام القرآن بصور كثيرة منها، بيان العقاب والآثار السيئة المترتبة على عدم العمل بنظم القرآن وأحكامه، ومنها ضرب الأمثلة من الأمم السابقة وما أصابهم من جراء تركهم لحدود الله وأوامره،

---

(١) سورة عبس : آية ١٣، ١٤.

(٢) مسورة طه : ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة الجن : آية ١٦.

(٤) سورة الحديد : آية ٢٨.

(٥) سورة البقرة : آية ٢٣٠.

(٦) سورة البقرة : آية ٢١٩، ٢٢٠.

(٧) سورة النور : آية ٦١.

(٨) سورة البقرة : آية ٢٣٢.

ومنها كذلك التقييم الحقيقى لكل من يجادل فى الله بغير علم ويتخذ إلهه هواه.

ومن هنا ألقى الله بمسؤولية العمل بأحكام القرآن ونظمه على عاتق المجتمع، أفراداً وجماعات، هيئات ومؤسسات، حكاما ومحكومين، علماء ومفكرين، كل فى موقعه وتبعاً لدوره وتأثيره فى المجتمع وحياة الناس، يقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(١) ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢) ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٣) وهذه الأحكام تتجه إلى المقصرين فى أحكام القرآن وتشريعاته التى تحفظ أمن المجتمع وتحقق فيه العدل والمساواة.

وبعيدا عن الآراء والأقوال المتعددة فى بيان من نزلت فيه هذه الأحكام يبقى قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ على عمومه لأن «كلمة «من» فى معرض الشرط فيكون للعموم»(٤).

وقد جاءت تأويلات السلف لهذه الأحكام جامعة للظروف والملابسات التى تحيط بالأفراد فيما يتصل بتطبيق حكم الله أو تعطيله.

قال ابن عباس وغيره : «نزلت فى أهل الكتاب. زاد الحسن البصرى وهى علينا واجبة. وقال منصور بن إبراهيم : هذه الآيات فى بنى إسرائيل ورضى الله لهذه الأمة بها. وعن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال من السحت. قال : فقالا : وفى الحكم. قال : ذاك الكفر ثم تلا «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون».

وقال السدى : «يقول ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً أو جار وهو يعلم فهو من الكافرين. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس «من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقربه فهو ظالم فاسق.

(١، ٢، ٣) سورة المائدة : الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٧.

(٤) الرازى : مفاتيح الغيب ١٢ / ٥.

وعن الشعبى قال : «الكفر فى المسلمين والظلم فى اليهود والفسق فى النصارى.

وقال طاوس : «وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وعن عطاء قال : «كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق»[١].

وقال ابن عباس : «ليس بالكفر الذى تذهبون إليه»[٢].

وقال طاوس : «ليس بكفر ينقل عن الملة»[٣].

قال عكرمة : «إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل تعالى، ولكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية»[٤].

وهنا نقول:

إذا كانت النظم واضحة جلية في أحكام القرآن فلماذا نخرج عنه؟ ولماذا نرضى بغير حكم الله؟

إن شأن القرآن الكريم في المجتمع المسلم أن يكون هو مصدر النظم وأن يكون هو الميزان لكل الأعمال في كل المجالات.

وليس أمام المسلم إلا أن يختار أحد الموقفين :

الموقف الأول: ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) ﴾[٥].

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ /٦١.

(٢) رواه ابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركه من حديث سفيان بن عيينه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١.

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١.

(٤) الرازى : مفاتيح الغيب ١٢ / ٦.

(٥) سورة النور : آية ٤٧ ، ٤٨.

الموقف الثانى: ماجاء فى قول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾[١] ولنا فى السابقين أسوة فقد حكموا كتاب الله فى أنفسهم، وحكموه فيما حولهم فأقاموا فى المدينة «دولة القرآن» فما كان كتاب الله ليعيش حبيس الفكر والخيال نظرية أو فلسفة، وما كان ليعيش حبيس الشفاه، أو حبيس الجدران تلاوة وتعبدا، وما كان ليعيش حبيس الصدور عقيدة وإيمانا. لكن كتاب الله حياة رحبة طليقة، تسبح فيها القلوب عقيدة وإيمانا، وتحلق فيها العقول فكراً وتدبراً، وتعيش فيها النفوس منهجا ونظام حياة تحيا بها وفيها الأفراد والمجتمعات والدول»[٢].

---

(١) سورة النور : آية٥١.

(٢) المستشار الدكتور : على جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ٩٢

المصدر الثانى : السنة النبوية

تعريف السنة.

تطلق السنة ويراد بها «الطريقة والسيرة الحميدة كانت أو ذميمة، والطبيعة والخلق والوجه والصورة»(١) وهذا فى اللغة.

أما فى الشرع «تطلق على ما صدر عن الرسول من الأدلة الشرعية مما ليس بمتلو ولا هو معجز، ويدخل فى ذلك أقوال النبى - ﷺ - وأفعاله وتقاريره»(٢) فالسنة على ذلك تنقسم بحسب ماهيتها وحقيقتها إلى ثلاثة أقسام : سنة قولية، وسنة فعلية، وسنة تقريرية (٣).

وإذا كنا بصدد بيان مصدرية السنة النبوية للنظم الإسلامية، فإننا نعرض لذلك من خلال الحقائق التالية.

أولا - مقومات مصدرية السنة النبوية للنظم.

تحظى السنة النبوية بمقومات عديدة تجعل منها مصدراً من مصادر النظم الإسلامية يؤسس لها ويضع معالمها ويتمم بناءها، وقد تعددت هذه المقومات وأخذت صوراً عديدة :

- مكانة الرسول فى الدين الإسلامى.

يقول الإمام الشافعى : «وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه، بما افترض من طاعته، وحرم من معصيته، وأبان من فضيلته، بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به(٤).

---

(١) المعجم الوسيط ١ / ٤٥٦.

(٢) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ١٥٦.

(٣) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ٨٢.

(٤) الإمام الشافعى : الرسالة ١ / ٧٣.

فمكانة رسول الله - ﷺ - فى الدين الإسلامى حقيقة ثابتة واضحة جلية، أهم معالمها :

الإيمان به - ﷺ - والتصديق برسالته.

إن آيات القرآن الكريم صريحة فى وجوب الإيمان بالرسول - ﷺ - وفى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾[1] وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾[2].

والآيات القرآنية فى وجوب الإيمان برسول الله كثيره، وهى تؤكد أن «كمال ابتداء الإيمان الذى ماسواه تبع له : الإيمان بالله ثم برسوله، فلو آمن عبد به - بالله - ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً، حتى يؤمن برسوله معه[3]. فالعقيدة لا تتجزأ فالأصول واحدة ولذلك قرن الله الإيمان به بالإيمان برسوله محمد - ﷺ - كما قرن الإيمان به - ﷺ - بالإيمان بالقرآن الكريم.

• طاعته - ﷺ - وحبه واتباعه.

طاعة رسول الله - ﷺ - تنبع من حقيقة الإيمان به، والطاعة تقتضى محبته يقول تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[4] ويقول تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[5].

---

(١) سورة التغابن : آية ٨.

(٢) سورة النساء : آية ١٣٦.

(٣) الشافعى : الرسالة ١ / ٧٥.

(٤) سورة آل عمران : آية ٣١.

(٥) سورة النساء : آية ٨٠.

فالحب يقتضى الطاعة والطاعة تقتضى الاتباع، ويتصل بذلك تصديقه والتسليم له والرضا بحكمه، وتوقيره واستئذانه وعدم التقدم عليه والتأدب فى حضرته فلا يرتفع صوت فوق صوته، وحفظه فى خصائصه التى اختصه الله بها. يقول تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(١) ويقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢).

وهذه آداب أدب الله - تعالى - بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول - ﷺ - من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام(٣).

وقد جاءت طاعة الرسول مقرونة بطاعة الله وحبه بحبه، وهذا للتأكيد والثبات وعدم المخالفة أو المجادلة بدافع الجهل والنفس والهوى، يقول رسول الله - ﷺ - «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٤).

وهذا الحب جامع لكل مشاعر الحب المختلفة التى تتصل بالنفس والمال والولد وغير ذلك. لأنه يمثل روح الإقتناع والطاعة والاتباع، ويشرح ذلك قوله لعمر بن الخطاب «والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»(٥).

- **عصمته فى الوحى والتبليغ.**

إختار الله رسله وصنعهم على عينه فكانوا أكمل الخلقة الإنسانية خلقا وخلقا، ورسول الله - ﷺ - فى الذروة خلقا وخلقا، وقد أيده الله

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٥.

(٢) سورة الحجرات :آية ١.

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ /٢٠٥.

(٤) البخارى عن أنس كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان. فتح البارى ١/١٤٤.

(٥) البخارى كتاب الإيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبى ﷺ فتحح البارى ٢٥ / ١٤.

بالعصمة فلا يصله مكروه ولا يصدر عنه إلا الحق، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى كثير من الآيات، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾(١) ويقول تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾(٥).

وهذه العصمة تقوم على أسس خلقية شهد الله بها لرسوله - ﷺ - فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾(٦) كما شهد له بها أعداؤه قبل أتباعه.

ولا شك أن هذا الحفظ وتلك العصمة يعطيان للسنة النبوية كمصدر من مصادر النظم الاسلامية توثيقا إلهيا وحفظا ربانيا، ويحققان لدى المدعو الثقة فى نصوص السنة النبوية، وسلامتها رغم أنف المستشرقين ومن يدوور فى فلكهم أو يذهب مذهبهم، «فما من طعن وجه إلى الرسول من أحدهم إلا وجاء الرد عليه مفحما قاطعا من آخر، حتى إنه لم يبق من هذه الطعون بقية إلا وقد اقتلعت من جذورها، ولتذهب هذه الطعون علامة على أكذوبة البحث عند أصحابها، وسبة فى تاريخ الاستشراق الموتور»(٧).

---

(١) سورة المائدة : آية ٦٧.

(٢) سورة النجم : آية ٣، ٤.

(٣) سورة الأعلى : آية ٦.

(٤) سورة ن : آية ٤.

(٥) سورة يس : آية ٦٩.

(٦) سورة القلم : آية ٤.

(٧) د . يحى هاشم : فلسفة الانذار، بحث مقدم لمؤتمر السيرة النبوية [illegible] البحوث ط أولى ١٩٨٤ ص ٧٢.

- البيان النبوى.

أنعم الله على رسوله محمد - ﷺ - ببيان تقاصر عنه أرباب الفصاحة والبلاغة من العرب وغيرهم، إذ يجمع هذا البيان «الخالص من سر اللغة ومن البيان والحكمة بعضها إلى بعض. أما اللغة فهى لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمتصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبا وأبلغهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة، وتبصير الوحى وتأديب الله، وأمر فى الإنسان من فوق الإنسانية»[١].

وقد سئل رسول الله - ﷺ - عن سر هذا العطاء ومصدر هذا البيان فقال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[٢]. واعترافا بفضل الله عليه كان يقول : «أنا أعربكم أنا من قريش ولسانى لسان بنى سعد بن بكر»[٣] وهذه عناية إلهية لرسول الله الذى خاطبه بقوله : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٤] وقد ظهرت آثار هذا التعليم الإلهى لرسوله محمد - ﷺ - فيما صدر عنه من أقوال جاءت محققة كل أغراض الكلام متفردة فى «اجتماع الكلام وقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ولا تكلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه»[٥].

وكان من نتيجة ذلك حفظ أقواله وفهمها وتدوينها، لأنها نصوص واضحة دقيقة وضعت بقدر، وهذا يؤكد ضرورتها وأهميتها عند صياغة النظم والقوانين التى تنظم حياة المسلم.

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٥٣.

(٢) ابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود، المتقى الهندى : كنز العمال. كتاب الفضائل. فضائل نبينا محمد ﷺ - تحقيق محمود عمر الدمياطى دار الكتب العلمية ط أولى ١٩٩٨م ١١/١٨٣.

(٣) ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدى مرسلا المصدر السابق ١١/١٨٢.

(٤) سورة النساء : آية ١١٣.

(٥) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغه النبوية ٢٣٣.

- الإعجاز العلمى للسنة النبوية.

جوانب الإعجاز للسنة النبوية كثير، والذى يقرأ فى كتب الخصائص والشمائل ودلائل النبوية يقف على هذه الحقيقة.

ومن بين هذه الجوانب الإعجاز العلمى للسنة النبوية، وهو إعجاز شامل لكثير من ميادين الحياة، ومن خلاله تظهر مقومات السنة النبوية كمصدر من مصادر النظم الإسلامية، فللسنة إعجازها الذى يظهر متتابعا فى علم الصحة وعلم الطب وخصوصا علم الأجنة وعلوم الوراثة وعلوم التغذية ويجمع كل ذلك الطب النبوى. وللسنة النبوية إعجازها النفسى كذلك، فقد وضعت السنة النبوية أسسا وقواعد لوقاية الإنسان من الأمراض النفسية والعصبية.

وهكذا تقف السنة النبوية إلى جانب القرآن الكريم فى بناء الهيكل العام للنظم الإسلامية فكلاهما مصدره الوحى الإلهى.

وهذا الإعجاز داخل فى صميم النظم الإسلامية بمفهومها الجامع الشامل فى الإسلام، ولأهمية هذا الجانب أنشئت هيئات كثيرة فى العالم الإسلامى ترعى هذا الجانب وتوليه اهتماما كبيراً، منها على سبيل المثال «هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة» التابعة لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، وتصدر مجلة فصلية بعنوان : الإعجاز العلمى.

وهذا الإعجاز المستمر والمتواصل للسنة النبوية يؤكد على أن النظم الإلهية هى الأصلح والأبقى فمصادرها تقوم على العطاء المستمر والمتجدد والساير لكل عصر.

ثانيا: علاقة السنة النبوية بالنظم.

ترتبط النظم الإسلامية بالسنة النبوية إرتباطاً جوهريا وثيقاً، يحقق

للنظم موسوعيتها الموضوعية ومذهبيتها الإسلامية، وتطبيقاتها العملية، وصورتها النورانية الإيمانية.

يقول الإمام الشافعي : «وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان :

أحدهما: نص كتاب فاتبعه رسول الله كما أنزل الله.

والآخر: جملة بين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها، عاما أو خاصا، وكيف أراد أن يأتى به العباد. وكلاهما اتبع فيه كتاب الله»[١].

١) مكانة السنة التشريعية.

عند بياننا لعلاقة السنة النبوية بالنظم، لابد لنا أن نعرض لمكانتها التشريعية حتى نكون على بينة فى التعامل مع مصادر النظم، وحتى نكون على وعى بثوابت الدين الإسلامى.

السنة النبوية وحى من الله، يقول تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[٢].

قال بعض العلماء : «وفى الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة فى كل الأمور»[٣] وهذا الوحى يقوم على أسس الحكمة النظرية والعملية ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾[٤] ويقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٥].

---

(١) الرسالة ١ / ٩٠.

(٢) سورة الحشر : آية ٧.

(٣) د . محمد السيد طنطاوى : التفسير الوسيط للقرآن الكريم ١٤ / ٣٨٠.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٣١.

(٥) سورة النساء : آية ١١٣.

فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى - هذا قول الشافعى - من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ... فلم يجز - والله أعلم - أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله»[١].

وفى بيان واضح يقول رسول الله - ﷺ - : «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه. وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه»[٢].

والحديث يؤكد أن رسول الله أوتى الكتاب وأوتى مثل الكتاب معه وهو السنة النبوية. ومن هنا كانت معصية رسول الله ومخالفته معصية لله.

يقول الإمام الشافعى : «وكل ماسن - أى رسول الله - فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل فى اتباعه طاعته، وفى العنود عن اتباعها معصيته التى لم يعذر بها خلقا، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجا»[٣] لقول رسول الله - ﷺ : «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه»[٤] وقوله : «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٥] يقول تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٦].

---

(١) الشافعى : الرسالة ١ / ٧٨.

(٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده، وأبو داود فى سننه كتاب السنة باب فى لزوم السنة ٤ /١٩٩ والطبرانى فى الكبير. السيوطى جمع الجوامع رقم ٤٢٥ / ٩٠٩.

(٣) الرسالة ١ / ٨٨.

(٤) أبو داود . كتاب السنة باب فى الزوم السنة رقم ٤٦٠٥ حـ ص١٩٩.

(٥) البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ . فتح البارى ١٢/٢٨.

(٦) سورة النور : آية ٦٣.

ومـا ذلك إلا لمكانة رسـول الله فى الدين ومكانة سنتـه فى التـشـريع والبيان الذى يكسب نظم الإسلام تمامها وكمالها وتطبيقها واقعا عمليا.

٢) التعليم والتأكيد.

للسنة النبـوية مع القرآن الكريم مـصـدر النظم الأول عـلاقـة هى فى حقيقتها علاقة السنة النبوية بالنظم الإسلامية، وهى على ثلاثة أوجه :

«**أحدها:** أن تكون مـوافقة له من كل وجـه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها»[١].

وفى الرسـالة للشـافعى «فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثه وجوه فاجتمعوا منها على وجهين. والوجـهـان يجتمعـان ويتفـرعان : أحـدهمـا : مـا أنزل الله فيـه نص كتاب، فـبين رسـول الله مثل مانص الكتاب»[٢].

وهنا تـأتى عـلاقـة السنة النبـوية بالنظم الإسـلامـيـة، فـالرسـول مـعلم والتعليم يحتـاج إلى المران الممارسة، ومن ثـم كان رسول الله يعلم أصـحـابه نظم وأحكام القرآن فيتلوا عليهم الآيات والأحكام بنصها القرآنى ويؤكد ذلك بقوله الذى يؤكد حكم القرآن الكريم، وهذا حتى ينفى ويطهر العقول والقلوب من رواسب أهل الكتاب الذين حرفوا كتبهم وبدلوها، وكـان من ذلك النص الكتـابى الذى يحرم الزنـا ولكن أحـوال الأنبيـاء والرسل وأفـعـالهم تناقض ذلك[٣]، فكان البيـان النبوى تأكيداً لحقائق القرآن وتعليمـا متعدد الصور والوسـائل يقول تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

---

(١) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ٢ / ٣٠٧.

(٢) الرسالة ١ / ٩١.

(٣) حيث نسبوا إلى نوح شرب الخمر وإلى لوط الزنا بابنتيه وإلى داود الزنا والقتل وإلى إسـحق ويعقوب المكر والخديعة، مع وجود النصوص التى تحرم ذلك فى كتبهم المحرفة. ونحن نجل الأنبياء والرسل عن ذلك.

آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾(١).

فالرسول يتلو الآيات ويعلم الكتاب، «ومثال ذلك ماجاءت به السنن مؤكدة أحكام القرآن كوجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الشرك وشهادة الزور وقتل النفس المعصومة وعقوق الوالدين»(٢) وغير ذلك.

٣) البيان والتوضيح.

يشير العلماء إلى هذه العلاقة بقولهم عن السنة النبوية : «ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين رسول الله عن الله معنى ما أراد»(٣) وبذلك «تكون بيانا لما أريد بالقرآن وتفسيراً له»(٤).

وقد أكد القرآن الكريم هذا الدور النبوى وتلك العلاقة المتصلة بالنظم الإسلامية اتصالاً وثيقا، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥).

وهذا البيان النبوى هو روح الدين وميزان الحق فى هيئة التطبيق، وبه بزغت شمس العلوم النبوية فيما يتصل بالوسائل ومراعاة حال المدعو، وتحقيق الحقائق الإيمانية فى صفحة الروح الإنسانية والجمع بين السنن الإلهية المادية والمعنوية.

وهذا البيان من النبى - ﷺ - أقسام :

أحدها: بيان نفس الوحى بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيا.

---

(١) سورة الجمعة : آية ٢.

(٢) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٧٨.

(٣) الشافعى : الرسالة ١ / ٩٢.

(٤) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ٢ / ٣٠٧.

(٥) سورة النحل : آية ٤٤.

الثانى: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك كما بين أن الظلم المذكور فى قوله : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[1] إلى غير ذلك مما ذكر فى الصحاح ومنه فى البخارى كتاب التفسير.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ماسئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن، فنزل القرآن ببيانها كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ماسئل عنه بالوحى وإن لم يكن قرآنا، كما سئل عن رجل أحرم فى جبة بعد ما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحى بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشئ بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسى به.

الثامن: بيانه جواز الشئ فإقراره لهم على فعله وهو يشاهده أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشئ عفوا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شئ أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف فيحيل الرب – سبحانه وتعالى – على رسوله بيانها كقوله تعالى : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا

---

(١) سورة الأنعام : آية ٨٢.

وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾[١] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل»[٢].

ولابد أن تتضافر الجهود المختلفة فى التخصصات المتعددة لدراسة البيان النبوى، فهذا يؤدى إلى استخراج قوانين تتصل بعلم النفس الاجتماعى والاقتصادى والعسكرى والقضائى وعلم النفس الجنائى، وعلم نفس النمو والمعوقين والمذنبين وغير ذلك.

وهذا البيان «بين رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة وأوضح كيف فرضها عاما أو خاصا وكيف أراد أن يأتى به العباد[٣].

وهذا الوجه من وجوه العلاقة بين السنة والقرآن يشمل تفصيل المجمل، وتخصيص العام وتقييد المطلق[٤].

أما تفصيل المجمل فمثاله قوله - ﷺ - : «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[٥] وقوله : «لتأخذوا عنى مناسكم»[٦].

فالسنة النبوية تفصل القول فيما يتصل بالعبادات والمعاملات وغير ذلك مما ورد مجملاً فى القرآن الكريم.

وأما تخصيص العام فمنه قوله : «القاتل لا يرث»[٧] وهذا تخصيص لعموم الوصية فى قوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ

---

(١) سورة النساء : آية ٢٤.

(٢) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ٢ / ٣١٥.

(٣) الشافعى : الرسالة ١ / ٩١.

(٤) الآمدى : الاحكام فى أصول الأحكام بتصرف ١ / ١٥٩، وانظر الشاطبى : الموافقات ١٢/٤.

(٥) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم رقم ٦٠٠٨ فتح البارى ٢٢١/٢٢.

(٦) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الحج باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله - ﷺ - لتأخذوا مناسككم. شرح النووى ٩ /٤٤.

(٧) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الديات باب القاتل لا يرث رقم ٢٦٤٥ جـ٢ / ٨٨٣ وفى كتاب الفرائض باب ميراث القاتل رقم ٢٧٣٥ جـ٢ /٩١٣ ..

الأُنثَيَيْنِ ﴾(١). وتقييد المطلق مثاله قوله - ﷺ - : «الثلث والثلث كثير»(٢) وهذا تقييد لمطلق الوصية فى قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾(٣).

وهكذا فبيان السنة النبوية هو مشكاة المصابيح وهو أدلة اليقين ومعالم الطريق للنظم الإسلامية.

٤) العمل بمقاصد القرآن.

قواعد القرآن وأصوله كلية مجملة، أكدتها السنة النبوية وعلمتها للمسلمين، وبينتها البيان الشافى والى جانب ذلك جاءت السنة بأحكام مستخلصة من تلك القواعد الكلية والأصول المجملة، ومن هنا كانت السنة النبوية «موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه»(٤).

والعلاقة واضحة فى ذلك بين القرآن والسنة والنظم الإسلامية، «فلا تجد فى السنة أمراً إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية»(٥)، وقام رسول الله - ﷺ - باستخراجه من القرآن فهو أعلم الناس بكتاب الله.

قال الشافعى : «وماسن رسول الله فيما ليس فيه حكم فبحكم الله سنه(٦) وكذلك أخبرنا الله فى قوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ ﴾(٧).

---

(١) سورة النساء : آية ١١.
(٢) البخارى فى صحيحه كتاب الوصايا باب الوصية بالثلث رقم ٢٧٤٤ فتح البارى ٢٠٧/١١.
(٣) سورة النساء : آية ١١.
(٤) ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين ٢ / ٣٠٧.
(٥) الشاطبى : الموافقات ٤ / ١٢.
(٦) الشافعى : الرسالة ١ / ٨٨.
(٧) سورة الشورى : آية ٥٢، ٥٣.

ومن أمثلة ذلك تحريم أكل لحوم الحمر الأهلية ولحم سباع البهائم والديات.

ويبين الشيخ محمد أبو زهرة أن أحكام السنة فى هذا راجعة إلى القرآن الكريم فيقول : «وفى الحق أن هذه الأمثلة ترجع إلى أصل من الكتاب، فالديات التى بينها النبى – ﷺ – بيان لأصل جاء فى القرآن، وهو قوله تعالى : ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[٢] وتحريم الحمر الأهلية وسباع البهائم الأهلية له أصل فى القرآن، وهو قوله تعالى : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[٣] .. الخ وماحرم شئ إلا لما فيه من خبائث . وعلى هذا لانكاد نجد مثالا لحكم أتت به السنة إلا وجدنا له أصلا قرآنيا قريبا كان أو بعيدا» فالعلاقة بين القرآن وبين السنة النبوية واضحة المقاصد الدعوية فكلاهما وحى إلهى وكلاهما من مصادر النظم الإسلامية القرآن يضع القواعد والأحكام والسنة النبوية ترسم خطوات التطبيق وفكر التطبيق وروح التطبيق والممارسة من خلال المقومات التى تتمتع بها السنة النبوية والعلاقة التى بينها وبين النظم.

وهذا النوع من العلاقة يفتح أمام العلماء الاستنباط من القرآن ويبين كيفية اشتمال القرآن الكريم على جميع الأحكام والكليات التى تحكم الحل والحرمة ويبقى فقه ذلك منوطا بالمتخصصين، ومن هنا كانت السنة النبوية هى فقه القرآن وهى التطبيق العملى والنموذج الصحيح الذى يقاس عليه كل تطبيق بعد ذلك يقول تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[٤].

---

(١) سورة النساء : آية ٩٢.

(٢) سورة البقرة : آية ١٧٨.

(٣) سورة الأعراف : أيقت ١٥٧.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٢١.

المصدر الثالث : الإجماع

أولا : مفهوم الإجماع.

يدور مفهوم الإجماع فى اللغة حول معاني العزم والتصميم والإحكام والاتفاق[١]، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾[٣]. يقال جمع أمره عزم عليه، وأجمع القوم اتفقوا، والأمر أحكمه، والشئ أعده[٤].

ومن هنا عرفه علماء الأصول بقولهم : «الإجماع عبارة عن اتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد فى عصر من الأعصار على حكم واقعة من الوقائع»[٥].

وأهل الحل والعقد هم المجتهدون المسلمون، الذين يملكون من الوسائل العلمية والإيمانية مايمكنهم من معالجة المستجدات التى تطرأ على المجتمع الإسلامى انطلاقا من قواعد الإسلام العامة وكلياته الجامعة تحقيقا لوحدة الأمة الإسلامية. يقول الشيخ محمد أبو زهرة : «الإجماع هو اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية فى عصر من العصور بعد النبى - ﷺ - على حكم شرعى فى أمر من الأمور العملية»[٦].

ثانيا : مقومات الإجماع كمصدر للنظم.

يقوم الإجماع كمصدر من مصادر النظم الإسلامية على مقومات تكسبه حجيته وتؤكد مشروعيته، وهذه المقومات على النحو التالى :

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب ١/٦٨١.

(٢) سورة يونس : آية ٧١.

(٣) سورة طه : آية ٦٤.

(٤) المعجم الوسيط ١ / ١٣٥.

(٥) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ١٨٠.

(٦) أصول الفقه ١٥٦.

١) النصوص القرآنية.

يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] ويقول تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[3] ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[4].

وهذه النصوص القرآنية وغيرها تعطى تصوراً كاملا لحقيقة الإجماع، وتبين أنه يقوم على طاعة الرسول فى الالتزام بهدى الكتاب والسنة، والتمسك بسبيل المؤمنين فى معرفة الأحكام التى تعالج أمور المجتمع المسلم من القضايا التى تطرأ على واقع الحياة ويحتاج إليها المجتمع.

وسبيل المؤمنين هو سبيل الأمة الوسط العدول التى تشهد على أعمال وأفكار الأمم الأخرى، من خلال الميزان الذى أنزله الله إليهم، ممثلاً فى القرآن الكريم والسنة النبوية، والقواعد الكلية والأحكام الجامعة التى يجمع عليها أهل الإيمان الذين ثبت لهم اتباع الرسول الأعظم - ﷺ - ولذلك فإن الله تعالى «توعد على متابعة غير سبيل المؤمنين، ولو لم يكن ذلك محرما، لما توعد عليه، ولما حسن الجمع بينه وبين المحرم من مشاقة الرسول - عليه السلام - فى التوعد»[5] وقد ثبت «أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبا»[6].

---

(١) سورة النساء : آية ١١٥.

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران : ١٠٣.

(٤) سورة النساء : آية ٥٩.

(٥) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ١٨٣.

(٦) الرازى : مفاتيح الغيب ١١ / ٤٣.

والمتأمل يرى : أن السبيل المطلوب اتباعها مقيد بالإيمان المعروف قواعده وخصائصه من القرآن والسنة النبوية، ولذلك كان الثناء على أمة الإسلام مرتبطا بهذه الصفة، وما يلزمها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن هنا قاله «عدلهم وجعلهم حجة على الناس فى قبول أقوالهم كما جعل الرسول حجة علينا فى قبول قوله علينا. ولا معنى لكون الإجماع حجة سوى كون أقوالهم حجة على غيرهم»[١].

ولما كان الإجماع فى استخلاص الأدلة التى تبنى عليها الأحكام اللازمة لمعالجة الأحداث والوقائع، يخقق مقاصد الإسلام ومصالح الأمة، كان الأمر الإلهى بالاعتصام بحبل الله والبعد عن التفرق أمراً ضروريا، وذلك «أنه تعالى نهى عن التفرق، ومخالفة الإجماع تفرق، فكان منهيا عنه. ولا معنى لكون الإجماع حجة سوى النهى عن مخالفته»[٢].

٢) السنة النبوية.

جاءت السنة النبوية مؤكدة ومبينة لما جاء به القرآن الكريم من الآيات الدالة على حجية الإجماع، وقد تعددت هذه النصوص، ونحن نذكر منها قول النبى - ﷺ - : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»[٣] وقوله - ﷺ - لمن سأله عن أمر يجنبه ويلات الفتن : «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»[٤] وقوله - ﷺ - : «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد. من أراد بحبوحة

---

(١) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١/١٩٢.

(٢) المصدر السابق ١ / ١٩٧.

(٣) صحيح مسلم. كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. شرح النووى ١٢/ ٢٣٨.

(٤) البخارى . كتاب الفتن . باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة. فتح البارى ٢٧ / ٤٢ مسلم . كتاب الإمارة . باب . وجوب ملازمة جماعة المسلمين . شرح النووى ١٢ / ٢٣٧.

الجنة فيلزم الجماعة»[1] وقوله - ﷺ - : «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة. فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم»[2].

وقوله - ﷺ - لعلى بن أبى طالب - رضي الله عنه - عندما سأله عن الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : «اجمعوا له العالمين - أو قال : العابدين - من المؤمنين فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد»[3].

والمتأمل فى هذه الأحاديث النبوية، يرى أنها جاءت «بروايات مختلفة الألفاظ متفقة المعنى فى الدلالة على عصمة هذه الأمة عن الخطأ والضلالة»[4] ولا يخفى على أحد وضوح الدلالة فى الأحاديث المذكورة على حجية الإجماع ووجوب العمل بالأحكام الصادرة عنه»[5].

٣) التطبيق العملى للصحابة ومن بعدهم.

ظهرت أهمية الإجماع كمصدر للنظم الإسلامية بعد انتقال رسول الله - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى، حيث انقطع الوحى بشقيه قرآنا وسنة، وبذلك أصبح الصحابة - رضوان الله عليهم - أمام وقائع جديدة تحتاج إلى حكم فيها، وكان الصحابة أعلم الناس بمقاصد القرآن وأعظمهم إدراكا لعلومه فاستلهموا روح القرآن والسنة واستخرجوا منهما الأحكام التى تعالج

---

(١) الترمذى . كتاب الفتن . باب ماجاء فى لزوم الجماعة رقم ٢١٦٥. الجامع الصحيح، تحقيق أحمد شاكر، كمال يوسف الحوت. المكتبة الثقافية بيروت ٤ / ٤٠٤.

(٢) سنن ابن ماجه. كتاب الفتن. باب السواد الأعظم رقم ٣٩٥٠ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى. دار الريان للتراث ٢ / ١٣٠٣.

(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط.. رجاله موثقون من أهل الصحيح. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. دار الكتاب العربى بيروت ط ثالثة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ١/ ١٧٨.

(٤) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ١٩٩.

(٥) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٩١.

القضايا المطروحة، وتفى بحاجات الأمة، وتحقق مصالحها، وقد انطلقوا فى ذلك من القواعد الكلية والأحكام العامة، التى جاءت صالحة لكل زمان ومكان مع إدراكهم للنصوص التى تؤسس لمصادر النظم والتى كان منها الإجماع، ومن ثم كانوا يعالجون القضايا بعرضها على القرآن أولاً، ثم على السنة النبوية ثانيا، ثم يجتهدون فيما لم يرد فيه نص ثالثا، وكان اجتهادهم يقوم على طلب الدليل والحكم، فإذا ماانتهوا إلى الدليل عرضه بعضهم على بعض، وبعد دراسته وفقهه ومعرفة قواعده التى انطلق منها، يأتى دور الإجماع منهم على تنفيذ هذا الحكم فى الباب الذى يخصه، والواقع الذى يحتاجه تحقيقاً لمصلحة المسلمين وغيرهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

– فقد انعقد إجماع الصحابة على قتال مانعى الزكاة[١]، وانعقد إجماعهم على جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق[٢] – رضي الله عنه – «كما وقع فى عصر الصحابة الإجماع على أن الجدة تأخذ السدس تنفرد به الواحدة وتشترك فيه الأكثر من واحدة، وكذلك أجمعوا على أنه لا يجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ...»[٣].

٤) منطق العقل.

الإجماع كمصدر للنظم الإسلامية قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة، والأحكام التى تنشأ عنه راجعة إلى الكتاب والسنة، وله أهله الذين يقومون به ويحققونه، وهو يحقق مقاصد الإسلام من تحقيق العدل والمساواة ورعاية المصلحة ودفع المفسدة، هذا يجعل منطق العقل السوى أكثر قبولاً لحقيقة الإجماع، فهو السبيل إلى وحدة الأمة فكريا وعمليا فى كل القضايا الداخلية والخارجية، وهو الذى يخرجها من هوة الفرقة والخلاف، وهذا ما

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الزكاة. رقم ١٣٩٩ / ١٤٠٠ فتح البارى ٧ / ٩.

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن رقم ٤٩٨٦ فتح البارى ١٩ / ١٢.

(٣) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ١٥٩.

تحتاجه الأمة الإسلامية فى الوقت الحاضر، وكما يقول أهل الأصول : مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهذه المواضع الإجماعيةن فى فقهها هى التى تجسم الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة وتحفظها من عوامل التشتت والتفرق»[١] وعلى ذلك فالإجماع بمقوماته الشرعية وأصوله الفقهية وضوابطه الواقعية ومقاصده الإصلاحية يفرض نفسه على العقل الرشيد والفكر السديد.

٥) حجية الإجماع.

إذا تضافرت الأدلة وتعددت رواياتها فإنها تفيد الحجية، وقد جاءت أدلة الإجماع واضحة فى الكتاب والسنة وعمل الصحابة والفقهاء. وهذه الأدلة المتفرقة عندما تجتمع فإنها تعطى الدلالة القطعية على حجية الإجماع. يقول الإمام الشاطبى : «وإنما الأدلة المعتبرة هنا المستقرأة من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع، فإن للاجتماع من القوة ماليس للافتراق، ولأجله أفاد التواتر القطع. وهذا نوع منه. فإذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم فهو الدليل المطلوب ... ومن هنا اعتمد الناس فى الدلالة على وجوب مثل هذا على دلالة الإجماع لأنه قطعى وقاطع لهذه الشواغب. وإذا تأملت أدلة كون الإجماع حجة أو خبر الواحد أو القياس حجة فهو راجع إلى هذا المساق. لأن أدلتها مأخوذه من مواضع تكاد تفوت الحصر، وهى مع ذلك مختلفة المساق لا ترجع إلى باب واحد، إلا أنها تنتظم المعنى الواحد الذى هو المقصود بالاستدلال عليه. وإذا تكاثرت على الناظر الأدلة عضد بعضها بعضا فصارت بمجموعها مفيدة للقطع»[٢] ولذلك «اتفق أكثر المسلمين على أن الإجماع حجة شرعية

---

(١) د. القرضاوى : الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية، دار القلم الكويت ط ثانيه ١٩٨٩م ٣٦.

(٢) الشاطبى : الموافقات ١ / ٣٦ وما بعدها.

يجب العمل به على كل مسلم خلافا للشيعة والخوارج والنظام من المعتزلة»[١].

ثالثا: التنظيم والمناقشة الموضوعية لقضايا الإجماع.

تتصل بالإجماع قضايا عديدة تعتبر من جملة المقومات الضرورية لتحقيق الإجماع، وكان على رأس ذلك تحديد مفهومه وإثبات معناه بما يوضح صورته فى الأذهان ويحقق له القبول فى العقول والسكينة فى القلوب، وكذلك إثبات الركائز الكتابية الشرعية التى يقوم عليها الإجماع، فالأصل عند القائلين به «أنه لا ينعقد الإجماع إلا عن مستند»[٢] وتبعا لذلك أصبح الإجماع حجة شرعية يستدل بها على الأحكام الشرعية»[٣] وقد جاءت أبحاث العلماء حول الإجماع علمية موضوعية تتسم بالتنظيم فيما اتفقوا عليه، وبالمناقشة والمناظرة فى الجوانب الأخرى حتى أصبحت الصورة واضحة جلية تتيح للأجيال من بعدهم الاستفادة مما قدموه وتفسح لهم المجال لكى يضيفوا إليها ما تدعو إليه ظروف المكان والزمان ولم يكن هذا الاختلاف هداما وإنما سمحت به مرونة النصوص الشرعية وقوامة وهيمنة المقاصد الإسلامية.

- مراتب الإجماع.

القائلون بالإجماع من العلماء نظموه وقسموه إلى :

• الإجماع الصريح.

ويتحقق هذا النوع من الإجماع باتفاق جميع المجتهدين فى الأمة فى أى عصر بعد وفاة النبى - ﷺ - على حكم واقعة من الوقائع التى تهم الأمة الإسلامية.

---

(١) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ١٨٣.

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٣٩.

(٣) نفس المصدر ١ / ٢٠٤.

وهذا النوع من الإجماع حجة قطعية باتفاق فقهاء الجمهور الذين قرروا أن الإجماع حجة شرعية [١].

• الإجماع السكوتي.

وهو الذى يقوم به بعض المجتهدين أو أحدهم فى الحكم على واقعة بفتوى أو قضاء أعلن عنه وعرف بين الناس فيسكت باقى المجتهدين عنه بعد العلم به دون عذر يمنعهم من الموافقة أو المخالفة.

وهذا الإجماع السكوتى يرى بعض العلماء أنه حجة وإجماع، ويرى البعض الآخر أنه حجة لا إجماع، وهناك قول ثالث يرى أنه ليس بحجة ولا إجماع[٢].

ونحن نقول : إذا صحت القواعد وانطبقت الشروط واكتملت الأركان وتحققت مقاصد الإسلام فالإجماع حجة سواء كان صريحا أم سكوتيا وذلك لأمرين اثنين :

الأول: لأن احتمال سكوت بعض المجتهدين مع مخالفتهم وعدم موافقتهم شئ مستبعد من سلفنا الصالح الذين كانوا يجهرون بالحق ولا يخافون فيه لومة لائم، وهذا يدل على أن السكوت قرينة على الموافقة.

الثانى: لأن إظهار الموافقة من جميع مجتهدى الأمة إن تيسر تحقيقه فى العصر الأول من صدر الإسلام. فمن المنتظر تحقيقه فيما يلى ذلك من عصور، الأمر الذى يدل على أن سكوت عدد من المجتهدين عن حكم أفتى به مجتهدون آخرون بعد علم الساكتين به ودون وجود عذر يمنعهم من إبداء رأيهم، حجة وإجماع واجب الإتباع»[٣].

---

(١) انظر . محمد أبو زهرة : أصول الفقه ١٦٢.

(٢) انظر . الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ٢٢٨.

(٣) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٩٥ وما بعدها.

- من يتحقق بهم الإجماع.

يتسع مفهوم الإيمان فى الإسلام ليشمل ركائز معرفية وأخرى خلقية عملية، وفى دائرة الإيمان لابد أن يقيم من يتحقق بهم الإجماع، وهذا ما تقرره الحقيقة القرآنية فى قوله تعالى: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] والسنة النبوية فى قول رسول الله - ﷺ - : «إجمعوا له العالمين أو قال العابدين من المؤمنين»[2] ومن هنا كان أهل الإجماع هم أهل التواصى بالحق والصبر ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[3] وأهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[4] وهم ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) ﴾[5] ومن خلال هذه الشروط وتلك الصفات والمقومات يسير الإجماع فى طريقه الصحيح بعيداً عن أهل النفاق والعقلانيين الذين يقلدون كل ناعق من الذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾[6] فكانت النتيجة أن تناولوا الإسلام بمنهج التفكير الغربى التجريبى الذى يقوم على الشك فى كل شئ ولا يعرف المسلمات ولا يقر بالغيبيات.

وهذا بدوه يلقى بالأمانة على عاتق أهل الإجماع الذين تتوافر فيهم شروط الإيمان الكامل، الذين يجمعون بين العقيدة والمنهج والفكر والسلوك

---

(١) سورة النساء : آية ١١٥.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط. الهيثمى : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١ / ١٧٨.

(٣) سورة العصر : آية ٣.

(٤) سورة التوبة : آية ٧١.

(٥) سورة الزمر : آية ١٨.

(٦) سورة الروم : آية ٧.

العملى والبحث والتجربة ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾(١) ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(٢) ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾(٣) ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾(٤) ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾(٥) ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾(٦) ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٧).

هذا هو التصور العام والأمثل لأهل الإجماع الذين يبنون فكر الأمة ويوحدون مسيرتها ويغرسون فيها القوة الى تواجه المخاطر وتجابه الأعداء والغزو الفكرى والمسخ والتغيير الذى يريد أعداء الإسلام أن يأخذوا إليه الأمة أفراداً وهيئات ومؤسسات.

وإذا كان النقاش قد احتدم فى الماضى حول أهل الإجماع ومن يتحقق بهم الإجماع، فإن العصر الحاضر وواقع الأمة لا يتطلب ذلك، ففى القديم كانت العقول أهدى والقلوب أصفى وكان شعارهم أن «الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية» وكانت الأمور عندهم بمقاصدها الكبرى وغاياتها العليا التى كانت محل اهتمام الجميع ومحط أنظارهم وآمالهم. مستيقظين فى كل ذلك لما يحيكه لهم الأعداء فأخذوا حذرهم وأعدوا عدتهم.

وقد اتسعت القاعدة الفكرية لديهم فناقشوا إجماع الأكثرية والإجماع المركب والناقص وإجماع الصحابة، وأهل المدينة، وإجماع أهل البيت والتواتر فى الإجماع، وإجماع أهل كل عصر، وانقراض العصر، ومخالفة

---

(١) سورة النساء : آية ٨٣.

(٢، ٣) سورة الكهف : آية ٦٥ ، ٨٤ ، ٨٥.

(٤) سورة الأنبياء : آية ٧٩.

(٥، ٦) سورة يوسف : آية ١٠١، ١٠٨.

(٧) سورة النحل : آية ٤٣.

الإجماع السابق عند إحداث دليل أوتأويل آخر، ودور العامى فى الإجماع. وكان هدف هذه المناقشات تحقيق الوحدة الفكرية ورسم الصورة المنهجية الصحيحة للعمل الإسلامى المتواصل حتى يبقى الإجماع مصدر قوة ووحدة. «ونحن لا نستطيع عمليا أن نمنع أى إنسان من إبداء رأيه واجتهاده، لكن الأمة الواعية قادرة على إسقاط فتاوى الظلم والجهل والسلطان والهوى والانحراف، كما أنها قادرة على إسقاط ثقافة الظلم والجهل والعمالة»[١].

ولذلك فإن المجتهدين من المبتدعة الخوارج والروافض فى نظر الجمهور، والقدرية والجهمية لا يدخلون فى الذين يتكون منهم الإجماع.

قال الجمهور : إذا كانوا يدعون إلى بدعتهم لا يدخلون، أما إذا كانوا لا يدعون إلى آرائهم، كبعض المجتهدين الذين نسب إليهم الكلام فى القدر أو الإرجاء فإن هذا لا يخرج بهم من صفوف أهل الإجماع.

ومن فقهاء الجمهور من اعتبر الشذاذ من الفقهاء غير داخلين فى الإجماع فلم يدخلوا فى عموم من يتكون الإجماع منهم نفاة القياس وما ذلك إلا للهوى الذى يداخل أنفسهم والقصور الكائن فى مداركهم وملكاتهم والتعطيل للسنن الإلهية كتابية كانت أو آفاقية وأنفسية.

وعلى ذلك فالإجماع يتأتى من العارف بمسائل الفقه وأدلتها، وطرق استخراج الأحكام.

يقول الشوكانى فى إرشاد الفحول : «والإجماع المعتبر فى فنون العلم هو إجماع أهل ذلك الفن، العارفين به دون من عداهم، فالمعتبر فى الإجماع فى المسائل الفقهية قول الفقهاء، ولو خالف أهل الإجماع واحد منهم لا يعد الإجماع قد انعقد، ولا يقال هذا شاذ، لأن من كان واحدا منهم مرتبطا بأصولهم لا يعد شاذا إذا خالفهم»[٣].

---

(١) عمر عبيد حسنة : تقديم كتاب الاجتهاد الجماعى فى التشريع الإسلامى ٢٢.

(٢) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ١٦٣ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ١٦٤.

هذا أولاً . وأما ثانيا: فالأمة تحتاج إلى الساحة التى تسع المسلمين جميعا ليتحقق الإجماع بمفهومه الشامل والواسع، «وذلك بعد أن تتوفر لكل واحد منهم مرجعية شرعية أو ثقافة شرعية، ورؤية إسلامية شاملة للحياة بشعبها وميادينها المختلفة، تشكل قدراً مشتركا لكل الاختصاصات المعرفية هى أشبه بضوابط منهجية للامتداد بالاجتهاد، والنظر لكل اختصاص فى ضوء القيم الإسلامية، وإطلاق العقل المسلم من عقاله ليتعامل مع النص بحرية وطلاقة، حتى يصبح قادراً على إنتاج فلسفة إسلامية تربوية واقتصادية وسياسية وإعلامية وإدارية وتنموية، ويصبح هذا الاجتهاد الفكرى هو حجر الزاوية الراسخ والقاعدة الثابتة للإجماع الإسلامى، من خلال التفاعل والتفاكر والحوار، الذى يصوب ويراجع، وعندها تصمد السنة وتهزم البدعة، وتحاصر الفتن»[١].

فالإجماع على هذا أبعد شئ عن أن يكون تلفيقا لآراء متعسفة، ذاتية طائشة ناتجة آليا عن التقليد، أو مدفوعة بروح المحاباة المفرضة. إنه يتجلى لأعيننا على أنه وحدة اليقين الراسخ وحقيقته، اليقين الذى تفرضه حقيقة الأشياء على كل الأنفس المستترة»[٢].

إن بيان الحاجة إلى القانون ومافيه من مصلحة أمر يشترك فيه علماء الدين وغيرهم ولكل واحد من أفراد الأمة تقدير ذلك، وإبداء الرأى فيه ووزنه بميزان التجارب التى استفادها من الحياة، أما إبداء الرأى من الوجهة الفقهية فهو أمر يختص بعلماء الشريعة، ومن الواجب على غيرهم أن يدع لهم الكلمة فيه»[٣].

---

(١) عمرعبيد حسنة : تقديم كتاب : الاجتهاد الجماعى ٢٩.

(٢) د . محمد عبدالله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ٤٦.

(٣) الشيخ المراغى : بحوث فى التشريع الإسلامى ٢ نقلا عن د . صوفى أبو طالب : مصادر الاحكام الإسلامية، دار الاتحاد العربى للطباعة ٥٨.

ومن كل ماسبق يتبين لنا أن الإجماع يأتى من المجتهدين، ويأتى من جميع أفراد الأمة إذا توافرت شروطه وثبتت أدلته وظهرت حكمته، سواء كانوا أقلية أم أكثرية، فى السابق أم فى اللاحق من أهل البيت أم من غيرهم، ولا يغفل دور الأمى أو غير المتخصص، فهم السواد الأعظم وفيهم يظهر أثر الإجماع ومنهم يطلب تطبيق حكمه، ويدعم هذا أننا أمة التواصى بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والأمة التى ألف الله بين قلوبها والتى لا تجتمع علي ضلالة.

رابعا: ضوابط الإجماع.

وضع العلماء الأصوليون ضوابط للإجماع، تساعد على قيامه وتجعل منه حجة فى النظم الإسلامية ومصدراً لها، فالإجماع يتحقق بما يلى :

١) وجود عدد من المجتهدين المسلمين، إذ لا عبرة بوجود غيرهم من مجتهدى النظم الأخرى، أو مايسمى بالأديان الأخرى، لأنهم متأثرون بعقائدهم وشرائعهم الدينية، ومتفقون على القول ببطلان الإسلام، ومن المقررات الإسلامية أنه لا يحكم المسلم بغير المسلم، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم يقول تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾(١).

٢) إتفاق المجتهدين على الحكم وقت وقوع الحادثة، بحيث لا يخالف فى الحكم أحد منهم أو يرجع عنه، وإلا فلا ينعقد الإجماع.

٣) أن يكون الاتفاق بعد وفاة رسول الله - ﷺ - لأنه لا إجماع فى حياته، إستغناء عن الإجماع بالوحى.

٤) أن يكون الاتفاق على حكم شرعى ليكون الإجماع أصوليا، وهذا القيد يخرج الاتفاق على الأحكام الأخرى، من مثل الحكم العقلى، كحدوث العالم والواحد نصف الاثنين، والحكم اللغوى، ككون الفاء للتعقيب وثم

---

(١) سورة النساء : آية ١٤١.

للتراخى، والحكم الحسى، كالنار محرقة والفاكهة حلوة المذاق، فمثل هذه الأمور لا تعد إجماعاً أصوليا عند المتأخرين من علماء الأصول، وإن كان المتقدمون منهم يرون أن كل اتفاق على أى حكم إجماع»[١] والشرعى إشارة إلى استناد الاتفاق إلى دليل شرعى من كتاب أو سنة لأنه لا يصح القول فى الدين بغير دليل. ويضيف البعض أن هذا الحكم الشرعى عملى إشارة إلى استبعاد مسائل العقيدة عن أن تكون موضع اجتهاد ثم إجماع لأنها ثابتة على وجه اليقين بأدلة قطعية»[٢].

خامسا: مجالات الإجماع.

للإجماع أدلته وبراهينه فى قيامة كفن وفى معطياته للأحكام التى تغطى مايستجد من أمور، والإجماع على الحكم يقوى ويعضد اجتهاد المجتهدين، ولذلك فهو مطلوب فى كل القضايا وخصوصا مايتصل منها بوحدة الأمة وحمايتها وتنميتها والمحافظة عليها داخليا وخارجيا، وبالجملة فى القضايا الفاصلة التى يترتب عليها مصير الأمة سواء كان ذلك فى أمور الدين أم أمور الدنيا.

يقول الآمدى : «فالمجمع عليه إما أن يكون من أمور الدين أو الدنيا. فإن كان من أمور الدين فهو حجة مانعة من المخالفة إن كان قطعيا، من غير خلاف عند القائلين بالإجماع. وسواء كان ذلك المتفق عليه عقليا كرؤية الرب لا من جهة، ونفى الشريك لله تعالى، أو شرعيا كوجوب الصلاة والزكاة ونحوها. وأما إن كان المجمع عليه من أمور الدنيا كالإجماع على مايتفق من الآراء فى الحروب وترتيب الجيوش وتدبير أمور الرعية، فقد اختلف فيه قول القاضى عبدالجبار بالنفى والإثبات : فقال : تارة بامتناع المخالفة، وتارة بالجواز وتابعه على كل واحد من القولين جماعة.

---

(١) انظر د. مصطفى أبوسمك: نظم الإسلام وثقافته ٨٧ وما بعدها.

(٢) د . على جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ١٢٩.

والمختار إنما هو المنع من المخالفة. وإنه حجة لازمة، لأن العمومات الدالة على عصمة الأمة عن الخطأ ووجوب اتباعهم فيما أجمعوا عليه عامة فى كل ما أجمعوا عليه»[١].

ومن هذا الكلام يكون الإجماع ممتداً شاملا لكل المجالات التى تدخل تحت دائرة الاجتهاد، أما ماكان معلوما من الدين بالضرورة فدليله قطعى وهو يستمد قوته من قطعية النصوص فى ورودها وقطعيتها فى دلالتها.

فالإجماع يتناول الأحكام الشرعية العملية، وهو كمصدر للمشروعية شامل لكل الأحكام دستورية وغير دستورية [٢]، والمتقدمون من الأصوليين يرون أن الإجماع «قد يكون فى أمر دينى ودنيوى وعقلى ولغوى»[٣].

ويدعم هذا أن إجماع الصحابة لم يختلف فيه أحد. فقد انعقد وكان فى مجالات شتى ومتعددة تتصل بالميراث والنكاح والغنائم والخلافة والأموال كما فى قتال مانعى الزكاة وجمع القرآن وكتابة المصحف، وهى ميادين متعددة ومجالات مختلفة وقعت فيها وقائع إقتضت حكما شرعيا جمعوا له أدلته من الكتاب والسنة، ثم التزموا تطبيقه بعد أن تشاوروا واتفقوا.

سادسا : علاقة الإجماع بالنظم.

الإجماع مصدر قوة الاجتهاد، وبه قوة المسلمين ووحدتهم القانونية والدستورية، وهو صورة التواصى بالحق والصبر والتعاون على البر والتقوى ومظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبه يرتفع بناء النظم الإسلامية

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١ / ٢٥٦.

(٢) انظر د . على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ١٣٦.

(٣) حاشية البنانى على جمع الجوامع ٢ /١٧٦، ١٩٤ نقلا عن د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٨٨.

عاليا قويا، ومن خلاله يتدفق عطاء النظم الإسلامية مواكبا كل المستجدات، وحتى يكون الأثر فعالاً والعلاقة قوية لابد من الوقوف على الحقائق الآتية.

- معرفة ما وقع عليه الإجماع من مسائل الفقه وتصنيفها تصنيفا علميا موضوعيا لمعرفة المجالات التى عالجها الاجتهاد الإسلامى من خلال الإجماع والوقوف على أدلة هذا الإجماع. وقد جمعتها بعض الكتب المختصرة مثل «مراتب الإجماع» لابن حزم و «الإجماع» لابن منذر.

وهذا يوفر على المجتهدين عناء الاجتهاد، فقد فرغت منها الأمة التى أبى الله أن يجمعها على ضلالة [١].

- إن كثيراً مما ادعى فيه الإجماع من مسائل الفقه قد ثبت فيه الخلاف[٢]، ومن هنا يأتى السوأل : كيف تختار الأمة أحد أقوال السابقين المختلفة فى المسألة، لتجعل منه قاعدة قانونية لجميع المجتمع؟[٣] وهذا يحتاج إلى ترجيح ولا يتم ذلك إلا بالإجماع.

- أن من الإجماع ما يقبل الإبطال بإجماع جديد، وذلك فيما بنى الإجماع فيه على عرف تبدل، أو مصلحة زمنية تغيرت، لأن المصلحة المذكورة هى علة الحكم، والمعلول يدور مع علته وجوداً وعدما[٤].

وهذا لأن الإجماع يقوم على الاجتهاد لمعالجة أمر معين بهيئة معينة فى زمن معين فإذا تغيرت هيئة هذا الأمر وصفته بعد ذلك فإن الأمر يحتاج إلى معالجة جديدة، وبهذا تبقى العلاقة قائمة وقوية بين الإجماع والنظم، يقول الإمام شهاب الدين القرافى : «إن الأحكام المترتبة على العوائد تدور

---

(١) انظر د . يوسف القرضاوى : الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ٣٧.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) د . عبدالمجيد السوسره الشرفى : الاجتهاد الجماعى فى التشريع الإسلامى كتاب الأمة العدد ٦٢ ط أولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م ١١١.

(٤) د . القرضاوى : الاجتهاد ٣٨.

معها كيفما دارت، وتبدل معها إذا بطلت، كالنقود فى المعاملات، والصوب فى الأعواض ونحو ذلك فلو تغيرت العادة فى النقد والسكة إلى سكة أخرى يحمل الثمن فى البيع على السكة التى تجددت العادة بها دون ماقبلها، وعلى هذا القانون تراعى الفتاوى على طول الأيام، فمهما تغير العرف فاعتبره، ومهما سقط فأسقطه»(١).

– أن بعض مواضع الإجماع النقلى ذاته قابلة للإجتهاد إذا كان النص مبنيا على رعاية عرف معين أومصلحة معينة، فتبدل العرف، أوتغيرت المصلحة»(٢).

وبرعاية هذه الأمور تبقى العلاقة قوية بين الإجماع والنظم يمدها بالزاد الفقهى الفكرى والدستورى الذى يواكب الأحداث ويناسب المقتضيات وهنا يتأتى لنا أن نقول : إن الإجماع من شأنه أن يقوى الأمة ويوحد رأيها وخصوصا فى كبريات الأمور التى تتعلق بالأمة تجاه الأمم الأخرى، وتجاه المؤسسات التى تخاطبنا باتباع نظمها الجديدة التى تحتاج إلى اجتهاد لمعرفة الحكم وإلى إجماع من المجتهدين على تطبيق هذا الحكم وحجيته فى ظل الرعاية لأمور ومقاصد كثيرة وآثار بعيدة بعيدا عن الرؤية القاصرة أو النفعية أو المسلوبة أو المأجورة.

وإذا كان الإجماع على حكم فقهى فإنه يحتاج إلى إجماع عملى وتطبيقى وهذا مايفرض على المجتهدين من أمة الإسلام أن يطبقووه أولا فيما بينهم حتى نضع الأسس الأولى لجمع المسلمين فى أمة واحدة يلقى فيها الإجماع الفقهى الاهتمام والتأثير، أما إذا قام الإجماع فيما عليه الواقع الحالى من الشرذمة والتفرق السياسى والاقتصادى والقانونى

---

(١) القرافى : الفروق ، دار المعرفة بيروت ١ / ١٨٦.

(٢) د . القرضاوى : الاجتهاد ٣٨.

والاجتماعى فإن ثمرته وغايته ستكون ضعيفة، وخصوصا إذا عرفنا أن باب الإجماع لا يقتصر على مسائل العبادات وإنما يشمل القضايا الكبرى الفاصلة فى حياة الأمة كوحدة واحدة وقيادة واحدة.

ومما لا شك فيه أن «المواضع الإجماعية - فى القديم والحديث - فى فقهها هى التى تجسم الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة وتحفظها من عوامل التشتت والتمزق»(١) وبالاضافة إلى ماسبق فإننا نقرر أن الإجماع واجب فى الأمور المصيرية بالنسبة للأمة، أما فى الأمور الأخرى الداخلية فالأمر يحتاج إلى الوقوف على الظروف والملابسات التى تخص كل مجتمع داخل الأمة ومن هنا فتعدد الآراء فى هذه الأمور وتعدد الأحكام من قطر إلى قطر فى داخل الأمة يكون هو العلاج، «ولا بأس أن يكون الاجتهاد فرديا فى القضايا ذات الطابع الفردى، إذ أن الخلاف فيها لا يؤدى إلى إختلاف فى القوانين العامة التى تنظم أحوال الأمة»(٢).

إن الإجماع هو عنوان العبودية لله رب العالمين وهو سبيل الطاعة، وخصوصا أنه السبيل إلى تحقيق واجب مهم ألا وهو وحدة الأمة الإسلامية بينما إهمال الإجماع والتفرق فيه يؤدى إلى تمزيق الأمة، فليس بعد الفرقة الفكرية والعقلية فرقة وهى سلاح الهدم الأقوى الذى يستخدمه أعداء الإسلام. وبالتأمل نرى : أن علاقة الإجماع بالنظم تدور حول جوانب عدة :

- جانب أصولى تراثى قديم.
- جانب منهجى نظمى حديث.
- جانب أمنى داخلى للأمة الإسلامية.
- جانب دفاعى لحماية الأمة ضد الغزوى الفكرى المادى للنظم الإسلامية.
- جانب التجدد والعطاء والاستمرارية فى الفهم والتطبيق الواقعى.

---

(١) السابق ٣٦.

(٢) د . عبد المجيد الشرفى : الاجتهاد الجماعى ١٠٧.

سابعا: بين الإجماع الإجتهاد الجماعي.

كانت الأمة الإسلامية جسداً وروحاً وعقلا واحداً، تتحقق قضاياها الكبيرة من خلال إجماع واحد، وتترك معالجة قضايا الأفراد للاجتهاد الفردى، ولكن بعد أن تفرقت الأمة بفعل الإستعمار والأعداء، فقد الإجماع تأثيره، وذلك تبعا لتعدد الحكام وزرع الفواصل بين مجتمعات هذه الأمة، ومن هنا تعددت الآراء تجاه القضية الواحدة ففقدت الأمة مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأصبح كل قطر فيها يجمع على مايراه صوابا من وجهة نظره حتى ولو كان تحالفا مع الأعداء أو استنصاراً بهم على المسلمين أو حماية لهم ولجنودهم أو فتح البلاد لجيوشهم تحت شعارات ليس بينها وبين الإجماع الإسلامى صلة، فالمبررات مادية وترفيهية وكلها تتعارض مع خصال المؤمنين وصفات المتقين وتخالف سبيل المؤمنين وتتناقض مع عزة المسلمين. وفى ظل هذا الواقع بحث العلماء وجاءت تصوراتهم للإجماع على النحو التالى :

يرى البعض «أنه لا تكاد قاعدة من قواعده تسلم من الخلاف فيها، مما لا يتيسر معه وجود إجماع يستند إلى أصل متفق على حدوده ومعالمه ولا حجيته. أن الإجماع – بالصورة التى ذهب إليها جمهور الفقهاء، وهى اتفاق من جميع المجتهدين فى البلاد الإسلامية، صورة مثالية يكاد يمتنع وقوعها أو يندر، للاعتبارات التى أثارها المخالفون فى إمكان الإجماع وانعقاده، حتى أن الإجماع فى عصر الصحابة نفسه وقد كان فقهاؤهم معروفين ومحصورين لم يقم دليل على انعقاده بهذه الصورة»[١].

وهذا الرأى يحتاج إلى مراجعة فقه المسائل المتعلقة بالإجماع فى فكر السابقين والربط بين حرية الفكر وتطبيق مايناسب مصلحة الأمة، وليس

---

(١) د . زكريا البرى : مصادر الأحكام الإسلامية، دار الاتحاد العربى للطباعة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ / م ص ٧٦.

التقيد بحرفية الألفاظ، فالإجماع لا يكون إلا عن دليل من كتاب أو سنة. ويراعى فى الإجماع ترتيب الأولويات التى تحقق مصالح الأمة فى كل وقت. ولابد أن يراعى بين النقل من التراث والواقع الذى تسايره روح القرآن الكريم ويبقى معه الإجماع صالحا لكل مكان وزمان بأصوله الثابتة ومقاصده القائمة وضروراته المتجددة.

وإلى جانب ذلك نجد من ينادى بالاجتهاد الجماعى، ويعرفه بأنه «استفراغ أغلب الفقهاء الجهد لتحصيل ظن بحكم شرعى بطريق الاستنباط، واتفاقهم جميعا أو أغلبهم على الحكم بعد التشاور»[1].

والصورة المثلى والتى يراها الباحثون لتحقيق هذا الإجماع تتحقق بإنشاء المجامع الفقهية فى البلاد الإسلامية لمعالجة المستجدات مع استقلاليتها فى التكوين والموارد والإمكانيات والتحرر من ضغط الواقع.

ومن المؤسسات التى تقوم بهذا الدور:

- مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وقد أنشئ سنة ١٩٦١م بموجب القانون ١٠٣ المتعلق بتطوير الأزهر.
- المجمع الفقهى الإسلامى بمكة المكرمة وهو تابع لرابطة العالم الإسلامى وأنشئ بناء على قرار المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى سنة ١٣٩٣هـ.
- مجمع الفقه الإسلامى بجدة، وقد أنشئ بناء على قرار منظمة المؤتمر الإسلامى سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م[2].

---

(١) د . عبدالمجيد السوسوه الشرفى : الاجتهاد الجماعى فى التشريع الإسلامى ٤٦.

(٢) المصدر السابق ١٣٨ وما بعدها، د . يوسف القرضاوى : الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ١٨٠ وما بعدها.

ويرى البعض أن «هذا الاجتهاد الجماعى المنشود يتمثل فى صورة مجمع علمى إسلامى عالمى يضم الكفايات العليا من فقهاء المسلمين فى العالم دون النظر إلى إقليمية أو مذهبية أو جنسية. فإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه، لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذاك النظام .. وهذا الاجتهاد الجماعى لا يقضى على اجتهاد الأفراد ولا يغنى عنه»[١].

وبالتأمل نرى أن الاجتهاد الجماعى ماهو إلا إجماع الأكثرية الذى عالجه علماء الأصول فى أبحاثهم وكتبهم، وحتى نصل إلى الإجماع الحقيقى فإنه «تجدر الإشارة إلى ضرورة اتحاد المجامع الفقهية أو على الأقل التنسيق بينها، لأن تعدد المجامع مع اختلافها يجعل أحكامها فى المسألة الواحدة قد تتعارض، وبذلك توجد البلبلة بين المسلمين وتتشتت مواقفهم»[٢].

ونحن نأمل أن لا يكون السبب فى كثرة المجامع هو كثرة الفواصل بين الحدود والعقول مما يتعذر معه الاكتفاء بمجمع واحد يحقق اتحاد المسلمين، أو رؤية الغير نفسه أهلا للقيام على أمر هذا المجمع لأنه يرى الآخرين لا يتفقون معه فى بعض الأمور العقدية الفرعية أو المذهبية.

وخير ختام لنا ونحن نتحدث عن الإجماع أن نقول : «إن هذا المصدر بمثابة برهان عملى على مرونة التشريع الإسلامى وصلاحيته لكل زمان ومكان، إذ ليس الإجماع أمراً مقصوراً على أزمنة وأمكنة معينة، وإنما هو أمر باقى ببقاء الإسلام، ومن الممكن تحقيق هذا المصدر فى وقتنا الحاضر وفيما يليه من أوقات»[٣].

---

(١) د . القرضاوى : الاجتهاد ١٨٣ وما بعدها.

(٢) د . عبدالمجيد الشرفى : الاجتهاد الجماعى ١٤١.

(٣) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٩٦.

المصدر الرابع : القياس

أنزل الله القرآن الكريم خطابا للإنسان، يلامس ملكاته ويحرك وجدانه ويعذى تذوقه، يخشع له قلبه وينشرح به صدره يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١) وبذلك يتفاعل الإنسان مع القرآن تفاعلا كليا يشمل كل الكيان الإنساني، وخير تصوير لتلك الحالة أن يكون المسلم قرآنا يمشى على الأرض.

وقد يسر الله القرآن للذكر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾(٢).

وجعل ألفاظه وجمله وأحكامه مجالا للفهم والتفكر والوعى والتذكر.

يقول الشاطبى : «الأدلة الشرعية لا تنافى قضايا العقول»(٣).

ومن هنا فقد استثار الإسلام العقل وحضه على النفقه والتعلم والتدبر والنظر والبحث والاعتبار والاستدلال والملاحظة والبرهان، وقدم له نماذج من المناظرة والمفاكرة والمشاورة والمباهلة، وما ذلك إلا ليحصل الأسباب والوسائل التى ترغبه فى الإيمان وقبول الإسلام، الذى تتفق حقائق كتابه مع مرتكزات القلوب والعقول الإنسانية فى أصل فطرتها التى فطرها الله عليها.

وفى رحاب هذا التصور وتلك الحقائق قام العقل المسلم يواصل رحلته الإيمانية ومسيرته الإنسانية الحضارية على هدى عن أحكام القرآن الكريم ونظمه التى جاءت إما لازمة منصوصا عليها وذلك فى الثوابت والأصول، وإما على سبيل الحق فيه دلالة موجودة، وعليه إذا كان فيه بعينه حكم

---

(١) سورة الزمر : آية ٢٣.

(٢) سورة القمر : آية ١٧.

(٣) الموافقات ٣ / ٢٧.

– لزم[١] – اتباعه وإذا لم يكن فيه بعينه – حكم[٢] – طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد والقياس»[٣] وذلك فى الأمور والقضايا التى تستجد وتظهر فى حياة الإنسان والتى جاءت أحكامها فى إطار كلى ونموذج عقلى يقف عليها أهل البصيرة والاختصاص.

وحتى يكون تناولنا للقياس كمصدر من مصادر النظم الإسلامية موضوعيا علميا فإننا نعرض لذلك من خلال معالجتنا لبعض القضايا التى تتصل بالقياس.

أولاً: تعريف القياس.

(أ) القياس فى اللغة.

يعطى البيان اللغوى تصوراً للحقيقة التى يريد الإنسان معرفتها والوقوف عليها، وبالتالى تصبح قريبة من التصور والفهم ميسورة التطبيق.

قال أهل اللغة:

«قاس الشئ يقيه قيسا وقياسا، واقتاسه وقيسه : إذا قدره على مثاله .. والمقياس : المقدار، والقيس والقاس : القدر، ويقال : هذه خشبة قيس أصبع: أى قدر أصبع. والقيس : الشدة، والمقايسة تجرى مجرى المقاساة التى هى معالجة الأمر الشديد ومكابدته وهو مقلوب حينئذ، ويقال : يخطو قيسا أى يجعل هذه الخطوة : بميزان هذه[٤]. «والقياس فى اللغة : رد الشئ إلى نظيره»[٥].

(١، ٢) إضافة للايضاح.

(٣) الشافعى : الرسالة ٣ / ٤٧٧.

(٤) لسان العرب ٤ / ٣٧٩٣. مختار الصحاح ٥٥٥.

(٥) المعجم الوسيط ٢ / ٧٧٠.

(ب) القياس في اصلاح الأصوليين.

ربط علماء الأصول بين المعانى اللغوية للقياس وبين المدلولات الشرعية وخرجوا من ذلك بأن القياس هو :

«الإستواء بين الفرع والأصل فى العلة المستنبطة من حكم الأصل»(١).

وهو «إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للإشتراك بينهما فى علة الحكم»(٢).

مع مراعاة أن الأمر يقوم على التقدير والتمييز بين المتشابهات وإدراك الخصائص وهذا لا يتم إلا بالشدة والعزم والأدوات التى تمكن الإنسان من التقرير الصحيح، فعمل الإنسان فى القياس ميزان توزن به القضايا والأمور.

ثانيا: مقومات القياس.

يعتمد القياس الإسلامى على مقومات تؤسس قواعده وتقيم أركانه وترفع بنيانه.

(أ) الحقائق القرآنية.

يقول الإمام الشاطبى - رحمه الله تعالى - وهو يبين المنهج الذى تنطلق من خلاله الأدلة الشرعية :

«الأدلة الشرعية ضربان : أحدهما ما يرجع إلى النقل المحض. والثانى مايرجع إلى الرأى المحض. وهذه القسمة هى بالنسبة لأصول الأدلة. وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر.

---

(١) الأمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ٣ / ١٧٤.

(٢) أبو زهرة : أصول الفقه ١٧٣.

لأن الاستدلال بالمنقولات لابد فيه من النظر، كما أن الرأى لا يعتبر شرعاً إلا إذا استند إلى النقل. فأما الضرب الأول : فالكتاب والسنة. وأما الثانى : فالقياس والاستدلال ويلحق بكل واحدح منهما وجوه، إما باتفاق وإما باختلاف. فيلحق بالضرب الأول الاجماع على أى وجه قيل به، ومذهب الصحابى، وشرع من قبلنا؛ لأن ذلك كله وما فى معناه راجع إلى التعبد بأمر منقول صرف لا نظر فيه لأحد.

ويلحق بالضرب الثانى : الاستحسان والمصالح المرسلة ...

ثم نقول إن الأدلة الشرعية فى أصلها محصورة فى الضرب الأول - أى الكتاب والسنة - لأنا لم نثبت الضرب الثانى بالعقل، وإنما أثبتناه بالأول إذ منه قامت أدلة صحت الاعتماد عليه. فالأول هو العمدة - الكتاب والسنة - وقد صار مستند الأحكام التكليفية من جهتين :

إحداهما: جهة دلالته على الأحكام الجزئية الفرعية.

والأخرى: جهة دلالته على القواعد التى تستند إليها الأحكام الجزئية الفرعية. فالأولى كدلالته على أحكام الطهارة والصلاة والزكاة والحج والصيد والذبائح والبيوع وأشباه ذلك.

والثانية: كدلالته على أن الإجماع حجة، وعلى أن القياس حجة، وأن قول الصحابى حجة، وشرع من قبلنا حجة وما كان نحو ذلك»[1].

ويفهم من هذا أن من جملة علوم القرآن الكريم :

- علوم الأحكام.

- علوم قواعد الأحكام التى يصطلح على تسميتها بعد ذلك ومنها الإجماع والقياس.

---

(١) الموافقات ٣ / ٤١ وما بعدها.

وعندما نتأمل القرآن الكريم والأدلة الشرعية الواردة فيه وفى السنة المطهرة فإننا نجد أن القواعد التى تثبت القياس حاضرة وظاهرة، وقد جاءت بطرق متعددة تدور بين التصريح والإشارة.

١) يقول تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾[١].

وهذا أمر بالاعتبار.

والاعتبار هو : الانتقال من الشئ إلى غيره، وذلك متحقق فى القياس حيث إن فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع. فالأمر إما أن يكون للوجوب أو للندب، وعلى كلا التقديرين فالعمل بالقياس يكون مشروعاً.[٢] ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[٣].

وليس الرد إلى الله وإلى الرسول إلا بتعرف الأمارات الدالة منهما على مايرميان إليه. وذلك بتعليل أحكامهما والبناء عليها، وذلك هو القياس»[٤].

وتلك هى الطريقة الصريحة التى سلكها القرآن الكريم فى أدلته الشرعية لبناء صرح علوم قواعد الأحكام ومنها القياس.

٢) وهناك طريقة أخرى تقوم على الفهم والملاحظة والمقارنة والموازنة تشرح عملية القياس وكيفيتها، وتبين مفردات القياس ومقاصده وهذا باب فى القرآن عظيم، وأهم ملامح هذا الباب وتلك الطريقة.

---

(١) سورة الحشر : آية ٢.

(٢) الآمدى : الإحكام ٤ / ٢٦.

(٣) سورة النساء : آية ٥٩.

(٤) أبو زهرة : أصول الفقه ١٧٥.

– قيام أحكامه الأمرية الشرعية على تلك القواعد وترسيخه لها والعمل على تنميتها لدى المسلم، فالأحكام «تجدها مشتملة على التسوية بين المتماثلين وإلحاق النظير بنظره، واعتبار الشئ بمثله، والتفريق بين المختلفين، وعدم تسوية أحدهما بالآخر، وشريعته سبحانه منزهة أن تنهى عن شئ لمفسدة فيه ثم تبيح ماهو مشتمل على تلك المفسدة أو مثلها أو أزيد منها[١] وهذا فى باب التساوى بين المتماثلين فى الأحكام الشرعية. مانص عليه وما يماثله مما لم ينص عليه لوجوده بعد رسول الله ﷺ، فإنه يأخذ حكم المنصوص عليه، وهذا هو القياس.

– قيام كثير من الأحكام على التعليل.

فقد جاءت الأحكام القرآنية مقترنة بعلتها. «لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعانى المعتبرة فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضائها ويوجب تخلف أثرها عنها»[٢] كقوله تعالى :﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾[٤].

يقول الإمام الشاطبى : «وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام فى الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى .. وإذا دل الاستقراء على هذا، وإن كان فى مثل هذه القضية مفيداً للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر مستمر فى جميع تفاصيل الشريعة. ومن هذه الجملة ثبت القياس والاجتهاد»[٥].

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين ١ / ١٩٥.

(٢) المصدر السابق ١ / ١٩٦.

(٣) سورة الأنفال : أية ١٣.

(٤) سورة البقرة : أية ١٧٩.

(٥) الموافقات ٢ / ٧.

- ضرب الأمثال.

وهذا باب من أبواب القياس فى القرآن الكريم، «فإنها تشبيه شئ بشئ فى حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر، وقد ضرب الله - سبحانه - الأمثال وصرفها قدراً وشرعا ويقظة ومناما ودل عباده على الاعتبار بذلك، وعبورهم من الشئ إلى نظيره واستدلالهم بالنظير على النظير، بل هذا أصل عبارة الرؤيا التى هى جزء من أجزاء النبوة ونوع من أنواع الوحى، فإنها مبنية على القياس والتمثيل واعتبار المعقول بالمحسوس»[١].

- ماعرضه القرآن الكريم لكثير من أنواع القياس. كقياس العلة، وقياس الدلالة، وقياس الشبه وهى كثيرة فى القرآن الكريم.

مثال الأول: قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[٢] فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم فى التكوين بجامع مايشتركان فيه من المعنى الذى تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ووجود حواء من غير أم؟ فآدم وعيسى نظيران بجمعهما المعنى الذى يصح تعليق الإيجاد والخلق به.

ومثال الثانى: قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[٣] فدل بالنظير على النظير، وقرب أحدهما من الآخر بلفظ الإخراج، أى يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى.

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين ١ / ١٥٠، ١٩٠.

(٢) سورة آل عمران : آية ٥٩.

(٣) سورة الروم : آية ١٩.

ومثال الثالث: ماحكاه القرآن عن المبطلين من مثل قولهم ﴿قَالُوا إن يَسْرِقْ فقدْ سَرَق أخٌ لَهُ من قبلُ﴾(١) فلم يجمعوا بين الأصل والفرع بعلة ولا دليلها، وإنما ألحقوا أحدهما بالآخر من غير دليل جامع سوى مجرد الشبه الجامع بينه وبين يوسف - ﷺ - وهو قياس فاسد وبالجملة فلم يجئ هذا القياس في القرآن إلا مردودا مذموما»(٢).

ويجمع ماسبق قول ابن القيم رحمه الله تعالى :

«وقد أرشد الله - تعالى - عباده إليه - القياس - في غير موضع من كتابه، فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان، وجعل النشأة الأولى أصلا والثانية فرعا عليها، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات، وقاس الخلق الجديد الذى أنكره أعداؤه على خلق السماوات والأرض، وجعله من قياس الأوْلى كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأوْلى، وقاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم، وضرب الأمثال، وصرفها في الأنواع المختلفة وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشئ حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم فيها حكم الممثل من الممثل به، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشئ بنظيرة والتسوية بينهما في الحكم»(٣) والقياس الذى ورد في القرآن الكريم أتم وأكمل من قياس المناطقة حيث يرى ابن تيمية «ان مدلول القياس الشمولى عند المناطقة ليس إلا أمورا كلية مشتركة، وبالتالى يسميه قياس الأولى (على وزن الأعلى) ويرى أن القياس الصحيح هو المنزل من الله تعالى الذى يستدل به العقل، فإن من أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف، فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا مثل هذا فجعل

---

(١) سورة يوسف . آية ٧٧.

(٢) انظر ابن القيم : أعلام الموقعين ١ / ١٣٣ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ١ / ١٣٠.

حكمهما واحدا، وقد قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[١] وقال : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٢].

والميزان يفسره السلف بالعدل ويفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر أنه أنزل مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط، فالقياس الصحيح هو من العدل الذى أنزله الله تعالى وأنه لا يجوز قط أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح[٣]. «فالأولى تسميته بالاسم الذى سماه الله به، فإنه يدل على العدل، وهو اسم مدح واجب على كل واحد فى كل حال بحسب الإمكان، بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم»[٤]، وهذا الميزان يقوم علي براهين أوكد فى الدلالة من المقدمات التى يقوم عليها القياس، ولفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك[٥].

(ب) التوجيهات النبوية.

يقوم القياس - الميزان - كمصدر من مصادر النظم الإسلامية إلى جانب القرآن الكريم على حقائق من التوجيه النبوى تجمع بين التأسيس لهذا الميزان الشرعى والتطبيق له.

أما التأسيس للقياس كميزان شرعى وبرهان ربانى فقد جاءت النصوص وتعدد الروايات التى تحث على إعمال العقل وحفظه من الإهمال

---

(١) سورة الشورى . آية ١٧.

(٢) سورة الحديد : آية ٢٥.

(٣) ابن تيمية : الرد على المنطقيين تحقيق عبدالصمد شرف الدين ط إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م / ٣٧ وما بعدها.

(٤) ابن القيم : أعلام الموقعين ١ / ١٣٣.

(٥) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح العقول ط صبيح ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م ١ / ١٤.

وتحضه على التفكير وإدراك العلل والمقاصد، بل إنه ﷺ كان يتابع ذلك فى أصحابه وينميه فيهم ويقرهم عليه. ومن ذلك ماجاء عنه - ﷺ - عندما أرسل معاذا إلى اليمن وسأله «كيف تقضى؟ قال أقضى بما فى كتاب الله. قال فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال : فبسنة رسول الله قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله - ﷺ - قال : أجتهد رأيى. قال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ»(١) وعند أبى داود «قال : أجتهد رأى ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»(٢).

واجتهاد الرأى لابد وأن يكون مردوداً إلى أصل، وإلا كان مرسلا، والرأى المرسل غير معتبر، وذلك هو القياس(٣).

وأما التطبيق فقد عالج النبى - ﷺ - الكثير من القضايا التى كانت تعرض عليه بأصول قرآنية تمثل الميزان الذى هو القياس فقد «ذكر علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها، ليدل على ارتباطها بها، وتعديها بتعدى أوصافها وعللها، وقد قرب النبى - ﷺ - الأحكام إلى أمته بذكر نظائرها وأسبابها وضرب لها الأمثال»(٤)، ومن ذلك قوله : «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»(٥) وقوله : «إنما نهيتكم من أجل الدافة التى دفت عليكم فكلوا وتصدقوا وادخروا»(٦) وارتباط الحكم بالسبب ظاهر وذهابه بذهابه واضح، فالحكم يدور مع العلة وجوداً وعدما.

---

(١) سنن الترمذى. كتاب الأحكام باب ماجاء فى القاضى كيف يقضى رقم ١٣٢٧. ٣ / ٦١٦.

(٢) أبو داود . كتاب الأقضية. باب اجتهاد الرأى فى القضاء رقم ٣٥٩٢ . ٣ / ٣٠٢.

(٣) الآمدى : الإحكام ٤ / ٢٨.

(٤) ابن القيم : اعلام الموقعين ١ / ١٩٨ وما بعدها.

(٥) البخارى : كتاب الإستئذان . باب الإستئذان من أجل البصر. فتح البارى ٢٣ / ٢٨.

(٦) مسلم : كتاب الأضاحى . باب بيان ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث. شرح النووى ١٣ / ١٣١.

ومن ذلك قول النبى – ﷺ – للمرأة التى قالت له : «إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال : نعم حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[١].

هذه نماذج من السنة تبين لنا المنهج النبوى الذى اتبعه رسول الله – ﷺ – وهو يبين لأصحابه علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها، وهو بذلك يعدهم للتعامل مع القواعد الكلية والأصول القرآنية فى مواجهة المستجدات ومالم يأت بشأنه نص صريح.

(جـ) تطبيق الصحابة للقياس.

كان أصحاب رسول الله – ﷺ – على وعى كامل بمقاصد الشريعة، وفهم عميق للتطبيق النبوى لحقائق القرآن ودقائقه، ونحن إذا رجعنا إلى ماكانوا يتبعونه فى أحكامهم «وجدناه يرجع إلى أنواع كثيرة، كلها له قوة إثبات الأحكام وتحقيق المصلحة التى ترمى إليها مبادئ الإسلام، فقد ينحل إلى قياس خفى أو جلى، وقد ينحل إلى غير ذلك من الأنواع التى عرفت فيما بعد بأسماء خاصة اصطلاحية، كالمصالح المرسلة وسد الذرائع والاستحسان، فإنه لم يكن فقهاء الصدر الأول قبل أن تنشأ المصطلحات الفقهية والأصولية يعرفون هذه الأسماء، وإنما كانت معانيها متشبعة بها عقولهم، مغروسة فى نفوسهم»[٢].

---

(١) البخارى : كتاب جزاء الصيد . باب الحج والنذور عن الميت . فتح البارى ٨ / ١٨٩.

(٢) محمد على السايس : نشأة الفقه الاجتهادى وتطوره. بحث ضمن سلسلة التوجيه التشريعى فى الإسلام. مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١هـ ١٩٧١م ٣ / ١١٤.

وقد جمع الصحابة فى أخذهم بر ج فى ء الأحكام بين المنهج النظرى والتطبيق العملى.

أما القواعد النظرية التى أداروا من ون حياتهم ووجه إليها الخلفاء عمالهم وقضاتهم لتسيير حركة حل مشاكل حياتهم ومواجهة مستجدات عصرهم فالأدلة عليها كثيرة والوادر التى تشهد لها متعددة منها:

ماجاء فى كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - والذى جاء فيه «ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فيه قرآن ولا سنة ثم قايس الأمور عند ذلك، واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق»[١].

يقول ابن القيم معلقا على هذا النص: «هذا أحد ما اعتمد عليه القياسيون فى الشريعة، وقالوا هذا كتاب عمر إلى أبى موسى، ولم ينكره أحد من الصحابة، بل كانوا متفقين على القول بالقياس، وهو أحد أصول الشريعة ولا يستغنى عنه فقيه»[٢]. ومنها قول ابن مسعود - رضي الله عنه - وهو يوصى من يلى القضاء بالرأى: «لا ضير فى القضاء بالكتاب والسنة وقضايا الصالحين، فإن لم تجد شيئا من ذلك فاجتهد رأيك»[٣].

وأما التطبيق العملى وإنزال أحكام القياس على مايناسبها فى الزمان والمكان تبعا لمقاصد الشريعة فكثيرة تمتد من عصر الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الفقهاء المجتهدين، وقد ذكر الآمدى فى كتابه «الإحكام فى أصول الأحكام[٤]» وابن القيم فى كتابه «أعلام الموقعين عن رب العالمين»[٥] أمثلة

(١، ٢) ابن القيم: أعلام الموقعين ١ / ٨٦، ١٣٠.

(٣) الآمدى: الإحكام فى أصول الأحكام ٤ / ٣٧.

(٤) ٤ /٣٥.

(٥) ١ / ٢٠٣.

كثيرة لأخذ الصحابة – رضوان الله عليهم – بالقياس، تفاعلا مع الأحكام الكلية للشريعة الإسلامية واستدامة للعبودية لله رب العالمين.

(د) حجية القياس.

لقد تعددت المقومات التى يقوم عليها القياس وتنوعت، وجاءت بصورة علمية تؤسس منهجا فكريا إسلاميا، وبذلك حققت للقياس حجية شرعية فقد أقره رسول الله – ﷺ – وأخذ به صحابته والفقهاء من بعدهم، وكان أثره فى الحياة الإسلامية بكل جوانبها حقيقيا إيجابيا، فتتابعت المسيرة الحضارية والرسالة الخالدة للأمة الإسلامية فى نسق فريد لم يسبق له فى دنيا الناس مثال، وإلى عصرنا الحاضر فى القرن الحادى والعشرين، وماذلك إلا لأنه نسق إيمانى معرفى جمالى حضارى.

ثالثا: المنهجية الإسلامية فى بناء القياس.

ميزان القياس فى الإسلام له منهجيته العلمية التى بناها علماء الأصول من خلال القواعد الشرعية، فهى منهجية قرآنية، حملت بين جوانبها الدقة والموضوعية وصولاً إلى الأحكام بميزان الشرع وليس بقياس اليونان، فقياس اليونان ليس فيه حقائق، ولا يستطيع أحد أن يقول إن هذه المقدمة صحيحة إلا بتصحيح الشرع لها، كما أنه لا يعرف الغايات الحقيقية، وإنما هى رؤية بشرية تختلف من إنسان لآخر، ولو كان القياس الأرسطى يؤدى إلى الصواب أو ينتهى بصاحبه إلى الحق، لأقام الأدلة على بطلان وثنية اليونان والحضارة الهيلينية التى خرج منها شاول «بولس» الذى حارب الدين باسم الفلسفة.

ومن هنا نقول: إن المنهجية الإسلامية فى القياس تقوم على قواعد إسلامية خالصة، وليست نقلا عن فلسفة أخرى، لأنها تلتزم الحق والعدل ومحكومة بمقاصد الشريعة.

وهذه المنهجية تشمل النقاط التالية :

١) أقسام القياس ومراتبه وأنواعه.

جاءت تقسيمات علماء الأصول للقياس متعددة تتسم بالاختصار تارة وبالتفصيل أخرى، وما ذلك إلا بسبب العلاقات والملابسات التى تحيط بالقياس فى كل حال من أحواله وقسم من أقسامه. وقد جمعها الآمدى فى خمسة.

الأولى: القياس ينقسم إلى المعنى الجامع فيه. باقتضاء الحكم فى الفرع أولى منه فى الأصل، وإلى ماهو مساو، وإلى ماهو أدنى.

الثانية: القياس ينقسم إلى جلى وخفى.

فالجلى ماكانت العلة فيه منصوصة أو غير منصوصة، غير أن الفارق بين الأصل والفرع مقطوع بنفى تأثيره.

وأما الخفى فما كانت العلة فيه مستنبطة من حكم الأصل.

الثالثة: القياس ينقسم إلى مؤثر وملائم.

أما المؤثر فإنه يطلق باعتبارين : الأول ماكانت العلة الجامعة فيه منصوصة بالصريح أو الإيماء أو مجمعا عليها. والثانى ما أثر عين الوصف الجامع فى عين الحكم، أو عينه فى جنس الحكم، أو جنسه فى عين الحكم وأما الملائم فما أثر جنسه فى جنس الحكم.

الرابعة: القياس ينقسم إلى قياس علة، ودلالة، والقياس فى معنى الأصل.

أما قياس العلة فإنه ماصرح فيه بالوصف الجامع بين الأصل والفرع وكان هو العلة الباعثة على الحكم.

وأما قياس الدلالة فإنه ماصرح فيه بالوصف الجامع بين الأصل والفرع ولم يكن هو العلة بل هو دليل عليها.

وأما مالم يصرح فيه بالوصف الجامع فيسمى القياس فى معنى الأصل.

الخامس: القياس لا يخلو إما أن يكون طريق إثبات العلة المستنبطة فيه، المناسبة أو الشبه، أو السبر والتقسيم، أو الطرد والعكس.

فإن كان الأول فيسمى قياس الإحالة.

وإن كان الثانى فيسمى قياس الشبه.

وإن كان الثالث فيسمى قياس السبر.

وإن كان الرابع فيسمى قياس الإطراد»[١].

٢) أركان القياس.

يعرف كل نوع من أنواع القياس السابقة بقدر تكامل أركان القياس فيه، وظهورها فى القياس بجلاء أو خفاء، وهذه الأركان هى :

١) **الأصل:** وهو المصدر من النصوص الذى بين الحكم، وقيل هو موضع هذا المصدر والمعنيان متلاقيان ويسمى أيضا المقيس عليه والمشبه به.

٢) **الفرع:** وهو الموضع الذى لم ينص على حكمه، المسمى بصورة محل النزاع، وهى الواقعة التى يقصد تعدية حكم الأصل إليها. ويسمى كذلك المقيس والمشبه.

٣) **الحكم:** وهو الحكم الشرعى الذى ورد به النص الأصلى.

٤) **العلة:** وهى مابنى عليه الحكم فى الأصل، وتحقق فى الفرع[٢].

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ٤ / ١٥.

(٢) أبو زهرة: أصول الفقه ١٨٠، الآمدى: الإحكام ٣ / ١٧٦، د. مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٩٧ وما بعدها.

وبيان ذلك أن هذا «الاستدلال بمقتضى تعريفه نفسه يفترض وجود حالة نقيس عليها، تمثل بها الحالة الجديدة، وعليه فالحالة النموذج ينبغى أن يسبق ذكرها فى القرآن أو الحديث أو فى الإجماع. وفضلا عن ذلك فإن الطابع المشترك بين الحالتين يجب : إما أن ينشئ علة التشريع، وإما أن ينطوى عليها. والمراد بالعلة السبب الذى من أجله طبق حل الحالة الأولى.

وبناء على ذلك فإذا كان هذا الطابع المشترك قد عين صراحة فى النص، أو اعترف به الإجماع، على أنه سبب وجود الحل الأصلى، فليس هنالك أية صعوبة لكى نجعل هذا الطابع دليلا، بل شرطا ضروريا وكافيا للحكم الصادر من قبل، ومن ثم لا صعوبة أيضا فى تعميم هذا الحكم وتطبيقه أينما توفرت العلة الثانية»[١].

٣) الشروط العلمية للقياس.

القياس ميزان يحقق العدل - هذا مايفترض فيه - ولخطورته وأهميته يقول عنه الشافعى : «والاجتهاد القياس»[٢] وحتى يحقق القياس ثمرته المرجوة لابد من مراعاة الشروط والضوابط التى وضعها علماء الأصول لضمان سلامة القياس، ولم تكن هذه الشروط عفوية، وإنما أسست لها القواعد الكلية والأحكام القرآنية.

- شروط من يقوم بالقياس.

يقول الشافعى - رحمه الله - : «ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها، وهى العلم بأحكام كتاب الله : فرضه، وأدبه، وناسخه، ومنسوخه، وعامه، وخاصه، وإرشاده. ويستدل على مااحتمل التأويل منه بسنن رسول الله، فإذا لم يجد سنة فبإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع فبالقياس.

---

(١) محمد دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ٤٧.

(٢) الرسالة : ٣ / ٤٧٧.

ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالما بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب.

ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول به دون التثبيت.

ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبيتا فيما اعتقد من الصواب.

وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال مايقول وترك مايترك.

ولا يكون بما قال أعنى منه بما خالفه، حتى يعرف فضل مايصير إليه على مايترك إن شاء الله(١).

وهذه الشروط تجمع بين العلمية الموسوعية، والقدرة الفكرية والموضوعية والبعد عن التعصب والمذهبية، ومن الممكن أن تلخص فى الآتى :

– العلم بالأصول من النصوص التى يبنى عليها، والعلل التى قامت عليها أحكام هذه النصوص، والتى بها يمكن إلحاق حكم الفرع بها.

– العلم بقوانين القياس وضوابطه، كألا يقاس على مايثبت أنه لا يتعدى حكمه، ومعرفة أوصاف العلة التى يبنى عليها القياس ويلتحق بها الفرع بالأصل.

– أن يعرف المناهج التى سلكها السلف الصالح، فى تعرف علل الأحكام، والأوصاف التى اعتبروها أسسا لبناء الأحكام عليها، واستخرجوا طائفة من الأحكام الفقهية»(٢).

---

(١) الرسالة : ٣ / ٥١١.

(٢) أبو زهرة : أصول الفقه ٣٠٦.

ولابد أن يضاف إلى هذه الشروط، مايناسب العصر والثقافة والقضايا التى تعيشها الأمة والعالم من حولها، سواء كان هذا فى المجتهد كفرد أو فى البعض ممن يمثلون الاجتهاد الجماعى. وذلك حتى يؤدى القياس دوره فى تحقيق شمولية النظم وعموميتها.

- شروط القياس.

ترتبط هذه الشروط بأركان القياس، فمنها مايعود إلى الأصل، ومنها مايعود إلى حكمه، ومنها ما يعود إلى علته.

أما مايتعلق بالأصل فيشترط فيه مايأتى :

* أن يكون حكم الأصل شرعيا، ثابتا بالكتاب أو السنة، أو الاجماع، غير منسوخ.
* أن يكون الحكم معقول المعنى.
* ألا يكون حكم الأصل مختصا به(١).

وأما الشروط التى تتعلق بالفرع فهى :

* ألا يكون قد ورد نص أو إجماع بحكم فى الفرع يخالف القياس.
* أن يتساوى الفرع مع الأصل فى علة الحكم، دون فارق جوهرى بينهما، حتى لا يكون القياس قياسا مع الفارق.
* أن يكون الحكم فى الفرع مماثلا لحكم الأصل فى عينه، أو جنسه(٢).

وأما الشروط التى تتعلق بالعلة فيقول عنها الآمدى : «وقد اتفق الكل على جواز تعليل حكم الأصل بالأوصاف الظاهرة الجليلة العرية عن الاضطراب وسواء أكان الوصف معقولا، كالرضى والسخط، أم محسا

---

(١) د . ذكريا البرى : مصادر الأحكام الإسلامية ١٠٥.

(٢) المصدر السابق ١٠٨، الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ٣ / ٢٣٠.

كالقتل والسرقة، أم عرفيا كالحسن والقبح، وسواء كان موجوداً فى محل الحكم، أم ملازما له غير موجود فيه»[١].

وفى ظل هذا المنهج العلمى الإسلامى، يقوم القياس كميزان يتعرف به المجتهد على حكم الله الذى يعالج المستجدات النظمية فى حياة المسلمين بعيداً عن الهوى والتخبط، وبذلك أقام علماء الأصول صرحاً علمياً دقيقا فى قوانينه الفكرية التى هى الأجدر أن يقال عنها : إنها تعصم الفكر والعقل من الخطأ فمصدرها الكتاب والسنة والإجماع.

رابعا : مجالات القياس.

القياس مصدر من مصادر النظم، ومن خصائص النظم الشمول والعموم، فالأحكام فيها توازى الحاجيات، وذلك من خلال الأدلة، ولما كانت النصوص متناهية، والحوادث لا تتناهى، فقد جاءت النصوص بحرا ذاخراً بالأحكام الصريحة والأحكام المستنبطة، يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾[٢].

والقياس يؤدى دوره فى بناء النظم الإسلامية فى المجالات التى تتحقق فيها شروطه وضوابطه وتظهر حكمته فيها، وتتحقق من خلاله مقاصد وغايات الشريعة بعيداً عن الإسراف والتلاعب بالأحكام الشرعية التى لا حاجة للقياس فيها.

وقد تناول العلماء مجالات القياس على النحو التالى :

الأحكام التعبدية لا يجرى فيها القياس، لأن أساس القياس معرفة علة الحكم، ولا طريق لمعرفتها فى الأحكام التعبدية، كمناسك الحج، وليس معنى

---

(١) الآمدى : الإحكام ٣ / ١٨٥.

(٢) سورة الكهف : آية ١٠٩.

هذا أن العقل لا يدرك علتها – أنها ليست ذات حكمة شرعية أو ليست لها فائدة فإن لها بلا شك فائدة محققة، ولكن العقل لا يستطيع إدراك العلل الجزئية لها التى يصح أن تبنى عليها أحكامها فى أشباهها»[١].

وإذا وردت فى مجال العقيدة والتعبد نصوص كافية فلا حاجة بنا للقياس»[٢] أما الأحكام المعقولة المعنى فيجرى فيها القياس لأنه يمكن للعقل البشرى أن يدرك علتها.

يقول الإمام الشافعى – رحمه الله تعالى : «كل حكم لله أو لرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو فى غيره من أحكام الله أو رسوله بأنه حكم به لمعنى من المعانى، فنزلت نازلة ليس فيها نص حكم، حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها إذا كانت فى معناها»[٣].

وعلى هذا فالقياس يجرى فى الأحكام الشرعية العملية التى تتصل بالمستجدات التى لم ينزل بشأنها نص.

وأما مايخص الحدود والكفارات فالشافعى وأحمد بن حنبل وأكثر الناس، يقولون بجواز القياس فيها، وحجتهم فى ذلك أن القياس من أدلة الشرع فيجوز أن تثبت به الحدود كما تثبت بالكتاب والسنة. وهذا فى الحدود المقدرة وغير المقدرة [٤].

ومن الفقهاء من يقتصر على العقوبات غير المقدرة (التعزير) فى جواز القياس وهم الحنفية.

---

(١) أبو زهرة : أصول الفقه ١٨٥.

(٢) د . على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ١٤٠.

(٣) الرسالة ٣ / ٥١٢.

(٤) أبو زهرة : أصول الفقه ٢٠٥. الآمدى : الإحكام ٤ / ٥٤.

فالجميع متفقون على القول بجواز القياس فى العقوبات غير المقدرة، والشافعية يقولون بجوازه كذلك فى العقوبات المقدرة والكفارات والتقديرات والرخص أى الأحكام الاستثنائية، إذا استوفى شروطه»[١].

وللخروج من هذا الخلاف نقول : إن علينا أن نراجع موضوعات القياس فى الزمن النبوى وزمن الصحابة - رضوان الله عليهم - مع مراعاة الحوادث الجديدة من خلال منهج القياس الإسلامى، وطالما أن القياس لم ينشئ عبادة ولم يغير أخرى، ولم يتدخل فى المقررات والثوابت، ولم يتدخل فى تغيير عقوبة ثابتة كما أو كيفا، فإن المستجدات وماكان من جنس المنصوص عليه ومشتركا معه فى العلة، فلابد من معالجته فقهيا إما بإجماع أو قياس أو بأى مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية والرجوع إلى التراث الفقهى[٢].

خامساً : علاقة القياس بالنظم.

من السنن التى خلق الله عليها الكون، التفاعل مع حركة الإنسان والتسخير الذى جعله طوع الإنسان، وجعله مجالا للكشف عن الآيات والسنن والقوانين والخيرات والنعم التى أودعها الله فى هذا الكون، وقد شاءت إرادة الله أن يستجيب الكون لمن يناديه وأن يعطى لمن يقلب بين صفحاته وينتقل بين طبقاته، وإلى هذه المعانى بشير القرآن الكريم فى حقائق علمية ثابتة، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾[٤] ويقول تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٥] ويقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ

---

(١) د . زكريا البرى : مصادر الأحكام الإلهية ١١٢.

(٢) ذكر ابن القيم أمثلة كثيرة من الأبواب : الفقهية التى تتفق مع القياس. أعلام الموقعين ٢ / ٣.

(٣) سورة لقمان : آية ٢٠.

(٤، ٥) سورة فصلت : آية ١٠، ٣.

وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾[١] ﴿ ويخلقُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾[٢].

ومن هنا كان التجدد وكانت الاكتشافات والمعارف الإنسانية المكتسبة، ومعها انتقلت حياة الإنسان من البساطة إلى التعقيد والتركيب فأصبحت الحاجة ماسة إلى التنظيم الصحيح الحق، الذى يضع الشئ فى مكانه. وقد أشارت النصوص القرآنية إلى هذا التطور الكونى وإلى مايستجد من أمور تصل إلى حد الزينة والترفيه والتحكم فى السنن كما يظن أهل الدنيا أنهم أصبحوا قادرين عليها.

ومن ثم حمل القرآن الكريم الكثير والكثير من الأحكام التى تستنبط من النصوص وبها يبقى تنظيم الكون إسلاميا ربانيا، وتبقى النظم الإسلامية شاملة عامة كاملة.

وقد أشار إلى ذلك علماء الإسلام فى عمق وموضوعية.

يقول الشاطبى وهو يبين هذه السنة الربانية : «فلأن الوقائع فى الوجود لا تنحصر فلا يصح دخولها تحت الأدلة المنحصرة، ولذلك احتيج إلى فتح باب الاجتهاد من القياس وغيره، فلابد من حدوث وقائع لا تكون منصوصا على حكمها، ولا يوجد للأولين فيها اجتهاد، وعند ذلك فإما أن يترك الناس فيها مع أهوائهم أو ينظر فيها بغير اجتهاد شرعى، وهو أيضا اتباع للهوى، وذلك كله فساد فلا يكون بد من التوقف لا إلى غاية، وهو معنى تعطيل التكليف لزوما، وهو مؤد إلى تكليف مالا يطاق فإذاً لابد من الاجتهاد فى كل زمان، لأن الوقائع المفروضة لا تختص بزمان دون زمان»[٣].

---

(١) سورة يونس : آية ٢٤.

(٢) سورة النحل : اية ٨.

(٣) الشاطبى : الموافقات ٤ / ١٠٤.

ولما كان الكون متجدداً بصورة مستمرة وفقا لعلم الذى خلقه، وكان القرآن الكريم كلام الخالق سبحانه جاء بالأحكام الى تنظم هذا الكون فى كل مرحلة من مراحله.

ومن عظيم التربية الإلهية أن يترك للعقل المسلم مساحة يتحرك فيها فيأخذ من القرآن الأشباه والنظائر معلما له يجد فى طياتها من الأحكام مايلزمه، حتى يبقى المسلم فى حالة فكرية مستمرة تتميز بعمق الإيمان وعمق التفكير وعمق الصلة بالله رب العالمين.

وتبقى العلاقة مستمرة وقائمة بين القياس والنظم الإسلامية فهو مفتاحها وميزانها، وهو كنزها، الذى يمدها بقوتها وشموليتها وعمومها واستمراريتها، إذ كلما جد جديد أخذ العلماء بكليات القرآن الكريم التى تجمع تحتها جزئيات كثيرة، فاستخرجوا منها الحكم.

وفى هذا رد إلى الكتاب والسنة وإعمال لهما على نحو أرحب وأوسع، «ونرى فيه – إلى جوار ذلك – جانبا من جوانب الإعجاز فى شرع الله الخالد، فإن النصوص التى تبدو جزئية – تغدو أصولا وأحكاما كلية تندرج تحتها جزئيات وأحكام أخرى تتحقق فيها علة النص أو حكمته، ويتحقق بذلك سر من أسرار خلود الشريعة وقدرتها على مواجهة الحاجات المتجددة التى لم يرد فيها نص بما سبق أن ورد فيه نص، لتظل الحياة دائما خاضعة لحكم الله .. مصطبغة بصبغة الله»[1] ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾[2].

---

(١) د . على جريشة : المشروعية الإسلامية العليا ١٣٩.

(٢) سورة البقرة : آية ١٣٨.

والقياس عمل عقلى وليس مصدراً عقليا، فدور العقل فيه هو التعامل مع النصوص الشرعية التى هى الأصول والكليات لاستخراج الحكم وكشفه والتعرف عليه بعيدا عن إنشائه أو الاستقلال بتشريعه.

وفى ظل هذه الحقائق، ومع مراعاة تلك الضوابط، تبقى العلاقة قائمة بين القياس والنظم، عطاء فكريا، وتجديدا منهجيا، وتواصلا حضاريا، وعبودية لله، تتجلى فى نظم المسلمين ومصادرهم التى جاءت لتعالج «قضية التوحيد والوحدانية وتزيل الثنائية بين العلم والدين، بين الوحى والعقل، فلا عقل سليم معطاء بلا وحى موجه وهاد، ولا وحى مؤثر وبان بلا عقل متعلق ومجتهد وممتد بأحكام الوحى، ذلك أن العقل مناط التكليف وهو أداة الاجتهاد والمجاهدة»[1].

وهكذا فالعلاقة فطرية ربانية إنسانية تشمل التجديد والتواصل والشمول والتكامل.

وأختم الحديث عن مصادر النظم الإسلامية وعن القياس بقول ابن تيمية - رحمه الله - : «لا يجوز قط أن يختلف الكتاب والميزان، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح، ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية، وليس فى الشريعة شئ على خلاف القياس الصحيح بل على خلاف القياس الفاسد»[2].

---

(١) انظر عمر عبيد حسنة : تقديم كتاب الاجتهاد الجماعى ٣٤.

(٢) الرد على المنطقيين ٣٧٣.

وقوله : «ماعرفت حديثا صحيحا إلا ويمكن تخريجه على الأصول الثابتة، وقد تدبرت ما أمكننى من أدلة الشرع فما رأيت قياسا صحيحا يخالف حديثا صحيحا، كما أن المعقول الصحيح لا يخالف المنقول الصحيح، بل متى رأيت قياسا يخالف أثرا فلابد من ضعف أحدهما، لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يخفى كثير منه على أفاضل العلماء فضلا عمن هو دونهم»(١).

وبعد فقد اكتمل بناء مصادر النظم الإسلامية، وهو بناء فكرى محكم يحمل من المقومات ما يؤكد أصالته وحجيته، ومن التنظيمات العلمية مايؤكد معاصرته، ومن المجالات ما يجعله يتسع للماضى والحاضر والمستقبل، ومن الآثار الطيبة ما يجعله للنظم شجرة أصلها ثابت، تحمل من الثمار أطيبها، ومن الخصائص أجمعها وأحسنها.

---

(١) ابن القيم : أعلام الموقعين ٢ / ٤٧.

المبحث الثالث
مصادر النظم الوضعية

عندما تكون النظم بمعزل عن الوحى فإن المجتمع يواجه بمشكلة حضارية تدور حول السؤال عن التشريع أو الدستور.

والسبب فى ذلك واضح[١]. فالمشكلة متشعبة الأطراف متعددة الجوانب، تتصل بالمصادر التى صاحبت البشرية فى طورها الأول، وبالمصادر التى جاءت بعد ذلك، وتتصل كذلك بالعلاقة بينهما، والتصورات التى تتصل بالأسس التى يقوم عليها التشريع. والعناصر المكونة له. وكلها قضايا قد احتدم حولها النقاش ولا يزال.

أولا: عرض المشكلة.

من الحقائق التاريخية الثابتة أن أوربا عاشت مرحلة زمنية تعرف بالعصور الوسطى أو المظلمة، وعندما جاء عصر النهضة وبزغت فيه شمس العلوم التجريبية ذات الصلة بالحضارة الإسلامية، «ونظراً لنجاح المنهج العلمى فى كشف الظواهر الطبيعية، فقد افترض أن هذا المنهج سيحقق نفس النجاح فى كشف حقائق الظواهر الاجتماعية ... بمعنى أن العلوم الاجتماعية، ستصل يوما إلى ما وصلت إليه العلوم الطبيعية من دقة، وقد ظهر هذا الاتجاه تدريجيا، فلما جاء كونت أعلن علمية علم الاجتماع، ووضعه على رأس القائمة عند تصنيفه للعلوم، واعتبره علما طبيعيا»[٢].

وفى القرن العشرين وصفوا دراسة القانون الإنسانى بأنها (الهندسة الاجتماعية) أى أن خبراء القانون سيتمكنون من وضع قوانين ثابتة للإنسان

---

(١) راجع المبحث الثالث تحت عنوان : قصور العقل البشرى فى التنظيم .

(٢) منصور المطيرى : الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ٥٥ وما بعدها .

كالتى يضعها المهندس لآلاته[١]، كما ادعت كل فلسفات القانون الاجتماعى أن القانون الاجتماعى - مثل القانون الفطرى - موجود فى المجتمع بصورة ملازمة، وأنه ليس علينا إلا اكتشافها»[٢].

ولكن هذا التوجه لم يحقق شيئا، والسبب فى ذلك يكمن فى أنهم كانوا يبحثون عن شئ حقيقى فى مكان لا علاقة له بذلك الشيئ. فالحقيقة هى أن قانون الحياة البشرية - أيضا - أبدى مثل قوانين الطبيعة والأحياء، ولكن المكان المقرر لمعرفة هذا القانون هو الوحى الإلهى وليس العلوم الإنسانية»[٣] وقد كشفت الاختلافات بين خبراء التشريع فى القضايا المتصلة به عن عمق هذه المشكلة وأنها ليست مجالا تصل إليه العقول البشرية، فالقانون مازال يبحث عن نفسه، وكل الجهود لم توفق فى الحصول على صورة متفق عليها من القانون. وقد انقسم خبراء التشريع إلى مدارس فكرية كثيرة - والسبب فى ذلك، عدم توصلهم إلى أساس صحيح يمكن إقامة صرح التشريع عليه، إنهم يجدون أن القيم التى يحاولون جمعها فى هيكل الدستور يستحيل وضعها فى ميزان واحد.

وقد دار الخلاف حول القوة التى تسند الدستور حتى يكون القانون نافذ المفعول، يقول «جون آستين» : «القانون هو الحكم الذى أصدره رجل رفيع المنزلة سياسيا لمن هو أدنى منه فى المرتبة السياسية [٤]» والمحدثون يقولون : رضا الشعب العام دعامة أساسية فى التشريع، وهناك مسألة أخرى اختلف حولها علماء القانون : هل القانون قابل للتغير أولا ؟ البعض يقول : إنه لابد من دستور موحد صالح لكل العصور. وهذه تطرية علماء

---

(١) د . محمد رأفت سعيد : المدخل لدراسة النظم الإسلامية ٢٣.

(٢) وحيد الدين خان : وجوب تطبيق الشريعة ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) وحيد الدين خان : الإسلام يتحد[illegible] ٢١٥.

القرنين السابع والثامن عشر حول القانون، والبعض الآخر يرى أنه، ليس هناك دستور أبدى، وأى تشريع يصلح لعصر ماليس - بالضرورة - صالحا لعصر آخر، وهذا تبعا للنسبية التى قضت على استقرار القانون وقلبت جميع القيم الإنسانية رأساً على عقب.

ويتصل بذلك عدم القدرة على تحديد مفهوم القيم التى يقوم عليها الدستور وكذلك المصالح التى لابد للدستور المثالى أن يحافظ عليها.

وقد نقل البروفيسور «باتون» رأيا لبعض علماء التشريع يقول : إن جميع محاولات الدراسة الفلسفية للبحث عن الأهداف فى فلسفة التشريع قد انتهت إلى غير مانتيجة(١).

ومن الأسئلة الكبيرة التى لم يستطع خبراء التشريع الوصول إلى اتفاق بشأنها. عناصر التشريع وهل هناك عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى دستور عند تعديله أو تجديده أو تغييره؟ الجميع يسلم نظريا، بأنه لابد من عنصر فى التشريع يتمتع بالدوام والأبدية، مع عناصر أخرى تتصف بالمرونة، فيمكن الاستغناء عنها عند الضرورة. وعلى هذا! فالدستور يفتقر إلى عنصرى «الأبدى والإضافى» إذ بدون أحدهما تشقى البشرية.

وقد عبر عن ذلك أحد قضاة الولايات المتحدة الأمريكية - كاردوزو - على النحو التالى : «ومن أهم مايحتاج إليه التشريع اليوم : أن نصوغ له فلسفة للتوفيق بين الرغبات المتحاربة حول ثبات عنصر، وتغير عنصر آخر»(٢) ورغم كل ذلك فقد بقيت المشكلة بدون حل، وهناك مجالات أخرى فى الدستور لم يستطع الخبراء معالجتها ولا الإشارة إليها لأنها تتصل بالحقيقة الجوهرية للإنسان، والدستور البشرى لا يستطيع التحكم فيها أو معرفة

(١، ٢) وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ٢١٧ - ٢٢٢.

أسرارها حتى يضع لها قانونا يراقبها أو يدفعها إلى الصدق وليس هذا إلا للعقيدة الصحيحة الصادقة.

ويتضح ذلك من خلال العلاقة بين القانون والأخلاق، وكذلك تحديد مفهوم القيم التى تتصل بالجرائم وغيرها، فمثلا الجريمة فى الدستور الذى وضعه الإنسان «كل عمل يضر بالأمن العام أو نظام الحكم القائم» وهذا هو الأساس التشريعى، حيث لا يوجد دليل يقوم عليه التشريع، وقد ترتب على ذلك إقرار أن جريمة الزنا ليست بجريمة إلا إذا تمت جبراً أو إكراها لأحد الطرفين، وكذلك الاستيلاء على أموال الآخرين إذا تم برضاء المالك لهذا المال، وكذلك الخمر لم يستطع التشريع الإنسانى أن يحرمها، لأنه يؤمن بأن الأكل والشرب حق من الحقوق الطبيعية للإنسان وهو حر فى اقتناء كل مايريد أن يأكله ويشربه، ومن ثم لا يتدخل القانون فى شرب الخمر والسكر الذى يتبعه إلا إذا اعتدى شارب الخمر على أحد المواطنين»[١] هذه بعض الحقائق التى تتصل بمصادر الفكر البشرى، وهى توضح حجم المشكلة التى يواجها الإنسان عندما يشرع لنفسه، عرضناها لنقف من خلالها على ما تتمتع به مصادر النظم الإسلامية من مقومات وخصائص تجيب على كل الأسئلة التى واجهت خبراء القانون ولم يجدوا لها جوابا فى عقلهم البشرى ولا علومهم الطبيعية، وكذلك لنقف على حقيقة هذه المصادر البشرية مكونين عنها تصوراً كاملاً حقيقياً بعيداً عن التهوين والتهويل. وهذه الحالة الفكرية المضطربة صاحبت الفكر البشرى والمصادر الوضعية منذ إعراضه عن طريق الوحى وإلى الآن. وتبعا لذلك فقد تعددت المصادر وتنوعت تبعا لميول الإنسان ورغباته، ومكانته الاجتماعية ضعفا وقوة.

---

(١) المصدر السابق ٢٢٤ وما بعدها.

ثانيا: الإنسان ومصادر النظم.

عندما نتأمل رحلة مصادر النظم الوضعية والمراحل التى مرت بها هذه المصادر، فإننا نجد أن الإنسان تعتريه حالات من الاضطراب والقلق، يشير إلى ذلك عدم الثبات والاستقرار على مبادئ وقيم ثابتة فضلا عن دستور يشمل الجنس البشرى كافة، إذ ليس للمخلوق طاقة على ذلك. فقد بقى الإنسان محكوما بقوانين ترجع إلى مصادر لا يعرفها ولا يعرف دافعا يربطه بها، وهناك فرق بين الدافع الحقيقى الفطرى ودافع العصبية أو الجماعة أو القبيلة. وقد بحث علماء الاجتماع علاقة الإنسان بمصادر النظم، ودرسوا وحللوا حياة المجتمعات، ولم يكن ذلك عن دليل وإنما كان استنتاجاً يتصل بمجتمعات لم يكن لها عند البحث أثر، فقد انتهت منذ آلاف السنين، وأقنع الباحثون أنفسهم بهمجية الإنسان ووحشيته فأخذوا يبحثون له عن مصدر لنظمه التى كانت تنظم حياته، وعزلوا الدين من حياته، وجعلوه «لا يتعدى كونه ظاهرة اجتماعية، نشأت من المعيشة فى جماعة، ويعادل فى أهميته الظواهر الاجتماعية الأخرى التى يعرفها المجتمع»[(١)].

(أ) المصادر القديمة.

يرى الباحثون فى علم الاجتماع أن الإنسان بدأ حياته بدون دستور مدون يمثل المصادر التى تحكم نظمه، وبمرور الأزمنة بدأ الإنسان ينظم حياته ويقيم أحكامه من عدة مصادر.

١) العادات والتقاليد الشعبية.

من العادات والتقاليد التى يقوم بها الإنسان ويتعارف عليها الناس فى المجتمع تكونت مصادر النظم الوضعية.

يقول ديفيز : «إن النظم مجموعات من العادات الشعبية والأعراف والقوانين تتداخل فيما بينها حول وظيفة أو أكثر. مكونة أجزاء من البناء الاجتماعى»[(٢)].

---

(١) منصور المطيرى : الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ٨٣.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ٢٤٥.

أما سمنر فيقول : «وتنشأ النظم عادة عن العادات الشعبية وتنمو وتتطور فى صورة أعراف وتنضج عندما تصبح القواعد والأفعال أكثر نوعية وتخصصا. وعندئذ يترسخ البناء ويتوطد ويتجه نحو الاكتمال»[١] وعلى هذا فالعادات الشعبية والأعراف هى أصل مصادر النظم الوضعية، صنعها الإنسان شيئا فشيئا، وأخذت تنمو وتتطور مع الإنسان من جيل إلى جيل حتى توطت واكتملت وتنوعت.

٢) عقل الجماعة.

ترجع العادات الشعبية والأعراف إلى مايقره المجتمع ويرتضيه أفراده «فالنظام الاجتماعى يشير إلى القواعد والأوضاع والقوالب التى تشكل دستور المجتمع والذى ينتظم فى مجموعة من القيم والأحكام التى ارتضاها عقل الجماعة والتى تنظم حياة الأفراد»[٢].

وتبعا لهذا التصور فمصدر النظم الوضعية عقل الجماعة، فهو من صنع الأفراد ويخضع لتصوراتهم وأهوائهم، وهذا - عند علماء الاجتماع - ما يضفى على النظم مشروعيتها، «ويقصد بالنظم المشروعة تلك النظم التى أقرها المجتمع ووافق عليها كأساس للحياة الاجتماعية»[٣].

يقول إدوارد كبيرا : «إن القوانين فى الأزمنة القديمة لم يكن قد ابتكرها أو تخيلها شخص واحد ثم فرضت على الناس فرضا، فالحقيقة أنها لايمكن أن يصفها شخص واحد حتى يومنا هذا»[٤].

---

(١) المصدر السابق ٢٤٤.

(٢) د. محمد عبدالسميع عثمان : أسس علم الاجتماع ١٦٧.

(٣) المصدر السابق ١٨٨.

(٤) إدوارد كبيرا : كتبوا على الطين، ترجمة د. محمود حسين الأمين، مراجعة على خليل مكتبة الجودى ببغداد ١٩٦٢م ٩٣.

ومن أمثلة الت[illegible]ن هذه المصادر البشرية مايعرف بشريعة أو مدونة حمورابى (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق . م) وهذه المدونة - أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى، الملك العظيم - نظمت فى دقة وإحكام المدن فى بابل»[١].

٣) الطبيعة.

تمثل الطبيعة فى بعض الحضارات القديمة مصدراً للنظم الوضعية، ويأتى اليونانيون فى مقدمة هؤلاء.

يقول ول ديورانت : «اليونان كانوا يحبون العقل بقدر مايحبون الشكل، ولذلك كانوا جريئين فى سعيهم إلى تفسير الطبيعة على أسس مستمدة من الطبيعة نفسها، ولقد كان تحرير العلم من قيود الدين، وتطور البحث العلمى تطورا مستقلا عن كل ماعداه، كان هذان التحرر والتطور مظهرين من مغامرات العقلية اليونانية الجامحة»[٢].

وقد ترك هذا المصدر أثره فى الفكر اليونانى الإغريقى، وكانت أهم مظاهره :

- الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس.
- قلة الدين والخشوع.
- شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها.
- النزعة الوطنية[٣].

---

(١) و . ج . دى بورج : تراث العالم القديم ترجمة زكى سوس، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م . ع.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، حياة اليونان مكتبة الأسرة م ٤ ح ٨ ص٢٠٩.

(٣) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٩٩٤م ١٤٢.

وقد أخذ الرومان عن اليونان هذا المنهج وتشبثوا بهذا المصدر الطبيعى، الذى يجعل من الطبيعة وسننها مصدراً للنظم وتوسعوا فيه، وأودعوا هذا الفكر قوانينهم وأحكامهم ورتبوا على ذلك نظمهم، وخير مثال على ذلك ماجاء فى مدونة القانون الرومانى، التى وضعتها لجنة العشرة موظفين التشريعية فى عام (٤٥١ - ٤٥٠ ق . م)، أول قانون مكتوب فى روما. وتمثل هذه المدونة منتخبات عن العادة المعترف بها فسرتها وصاغتها تقاليد ثابتة لطبقة علماء من محامين محترفين»[١].

يقول كرين برنتن : «كان القانون الرومانى ثمرة أجيال من التفكير المنطقى الصارم. وأهم من ذلك أن رجال القانون لم تغب عنهم قط فكرة المثل الأعلى، وفكرة القانون «كما ينبغى أن يكون» وأعنى بإيجاز فكرة العدالة، ولكنهم لم يستطيعوا فى العالم الرومانى المعقد الذى جاء فى عهد متأخر أن يحتفظوا بالعقيدة الساذجة القديمة بأن الآلهة قد أوحوا مباشرة بقانون العدالة. ولما كانوا قوما عمليين، معقولين، تعودوا حمل المسئولية، فقد كان لابد لهم من الإيمان بالعدالة، ولم يكن بوسعهم أن ينظروا إلى العدالة كفكرة نبيلة، ولكنها فكرة مجردة غير واقعية، أو أن المرء يستطيع أن ينصرف عنها، أو أن الحق هو القوة. إن مافعلوه هو أنهم وضعوا الطبيعة مكان الآلهة، اخترعوا فكرة «القانون الطبيعى»[٢].

وقد ترك هذا المصدر بصمات واضحة على النظم الرومانية والنفسية الرومانية، يعرب عنها «إيمان بالمحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشك فى دين، وضعف فى يقين، واضطراب فى العقيدة، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه، واعتزاز بالقومية وتعصب لها،

---

(١) و . ج . دى بورج : تراث العالم القديم ٢٥٥ وما بعدها.

(٢) كرين برنتن : أفكار ورجال قصة الفكر الغربى، ترجمة محمود محمود مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م ١٦٨.

وحب مفرط للوطن، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراما زائداً لها يبلغ العبادة والتقديس»(١).

(ب) المصادر الحديثة.

بعيداً عن الوحى الإلهى والنظم الإسلامية لم يقف الإنسان عند مصدر ثابت يستقى منه نظمه، فأخذ يبدل ويغير مصادره تبعا لما يراه محققا لمصالحه الشخصية وشطحاته الفكرية، مرة بإحياء القديم تحت مسميات جديدة، وأخرى بمخالفته، وثالثة بالجمع بينهما، فتعددت المذاهب وتنوعت الآراء، وتشعبت السبل وأصبح الإنسان معلقا فى الهواء، لا يعرف الاستقرار ولا يتمتع بالأمن، يدفعه الخوف ويحركه الطمع ويحاصره اليأس ويقوده الاضطراب والضنك، ومن يتتبع المصادر الحديثة للنظم الوضعية يرى ذلك رأى العين.

١) العقلانية.

تمثل العقلانية فى الفكر المادى تياراً مواجها للكنيسة، وذلك عندما عجزت عن التفسير الصحيح للحقائق الإنسانية والكونية، فقد لعبت الأيدى بالمصادر التى تقوم عليها نظم الكنيسة، وقد أدى هذا إلى جعل العقل هو مصدر التنظيم لحياة الإنسان، «إن العقلى يميل إلى القول بأن المعقول هو الطبيعى، وأنه «ليس هناك ماهو فوق الطبيعى»، وليس فى نظامه مكان للإله الشخصى، وإذن فالمذهب العقلى يميل إلى أن يبعد الله وماليس بالطبيعى من الكون. ولا يبقى المذهب إلا على الطبيعى، الذى يعتقد معتنقوه أن من الممكن فهمه فى النهاية»(٢).

---

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم ١٤٦.

(٢) كرين برنتن : أفكار ورجال ٤١٩.

يقول برنتون : «فالمذهب العقلى يتجه نحو إزالة الله وقانون الطبيعة من الكون ... فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون»[١].

وقد أدى هذا إلى ظهور الفلسفة العقلية التى تقول : «إن العقل البشرى هو الذى ينبغى أن يكون صاحب القرار وليس الله، ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية، وبمقدار ماكان العقل مكبوتا ومحجوراً عليه. انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذى كان ممنوحا من حقه، فهو يريد أن يؤكد هذا الحق. ويقتحمه بروح الشك، أو روح المحو لكل ماكان موجوداً من قبل ولم يشترك فيه، فهو يريد أن ينشئه من جديد سواء وافق ماكان موجودا من قبل أو خالفه، والأجدر به أن يخالفه لكى يثبت وجوده.

بهذه الروح بدأ الكتاب والمفكرون الأحرار يهاجمون فكرة الألوهية وينفون الرسالات والوحى، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار، ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية فى غيبة العقل، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين، وربما كان خير ممثل لهذا الاتجاه هو «فولتير» الكاتب الفرنسى الملحد المشهور»[٢].

وقد ترك هذا المصدر أثره فى صياغة الفكر والنظم الوضعية فى المجتمعات التى ترعى هذا الفكر وتأخذ به.

وهذا النهج قديم حديث مادى علمانى.

---

(١) برنتون : منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبدالرحمن مراد ١٠٣ نقلا عن محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق ط سادسة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ٥١٧.

(٢) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ٤٥٩.

٢) الطبيعة.

تشعبت الطرق بالإنسان فى غيبة الوحى الإلهى، وأخذ ينتقل من مصدر إلى مصدر يستمد منه معارفه ويأخذ منه أفكاره وينظم من خلاله مجالات حياته، فكانت الطبيعة هى المصدر الذى أسلم له هذا الإنسان قياده.

يقول محمد قطب : «ودار الزمن دورة أخرى فانتقلت أوربا – فيما يقال – من سيادة العقل إلى سيادة الطبيعة، حين كشف العلم مزيداً من أسرار الكون، واقتنع المفكرون أن الأصل الذى ينبغى الرجوع إليه هو الطبيعة لأنها هى التى تنقش فى العقل مايتولد فيه من أفكار، فليس هو الوحى الربانى، ولا هو العقل، الذى لا ينشئ – ولا ينبغى له أن ينشئ – شيئا من عنده، إنما هو الطبيعة : هو عالم الحس .. هو الحقيقة الموضوعية. ولقد يفهم من هذا لأول وهلة أن العقلانية التى تتبعنا أطوارها فى عصر النهضة وما بعدها قد انتهت وحل محلها طور جديد لا يمت لها بصلة .. ولكن هذا غير واقع.

لقد تغير الإله المعبود عندهم بالفعل فلم يعد هوالعقل، وإنما صار هو الطبيعة التى قال عنها دارون : «الطبيعة تخلق كل شئ ولا حد لقدرتها على الخلق»[١].

وقد وجدت هذه النزعة تدعيما من فلاسفة الغرب الذين قالوا بالمذاهب المادية والوضعية والعلمانية.

وكل المذاهب المادية ترى أن المادة هى الوجود الأصلى للأشياء، وأبرز قواعد النظرية المادية :

---

(١) المصدر السابق ٥٢٤ وما بعدها.

– لا وجود غير المادة وأن قوام العالم عنصر واحد هو المادة.

– سيطرة القوانين واضطرابها واستمرارها.

– إنكار الغائية.

– إنكار الغيب «عالم ما وراء الطبيعة» (الميتافيزيقا)(١).

يقول المستشرق «أربرى» عن العلمانية : «إن المادية العلمية والإنسانية، والمذهب الطبيعى، والموضوعية، كلها أشكال للادينية، واللادينية صفة مميزة لأوربا وأمريكا».

وفى المعجم الدولى الثالث الجديد «هى نظام اجتماعى فى الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة، والتضامن الاجتماعى دون النظر إلى الدين»(٢).

وقد أنتجت هذه المصادر الوضعية البشرية المادية كثيرا من المذاهب والنظم تتعدد مسمياتها وتختلف براجها ولكنها تتحد فى مقوماتها وغاياتها. وهذه النظم وتلك المذاهب قد يطلق عليها المادية أو العلمية أو العقلية أو العلمانية أو الوجودية أو الديمقراطية أو الشيوعية أو الماركسية أو التنوير أو الاشتراكية إلى غير ذلك من المسميات.

بين القديم والحديث.

المصادر التى تبناها الإنسان قديما وحديثا تشترك فى الكثير من الخصائص وتلتقى جميعاً عند نقطة واحدة ولا تختلف إلا فى المناقشة والعرض وإعادة الصياغة والتسمية وفى الكثير قد تتفق، وأحيانا تكون هذه المصادر مفهومة وقد تكون غير ذلك.

---

(١) أنور الجندى : معلمة الإسلام ١ / ٣٨٥.

(٢) سفر الحوالى : العلمانية، مطابع [illegible] أم القرى ط أولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ٢٣.

وبالتأمل نراها تشترك فى البشرية والوضعية، وكذلك المادية وكذلك النزعة العنصرية. فكل مذهب منها كان يقابل بآخر يعارضه وبثالث ينقضه، وخصوصا فى المجالات الإنسانية، كما أنها متناقضة فى داخلها ومتغيرة فى الشئ الواحد، وذلك لأنها ترجع فى اعتبارها إلى عقل الجماعة، ورأى الجماعة يختلف من مجتمع إلى مجتمع، والمجتمع الواحد قد يختلف فيه عقل جيل عن جيل. فلكل تقديره وفكره. وبموضوعية تامة تقف هذه المصادر جميعاً عند مصدر واحد، كما أنها فى الحديث هى نفسها فى القديم.

فمصادر اليونان ذات صلة بالحضارات القديمة، وأثر السومريين واضح فى الأساطير الإغريقية اليونانية وقصصهم الخرافية، وفى تأملات فلاسفتهم القدماء ونظرتهم إلى الكون[1].

وما حضارة الغرب وأمريكا فى العصر الحديث إلا نسخة مكررة من الفكر اليونانى القديم.

يقول ول ديورانت عن ذلك : «ولم يشهد العالم قبل اليونان رجالا يفحصون عن الطبيعة بمثل دقتهم وبمثل ولعهم بها وحبهم إياها ... وقد دفعهم تشوفهم وتطلعهم لمعرفة كل حقيقة وكل نظرية إلى أن يجعلوا الفلسفة مغامرة ممتازة من مغامرات العقل الأوربى، وهم لا يكتفون بهذا بل نراهم لا يكادون يتركون فرضا من الفروض أونظاما من الأنظمة إلا فكروا فيه ولا يكادون يتركون لغيرهم شيئا يقولونه عن مشاكل الحياة الكبرى، فالواقعية والقول بأن الأشياء موجودة بالإسم دون الحقيقة، والمثالية والمادية والتوحيد ووحدة الوجود، والشرك، والحركة النسائية، والشيوعية، والبحث التحليلى الكانتى واليأس الشوبنهورى، والعودة إلى الحياة البدائية التى يقول بها روسو، ومذهب فرويد نيتشه فى التحلل من القيود الأخلاقية

---

(١) انظر إدوار كييرا : كتبوا على الطين ٢٥١.

ومذهب اسبنسر التركيبى، ومذهب فى التحليل النفسى. وبالجملة كل أحلام الفلسفة وحكمتها نشهدها هنا فى مهدها وبداية عهدها[١].

ثم يزيد الأمر شرحا ووضوحا فيقول : «فديمقراطياتنا ودكتاتورياتنا على السواء ترجعان إلى المثل اليونانية ... ونظرية تحسين النسل، وفكرة ضبط الشهوة الجنسية، والسيطرة على الغرائز والعواطف، وعبادة الصحة والحياة الطبيعية، ومذهب إشباع الحواس أكمل إشباع، كل هذه وجدت صيغها التاريخية فى بلاد اليونان»[٢].

ويقول أبو الحسن الندوى : «فأصبحت الحياة فى أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة فى يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين، وعادت الطبيعة الأوربية (التى كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة.

ولا غرابة فى ذلك، فالأوربيون إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان والسلائل الأوربية الأخرى. ترى دينا خلواً من الروحانية كما لاحظ الدكتور «هاس» فى ذكر الحضارة اليونانية.

وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعماله، وكثرة اللهو والطرب فى الحياة، كما ذكر «ليك» عن الديانة اليونانية ... وترى كذلك تهافتا على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين، كما وصف به سقراط الرجل الجمهورى اليونانى فى عصره[٣].

وفى ظل هذه المصادر البشرية أعيد كتابة القوانين التى تنظم الحياة فى الدول الغربية وأمريكا، وخرجت إلى المجتمعات واقعا عمليا يرسم صورة

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة م٤ جـ ٨ ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ٢٠٦ وما بعدها.

(٣) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم ١٦١.

هذه المصادر المتعددة، ويطبق أبحاث العلماء فى مجال النفس والاجتماع الإنسانى، فكانت الإباحية والنفعية والعنصرية والرقة ومذهب العقد الاجتماعى.

وقد تناول القرآن الكريم المصادر التى يتخذها البشر لتنظيم حياتهم بمعزل عن الوحى الإلهى فى كثير من الآيات. وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[١] وقوله : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾[٣] وقوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾[٤] وقوله : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾[٥] وقوله : ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾[٦] وقوله : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾[٧] وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾[٨] والآيات تصور مصادر النظم المادية البشرية وتجعلها متمثلة فى التقاليد والأعراف الشعبية حتى أصبحت عادة تنتقل من جيل إلى جيل، أقنع بها الإنسان نفسه فهو لايقبل الهدى لأنها أصبحت تكفيه وهى حسبه، وتشير إلى الاستبداد السياسى ودوره فى مصادر النظم، وبينت دور

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٣.

(٢) سورة المائدة: آية ١٠٤.

(٣) سورة إبراهيم: آية ١٣.

(٤) سورة النجم: آية ٢٣.

(٥) سورة يوسف: آية ٤٠.

(٦) سورة الأعراف: آية ٣٠.

(٧) سورة الذاريات: آية ٥٣.

(٨) سورة الروم: آية ٧.

العقل الجماعى فى صياغة مصادر النظم حتى أصبح لديهم ملة وأنهم فى سبيلها يواجهون غيرهم من الأنبياء والرسل الذين يدعونهم إلى دين الله. كما بينت الآيات أن الهوى مصدر من مصادر النظم الوضعية يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات، كما أن الشيطان مصدر وهو كما جاء اللغة يشير فى بعض المعانى إلى التفكير الضال غير المستقيم، والهوى يشير إلى العقل والرأى والفكر، كما بينت فتنة الناس بالدنيا - الطبيعة - حتى أضحت لهم مصدراً ومرجعا، وهم فى كل ذلك يسيرون وراء الظن تدفعهم شهوات النفس ولذات الدنيا، وتلك خصائص يشترك فيها السابقون واللاحقون من المعرضين عن الوحى الإلهى الصحيح كمصدر وحيد للنظم الإنسانية، ولما كانت قوانين الخلق للناس واحدة وقوانين النفس فيهم واحدة، وكانت الدواعى والمؤثرات متشابهة متداخلة كان هذا المرض مرضا يصيب الحضارات التى تسلك هذا الطريق، ينتقل من حضارة إلى أخرى ومن جيل إلى جيل كأنها وصية يوصى بها السابق للاحق وهكذا.

وأختتم الحديث عن مصادر النظم بما قاله الفقيه القانونى الفرنسى «زيس»: «إننى أشعر حينما أقرأ فى كتب الفقه الإسلامى أنى قد نسيت كل ماأعرفه عن القانون الفرنسى أو عن القانون الرومانى، وأصبحت أعتقد أن الصلة منقطعة بين الشريعة الإسلامية وبين هذين القانونين.. فبينما يعتمد قانوننا على العقل البشرى تقوم الشريعة الإسلامية على الوحى الإلهى.. فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين يصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف»[١].

---

(١) د. صوفى أبو طالب: مبادئ تاريخ القانون ص ٦٠٣.

الفصل الرابع

خصائص النظم

المبحث الأول : خصائص النظم الإسلامية

المبحث الثانى : خصائص النظم الوضـعـية

الفصل الرابع

خصائص النظم

لكل نظام من الأنظمة خصائصه وسماته التى تحدد هيكله وتشرح أهدافه وغايته، وهذه الخصائص تختلف من نظام لآخر، تبعا لاعتبارات عديدة، نقف عليها من خلال حديثنا عن هذه الخصائص التى تتصل بالنظم الإسلامية، والنظم الوضعية. «وبدهى أن هذا التقسيم راجع إلى مايتصف به النوعان من صفات، وما يختص كل منهما به من خصائص، وهى صفات وخصائص مرتبطة أشد الارتباط بالعوامل الآتية :

١) التصورات النابعة منها.

٢) الغايات المستهدفة من ورائها.

٣) الطرق المحددة للوسائل والمناهج التى يجب الالتزام بها[١].

وبالنظم الإسلامية نبدأ الحديث، فهى التى صاحبت الإنسان منذ وجوده وتعددت وتنوعت تبعاً لزمانه ومكانه حتى ختمت بالرسالة المهيمنة الخاتمة رسالة سيدنا محمد - ﷺ - والتى جمعت خصائص الرسالات السابقة عليها وتفردت بالهيمنة يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٢].

---

(١) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الاسلام وثقافته ص٢٥.

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨.

المبحث الأول

خصائص النظم الإسلامية

خاصية الشئ : مايختص به دون غيره، وخصائص جمع خصيصة وهى : الصفة التى تميز الشئ وتحدده[١]. وقد تناول الباحثون خصائص النظم الإسلامية بالدراسة والتفصيل وجاءت على النحو التالى :

أولا : خاصية(*) المنهج الإلهى.

هذه الخصيصة قاصرة على النظم الإسلامية دون سواها من النظم الأخرى. وذلك لأن شارعها صاحب الخلق والأمر فى هذا الكون ورب كل من فيه وما فيه الذى أحسن كل شئ خلقه، وهو الله - سبحانه وتعالى - وليس هذا بعجيب، فالله هو الخالق للكون والإنسان يقول تعالى : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[٢] ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾[٤] ﴿ الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ④ ﴾[٥] وصاحب الخلق أعلم بأسرار خلقه وخفايا صنعه. يقول تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭ ﴾[٦] ومن ثم فأكمل النظم وأعدل القوانين، وأعظمها نفعا للكون والإنسان، ماكان من تشريع ووحى الخالق الصانع، وتلك حقيقة لا يجادل فيها عاقل، والله هو الخالق وهو العليم

---

(١) المعجم الوسيط ١ / ٢٣٨.

(*) الخاصية نسبة إلى الخاصة. المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) سورة لقمان : آية ١١.

(٣) سورة الرعد : آية ١٦.

(٤) سورة الروم : آية ٤٠.

(٥) سورة الرحمن : آية ١ : ٤.

(٦) سورة الملك : آية ١٤.

والخبير وأحكم الحاكمين، أسماؤه الحسنى دلت على كماله، وصفاته العليا أظهرت جلاله، وآيات قرآنه كشفت لنا جماله، وقد جاءت النظم الإسلامية من هذا المصدر الإلهى والفيض الربانى فكسيت منه حلة الجلال والكمال والجمال يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(١) ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾(٢) ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾(٣) ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(٥) والحق هو الثابت الذى لا يتغير، وقد جاء سيدنا محمد - ﷺ - بالنظام الثابت الذى لا يتغير لتنظيم جوانب ومجالات الحياة الإنسانية، وإذا كان علماء الاجتماع والنظم يبحثون عن القانون الثابت المنظم لحياة الإنسان فلن يجدوه فى غير النظم الإسلامية التى تحمل خاصية المنهج الإلهى. وهذا هو معتقد المسلم فى النظم التى نزلت من عند الله تحملها الكتب التى أنزلت على الرسل، وهذا الاعتقاد المشمول بالعمل وتطبيق النظم هو السبيل الوحيد لنجاة المسلم من الوعيد الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٦) ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٧) ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾(٨).

وقد أعطت هذه الخاصية للنظم الإسلامية أبعاداً تربوية وعلمية تقوم على أن هذه النظم حق - أى قانون - ثابت، وأخرى أخلاقية وكذلك أمنية وفكرية عقائدية. فكون النظم من عند الله يحقق لها قدراً كبيراً من الهيبة

---

(١) سورة المائدة : آية ٥٠.

(٢، ٣) سورة النساء : آية ٨٧، ١٢٢.

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٣.

(٥) سورة النساء : آية ١٧٠.

(٦، ٧، ٨) سورة المائدة : آية ٤٤، ٤٥، ٤٧.

والاحترام من قبل المؤمنين بالله تعالى فالمؤمن يقول : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[(١)] طواعية واختياراً، لا جبراً ولا قسراً، وهذا هو نداء الفطرة الإلهية فى المسلم يقول تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[(٢)] وهذه الفطرة قاسم مشترك بين جميع الناس، ولكنهم يختلفون فى رد الفعل يقول تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ⦗١٤⦘﴾[(٣)].

ومن هذا المنطلق يقف جميع أفراد المجتمع أمام النظم الإسلامية موقف التسليم القائم على الاقتناع، والاختيار المطلق والحرية الكاملة فى هذا الاختيار، متخلقين فى ذلك بخلق المراقبة لله تعالى، ويغذى فيهم هذا الإحساس حفظهم لمقام ربهم وخوفهم منه، ويشرح ذلك قول الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ⦗٤٠⦘ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ⦗٤١⦘﴾[(٤)] وقول النبى - ﷺ - وهو يشرح معنى الإحسان : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٥)].

وبذلك يصل المجتمع إلى «احترام القواعد الشرعية احتراما تاماً سواء من الحاكم أو من المحكوم لأن كليهما يعتقد أنها من عند الله وأنها واجبة الاحترام، وهذا الاعتقاد بالذات يحمل الأفراد على طاعة القواعد الشرعية، لأن الطاعة تقربهم إلى الله طبقا لقواعد الدين الإسلامى، ولأن العصيان

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٥.

(٢) سورة الروم : آية ٣٠.

(٣) سورة النمل : آية ١٤.

(٤) سورة النازعات : آية ٤٠ ، ٤١.

(٥) جزء من الحديث الذى أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبى - ﷺ - عن الإيمان والاسلام والاحسان ... الخ. ابن حجر : فتح البارى ١ / ١٩٢.
وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الإيمان باب تعريف الإيمان والإسلام، صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ١٥٧.

يؤدى إلى العقوبة فى الدنيا وإلى ماهو شر من العقوبة، فى الآخرة، فنسبة النظم إلى الله أدت إلى احترام الأفراد لها وطاعتها، وكل نظم فى العالم تقدر قيمتها بقدر مالها فى نفوس الأفراد من طاعة واحترام»[١].

كما تقيد خاصية المنهج الإلهى، «ثبات القواعد الشرعية واستمرارها، ولو تغير الحكام أو اختلفت أنظمة الحكم، فيستوى أن تكون الهيئة الحاكمة محافظة أو مجددة، ويستوى أن يكون نظام الحكم جمهوريا أو ملكيا، فإن ذلك لن يؤثر على القواعد والنظم الشرعية فى شئ ما، لأن القواعد الشرعية لا ترتبط بالهيئة الحاكمة ولا بنظام الحكم، وإنما ترتبط بالدين الإسلامى الذى لا يتغير ولا يتبدل»[٢].

وتظهر المقاصد التربوية فى خاصية المنهج الإلهى للنظم الإسلامية، وهى تحقق التوافق بين ازدواجية الحاجة. حاجة الفرد وحاجة المجتمع .. وتحقق التوازن بين اثنينية الغاية. غاية الإنسان كفرد وغايته كعضو فى جماعة» إنه فى ظلال المنهج الإلهى تستطيع النظم والتشريعات أن توافق وتوازن بين الغايتين فى دقة وإحكام، بحيث لا يطغى الفرد على المجتمع كطغيان الفرد فى النظم الرأسمالية وبحيث لايفترس المجتمع الفرد كافترس المجتمع فى النظم الشوعية .. إن الفرد فى الإسلام ونظمه هو مسئول عن مجتمعه كما هو مسئول عن نفسه[٣]، ومصادر النظم واضحة فى تقرير هذه الحقيقة، ففى المسئولية الفردية جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[٥] وفى

---

(١) عبد القادر عودة : الاسلام وأوضاعنا القانونية، دار القرآن الكريم، الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية الكويت ١٣٩٧هـ ١١٩٧٧م ص٤٢.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الاسلام وثقافته ص ٢٩.

(٤) سورة فاطر : آية ١٨.

(٥) سورة المدثر : آية ٣٨.

المسئولية الجماعية نجد قول الله - تعالى - : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(١) والجماعة ليست مصطلحا عشوائيا أو غير مفهوم المعنى، وإنما هو مصطلح اجتماعى يرتقى بالنظم الإسلامية ليصبح هذا المصطلح ذا مقاصد حضارية ومسئولية إيمانية عقائدية وهذا مانجده فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾(٢) وتلك من أخص خصائص علم النفس الإسلامى الذى تقوم عليه النظم الإسلامية، فهى مظهر ومخبر، رَوْح وريحان إطار خارجى أساسه وقوامه قبس من أنوار الحق تبارك وتعالى يحقق الألفة والمودة بين الفرد والجماعة، وهذا ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾(٣).

وهذا العطاء الإلهى سر أودعه الله فى النظم الإسلامية التى شرعها الله لعباده لتبنى فى الإنسان هيكله المادى وتغذى جوهره الروحى النورانى، ومن ثم كانت النظم حدوداً يقول تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٤). وكانت ﴿ هُدًى ﴾(٥) ﴿ نُورٌ ﴾(٦) ﴿ وَشِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾(٧) وموعظة وبشرى وبينات وبصائر وصراطاً مستقيماً وشريعة، وكلها حقائق وخصائص تحدث الألفة بين الفرد والجماعة وهى لا توجد إلا فى النظم التى تتميز بخاصية المنهج الإلهى. إن هذه الخاصية للنظم الإسلامية تؤكد

(١) سورة المائدة : آية ٢.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٤.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٣.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٣٠.

(٥) سورة البقرة : آية ٣٨.

(٦) سورة المائدة : آية ١٥.

(٧) سورة يونس : آية ٥٧.

حقيقة، وتدحض فرية، فأما الحقيقة التى تؤكدها فتسمية القوانين والقواعد التى تنظم حياة المسلمين باسمها ومصطلحها الصحيح فيقال حدود الله أو القوانين الإلهية أو قوانين الشريعة الإسلامية أو النظم الإسلامية، وعلينا ألا نقارن بينها ووبين غيرها من النظم الوضعية فيقال مثلا الشورى تساوى الديمقراطية وينتهى الأمر إلى جعل المصطلح الأساسى للمجتمعات الإسلامية النظام الديمقراطى أو الاشتراكى، ويتصل بما نقول مايحدث فى بعض المجتمعات الإسلامية من إطلاق مصطلح النظم الإسلامية على قوانينها وأحكامها ولكنها تدير شئون الحكم والسياسات الخارجية بنظم غير إسلامية. إن الأمانة العلمية تقتضى أن ينسب الشئ إلى صاحبه، والعقيدة الإسلامية من لوازمها الدعوة إلى الله ولا يساعد على ذلك استيراد المصطلحات المادية وهجر النظم الإسلامية يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)﴾[٢].

إن القوانين والقواعد التى تنظم حياة المسلمين – وتبعا لخاصية المنهج الإلهى – «لا يصح أن يطلق عليها أى مصطلح من المصطلحات التى تطلق على ماوضعه الإنسان فى الشرق أو الغرب من نظم. ومن هنا لا يصح أن نطلق أى اسم أو صفة أو تشبيه على النظم الإسلامية ... إنها إسلامية وحسب .. لا رأسمالية [٣] ولا شيوعية [٤]

---

(١) سورة الصف : آية ٢، ٣.

(٢) سورة الفرقان : آية ٣٠.

(٣) النظام الاقتصادى الذى يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة. المعجم الوسيط ١ / ٣١٩.

(٤) مذهب يقوم على إشاعة الملكية وأن يعمل الفرد على قدر طاقته وأن يأخذ على قدر حاجته. المعجم الوسيط ١ / ٥٠٤.

ولاديمقراطية [١] ولا اشتراكية [٢] .. ولا إمبريالية [٣] ولا فاشية [٤] .. ولا هى نظم ثيوقراطية [٥] .. إنها ليست شيئا من هذا كله .. إنها نظم إسلامية فقط، ومن ثم فهى بمنأى عن أى مصطلح من المصطلحات التى تتردد فى القاموس البشرى المعاصر»[٦].

وأما الفرية التى تدحضها خاصية المنهج الإلهى للنظم الإسلامية، فزعم المستشرقين ومن ينهج نهجهم «أن التشريع الإسلامى مستمد من القانون الرومانى وأن المحققين ثبت لديهم هذا»[٧].

ونقول : إن النظم الإسلامية بخاصية المنهج الإلهى صادرة ابتداء من الله فهو – سبحانه – المشرع والمنظم وهو أحكم الحاكمين، ووجود التشابه لايعنى الأخذ عن الغير، فالنظم الإسلامية تقوم على آيات قرآنية ثابتة متواترة قطعية الدلالة فى بابها الذى تقرر نظمه وتبين قواعده وقوانينه

---

(١) توفر فرصة المشاركة لدى أعضاء المجتمع فى اتخاذ القرارات فى أى مجال من مجالات الحياة الاجتماعية وبخاصة القرارات السياسية. المرجع فى مصطلحات العلوم ص ١٢٣.

(٢) مذهب سياسى واقتصادى يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التوزيع والتخطيط الشامل. المعجم الوسيط ١ / ٤٨٠.

(٣) نزعة بعض الدول الكبرى إلى أن تربط بها دولاً أخرى، رغبة فى بسط النفوذ الأدبى والمادى وذلك عن طريق الاستعمار أو الحماية أو المعاهدات والاتفاقات التجارية والثقافية. المعجم الكبير. مجمع اللغة العربية ط دار الكتب ١٩٧٠/م ص ٤٥٦.

(٤) حركة سياسية فى نفس الوقت الذى تنطوى فيه على مذهب يسعى إلى تبرير هذه الحركة وهى تستهدف إقامة نظام ديكتاتورى يعارض الأسس البرلمانية ويناصب الديمقراطية والليبرالية والاشتراكية العداء. المرجع فى مصطلحات العلوم ص ١٨٣.

(٥) النظام الذى كان الحاكم يتلقى فيه سلطته إما من رجال الدين وإما من الحق الالهى بوصفه ظل الله فى الأرض. انظر سيد قطب : نحو مجتمع إسلامى دار الشروق ط ثالثة ١٩٧٨ / م ص١٥٢.

(٦) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الاسلام وثقافته ص ١٠.

(٧) محمد الغزالى : دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين دار الكتب الحديثة ط رابعة ١٩٧٥ / م ص ٨٥.

وأحكامه، وأما التشريع الروماني وغيره من النظم الوضعية فلا يقوم على نصوص ثابتة ولا حتى محرفة وإنما هي من وضع البشر. «أما والشريعة الإسلامية تناقض القانون الروماني في القيم الخلقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد في النظرة إلى الإنسان، وإلى الحياة كلها، فإن القول باستفادة الفقه الإسلامي من الرومان قول بين البطلان.

الفقه الإسلامي – النظم الإسلامية – يستقى أولاً وآخراً من الوحي، وقد أمده الكتاب والسنة بأحكام كلية وجزئية لا تحصى، ولم توجد في الحضارات القديمة أمة كتبت في الفقه، واشتغلت بالشئون التشريعية إلى حد الإسراف مثل ما أثر ذلك عن الحضارة الإسلامية والأمة الإسلامية»[١]
وقد جاءت أوجه الاختلاف بين الشريعة والقانون الروماني من عدة أوجه :
- الاختلاف في المصادر.
- الاختلاف في الطابع العام.
- الاختلاف في الأحكام التي تتصل بنظام العقوبات، والأسرة والملكية.
- الاختلاف في مدى ربط القانون بالأخلاق[٢].

ولم تكن هذه الدعوى محل تسليم لدى الباحثين المنصفين فقد تصدى لها عدد من المستشرقين الغربيين الذين أكدوا بطلان هذا الزعم لاستحالة وجود مثل ذلك التأثر في ظل الظروف التي نشأ فيها الفقه الإسلامي وتطوره، ومن هؤلاء «فيتزجيرالد» الذي تناول آراء كل من «إيموس» و«جولد تسهير»[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦.

(٢) انظر د . عرفه سالم : دعوى تأثر الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني، بحث منشور بحولية كلية أصول الدين القاهرة العدد العاشر ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ ص ٣١.

- محمد الغزالي : دفاع عن العقيدة والشريعة.

- د . صوفي أبو طالب : بين القانون الروماني والشريعة الاسلامية ومبادئ تاريخ القانون.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٨.

كما تصدى لها من غير المسلمين الأستاذ «فارس الخورى» والأستاذ «صليب سامى»[١].

وهكذا فلا ندرى على أى أساس أطلق المستشرق جولد تسهير مقولته: وأن المحققين ثبت لديهم هذا.

إن النظم الإسلامية مصدرها الله الذى أنزل وحيه على رسوله محمد - ﷺ - فكان هذا الوحى هو القرآن الكريم والسنة النبوية فى معناها وأحكامها، وهذه خاصية لا تملك أى نظم أخرى وضعية أن تدعيها فدون ذلك خرط القتاد.

ثانيا: خاصية الكمال والتمام والشمول.

(أ) مفهوم كمال النظم الإسلامية.

كمل الشئ كمولا : تمت أجزاؤه أو صفاته. ويقال : كمل الشهر : تم دوره. فهو كامل. وكمل كمالا : ثبتت فيه صفات الكمال. وأكمل الشئ أتمه.[٢] وكمال النظم الإسلامية يعنى تمام أجزائها وصفاتها وموضوعاتها التى تغطى كل المجالات الكونية والاحتياجات الإنسانية قياماً بأمانة الخلافة فى الأرض والفوز بطاعة الله فى الدنيا والنجاة يوم القيامة.

وكمال النظم الإسلامية يعنى الإحاطة والشمول. وهو شمول يقصد به: «استيعاب النظم الإسلامية لكافة قضايا الحياة وسائر جوانبها، ومن ثم تكون نظما جامعة .. إن نظم الإسلام شاملة لجميع شئون الحياة، لا تهمل شأنا من شئونها. وهى شاملة - أيضا - لكافة تصرفات الإنسان، لا تغفل جانبا من جوانبها .. فهى نظم تحيط بالإنسان من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، بل تحيط به من قبل ظهوره فى الحياة وإلى مابعد خروجه منها»[٣].

---

(١) محمد الغزالى : دفاع عن العقيدة ص ٨٧.

(٢) المعجم الوسيط ٢ / ٧٩٨.

(٣) د . مصطفى أبوسمك : نظرات [illegible] الإسلام وثقافته ص ٣٢.

(ب) مقومات الكمال والشمول فى النظم الإسلامية.

ترتكز خاصية الكمال والشمول فى النظم الإسلامية على مقومات عديدة وأسس حقيقية نذكر منها مايلى :

١) النصوص الشرعية.

فكر المسلم وتصوراته التى تتصل بالكونيات والانسانيات تعتمد فى بنائها على نصوص شرعية ثابتة تمثل له قاعدة البناء والانطلاق وكمال النظم الإسلامية وشموليتها خصائص لها مرجعيتها من القرآن والسنة النبوية.

يقول تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾(١) ويقول تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾(٤).

ومن أسماء الله الحسنى التى تلقى بظلالها على هذا الجانب اسم الله الجامع، المحصى، المقيت، الحسيب، الخبير، المهيمن، العليم، القيوم، وهذه الأسماء وتلك الصفات تغذى مفهوم كمال النظم الإسلامية، فهى قبل كل شئ وبعد كل شئ نظم تتمتع بخاصية المنهج الإلهى.

وقد أشارت السنة النبوية إلى جانب من هذا الكمال وتلك الشمولية، وذلك فى قول النبى – ﷺ – : «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور والشفاء النافع، عصمة لمن

---

(١) سورة المائدة : آية ٣.

(٢) سورة النحل : آية ٨٩.

(٣) سورة الاسراء : آية ١٢.

(٤) سورة الأنعام : آية ٣٨.

تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أنى لا أقول : ألم، ولكن بألف ولام وميم»[١].

وعن على قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «ستكون فتن قلت: وما المخرج؟ قال : كتاب الله، فيه نبأ ماقبلكم وخبر مايعدكم وحكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[٢] هو الذى من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[٣].

وفى النصوص القرآنية السابقة يقول الله لعباده موجها :«أكملت لكم أيها المؤمنون، فرائضى عليكم وحدودى، وأمرى إياكم ونهيى، وحلالى وحرامى، وتنزيلى من ذلك ما أنزلت منه فى كتابى، وتبيانى مابينت لكم منه بوحيى على لسان رسولى، والأدلة التى نصبتها لكم على جميع مابكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد هذا

---

(١) سنن الدارمى. كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن، وقد رواه الحاكم ١ / ٥٥٥ والمروزى فى قيام الليل ١٢١، وصححه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢ / ٢٦٧. انظر سنن الدارمى تحقيق فواز أحمد، خالد السبع دار الريان للتراث ط أولى ١٩٨٧/م ٢/٥٢٣، ٥٢٤.

(٢) سورة الجن : آية ١.

(٣) سنن الدارمى، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن ٢ / ٥٢٦، وقد رواه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن باب ١٤ ماجاء فى فضل القرآن حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/١٧٢، وأحمد فى مسنده ٩١/١، وأبو داود الطيالسى، وقد روى له شاهد عن ابن مسعود - رضي الله عنه -. هامش سنن الدارمى ٢ / ٥٢٧.

اليوم»[١] وهنا يطرأ سؤال وهو أن قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢] يقتضى أن الدين كان ناقصا قبل ذلك، وذلك يوجب أن الدين الذى كان - ﷺ - مواظبا عليه أكثر عمره كان ناقصا، وانه إنما وجد الدين الكامل فى آخر عمره مدة قليلة ؟

والجواب : أن الدين ماكان ناقصا ألبتة. بل كان أبداً كاملا، يعنى كانت الشرائع النازلة من عند الله فى كل وقت كافية فى ذلك الوقت، إلا أنه تعالى كان عالما فى أول وقت المبعث بأن ماهو كامل فى هذا اليوم ليس بكامل فى الغد ولا صلاح فيه، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكلان يزيد بعد العدم، وأما فى آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملا، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص، والثانى كمال إلى يوم القيامة فلأجل هذا المعنى قال[٣] : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

أما وقد «أكمل الله هذا الدين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد، وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل، ورضى لهم الإسلام دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته - إذن - فإنما يرفض مارتضاه الله للمؤمنين»[٤] وفى ظلال تلك الثوابت الشرعية يقوم اعتقاد المسلم فى النظم الإسلامية فقد أكملها الله وتممها وجعلها شاملة محيطة بكل شئ.

---

(١) الطبرى : جامع البيان عن تأويل أى القرآن، حققه محمود محمد شاكر، أحمد محمد شاكر، دار المعارف ٩ / ٥١٨.

(٢) سورة المائدة : آية ٣.

(٣) مفاتيح الغيب ١١ / ١٣٨.

(٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢ / ٨٤٢.

٢) إستيعاب القواعد الشرعية للثوابت والمتغيرات.

تعتمد النظم الإسلامية فى بنائها على القواعد الشرعية الأصولية الجامعة المأخوذة من النصوص والأدلة الشرعية، ومن مقومات الكمال فى النظم الإسلامية أن تشمل قواعدها الوجود كله كونا وإنسانا حاضرا ومستقبلاً، وهذا يرجع إلى «أن الإسلام يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبيعة الكون الكبير عامة، فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الانسان وفطرة الوجود»[١].

ولما كانت العلاقة القائمة بين الإنسان والكون متشعبة ومتنوعة ومتجددة، كان الإنسان بحاجة إلى نظم تصاحبه وترسم له المنهج فى كل خطوة يقطعها نحو الاكتشافات ومعرفة السنن والقوانين بأسلوب لا يعوق حركة حياته، ولا يحرمه من الاستفادة بعلومه ومعارفه. ولم يكن حل هذه القضية سهلاً، فحياة الإنسان فيها الجديد، وإليه أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[٢] وفيها المتشابه والمتشابك، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى نظم تجمع فى داخلها القدرة على تنظيم حياة الإنسان تنظيماً كاملاً شاملاً يضع القواعد والأصول لما هو ثابت، وفى الوقت ذاته يعالج المستجدات والمتغيرات فى حياة الناس، ولم يكن ذلك إلا فى النظم الإسلامية حيث تستوعب قواعدها الشرعية الثوابت والمتغيرات، فقد أكمل الله الدين الإسلامى «بإنزال كل مايحتاج إليه من أصل وفرع، نص على البعض، وبيانا لطريق القياس فى الباقى، وذلك بيان لجميع الأحكام»[٣].

وبذلك جمعت النظم الإسلامية عنصر الثبات والخلود، وعنصر المرونة والتطور.

---

(١) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام ص ٢٠٥.

(٢) سورة النحل : آية ٨.

(٣) البقاعى : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية طب أولى ١٩٩٥ / م ٣٩٢/٢.

«أما الثبات ففى الأصول والكليات، وأما المرونة ففى الفروع والجزئيات، الثبات على القيم الإسلامية والأخلاقية، والمرونة فى الشؤون الدنيوية العلمية، الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة فى الوسائل والأساليب»[١].

إن الثوابت محكومة بالأحكام التفصيلية، لأنها جاءت لتبقى، والمتغيرات محكومة بالكليات والقواعد الأساسية - وتلك هى الخاصية العامة لرسالة الإسلام الخاتمة، رسالة سيدنا محمد - ﷺ - فالمتأمل فى موكب الرسالات الإلهية «يجد كل رسول، إنما أرسل لقومه، ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة - إنما جاءت لمرحلة من الزمان .. رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، فى بيئة خاصة، ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه، متكيفة بهذه الظروف، كلها تدعو إلى إله واحد - فهذا هو التوحيد - وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الدين - وكلها تدعو إلى التلقى عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الإسلام - ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف.

حتى اذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر، أرسل إلى الناس كافة رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسى فى بيئة خاصة، فى زمان خاص، فى ظروف خاصة، رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التى لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٢] وفصل فى هذه الرسالة شريعة تتناول حياة

---

(١) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام ص ٢٠٤.

(٢) سورة الروم : آية ٣٠.

الإنسان من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد، حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كماهي. والمبادئ الكلية جاءت لتكون هى الإطار الذى تنمو فى داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان»[1].

وتتجلى المرونة فى المصادر الاجتهادية التى اختلف فقهاء الأمة فى مدى الاحتجاج بها مابين موسع ومضيق ومقل ومكثر، مثل : الإجماع، والقياس والاستحسان، والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة، وشرع من قبلنا وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط»[2].

٣) قيامها على فقه الواقع والتجديد.

النظم الإسلامية مبنية على النصوص الثابتة من القرآن والسنة النبوية، وعلى القواعد الكلية المستنبطة منهما، وهذه النصوص وتلك القواعد ليست شيئا جامداً، ولكنها فى حقيقتها كائن حى يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾[3]. ومن خلال هذه الحركة والحياة تجدد النظم الإسلامية نفسها فى التعامل مع الواقع الذى تعايشه فى كل زمان ومكان، وتضع له التصورات والخطوات

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢ / ٨٤٢.

(٢) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ص ٢٠٨.

(٣) سورة الشورى : آية ٥٢.

فى إطار الالتزام بالأحكام والقواعد الكلية التى شرعها الله - تبارك وتعالى -

وعلى هذا كان فقه الواقع أمراً ضروريا ومهما، يتناول فيه الدعاة والمتخصصون فى كل مجال الأدلة الشرعية والقواعد الإسلامية بالدراسة والفقه الذى يساعد على تعميق الإيمان وتوجيه السنن الكونيه المكتشفة لخدمة الدعوة الإسلامية ووضع الحلول المناسبة للقضايا التى تظهر فى واقع الناس تبعا لتفاعلهم مع الحياة.

وقد جاءت الأدلة الشرعية كاملة فى أسلوبها اللفظى ومدلولها الفكرى والعلمى الصالح للفهم فى كل زمان ومكان، وتبقى المسؤولية منوطة بالعلماء والدعاة فى تنزيل هذه الأدلة والأحكام على واقع الحياة حسب الحاجات والمقتضيات، وهذا ماقرره القرآن الكريم وجاءت به السنة النبوية الشريفة.

يقول الله - تعالى : - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾[١].

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾[٤] ويقول جل شأنه : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[٥] ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[٦].

---

(١) سورة النساء : أية ٥٩.

(٢) سورة النساء : أية ٨٣.

(٣) سورة النحل : أية ٤٣.

(٤) سورة الحجر : أية ٧٥.

(٥) سورة العنكبوت : أية ٤٣.

(٦) سورة فاطر : أية ١٤.

وتلك مؤهلات وصفات لا تخلو منها الأمة الإسلامية فى أهل العلم والتخصص من الدعاة إلى الله الذين جمعوا بين الاستنباط الذى هو «الاستخراج، يقال : استنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه»[١]، وفهم الوثائق التى تدل عليها السمة والعلامة، وهؤلاء الذين يحققون فقه الواقع ويقومون به، فقلوبهم وعقولهم مستوعبة لعطاء الله فى أحكامه الشرعية المحفوظة فى القرآن الكريم، وفى آياته الكونية والإنسانية، فهم يشرحون هذا بهذا ويؤيدون هذا بهذا، ويربطون هذا بخالقه وهذا بمنزله ومن ثم كانت وحدة المصدر لكليهما، للنظم الإسلامية، والآيات الآفاقية والأنفسية، ومن ثم كان الترابط والتعانق قائما بينهما فى الدلالة على الخالق – سبحانه وتعالى – وهو مايستثمره الدعاة إلى الله لتحقيق فقه الواقع يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ⦗٦⦘ ﴾[٢].

إن العطاء الإلهى فى الآيات القرآنية التى تقوم عليها النظم الإسلامية، جعل هذه النظم ذاخرة بالعطاء المتدفق والمتجدد مما جعل هذه النظم شاملة كاملة، فهى تسع الواقع المتجدد من خلال الفقه المستنبط من قواعدها الكلية وأدلتها القرآنية وأحاديثها النبوية، وهنا يأخذ الإعجاز العلمى للنظم الإسلامية دوره ومكانته، ويكون التجديد فى أمر الدعوة، تنقية لها من الشوائب التى علقت بها، وانطلاقا بها إلى أفق العالمية، يقول رسول الله – ﷺ – : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣].

---

(١) الرازى : مفاتيح الغيب ١٠ / ١٩٩.

(٢) سورة الفرقان : آية ٦.

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك، وأبو داود فى سننه، والبيهقى فى المعرفة، وهو من الصغير برقم ١٨٤٥ ورمز لصحته. السيوطى : جمع الجوامع، مجمع البحوث الاسلامية رقم ٦٨٤ – ٥١٦٩ ص ١٦٧١.

وهو إخبار من الصادق المصدوق من وجه، وتكليف دائم ومستمر للأمة المسلمة بالتجديد والاجتهاد والمراجعة ونفى الشوائب والعودة إلى الينابيع الأولى من وجه آخر، ذلك أن التجديد هو العطاء الدائم الذى يحمى المسيرة من السقوط ويسدد الخطوة ويرتقى بالمسلمين ليكونوا بمستوى الإسلام والعصر إن فقه الواقع والتعامل معه خاصية للنظم الإسلامية تؤكدها النصوص الشرعية بما تحمله من جوانب الإعجاز البيانى الذى يجعلها صالحة للتعامل مع الواقع فى كل عصر ومصر إذا أحسن فقهه، ومن ثم يكون الترتيب والتنسيق والتجديد والاضافة فى كل نواحى الحياة إجتماعية واقتصادية وثقافية ولكن بصبغة إسلامية تظهره على الدين كله، وعلى النظام العالمى كله يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾[١].

وهذا مابينه القرآن الكريم فى حديثه عن ذى القرنين الذى فقه الواقع فيما يخص القواعد الشرعية، وما يخص الجوانب الواقعية للحياة وربط بين كليهما وذلك فى قول الله – تعالى – : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾[٢] ثم انتهى بعد ذلك إلى تقرير الحقيقة التى تعمل النظم الإسلامية على ترسيخها فى النفوس فقال فى شأن ماتوصل إليه من فقهه للواقع الكونى على ضوء الواقع الشرعى : ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾[٣].

(جـ) مجالات الكمال والشمول.

جاءت النظم الإسلامية كاملة وشاملة بسبب جوانبها المتعددة التى تنظمها وتتعامل معها فقها وتنظيما وتخطيطا، وأهم هذه الجوانب والمجالا مايلى :

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٣.

(٢، ٣) سورة الكهف : آية ٨٤، ٨٥، ٩٨.

١) الشمول فى النظم.

من جوانب الكمال فى النظم الإسلامية، وجود النظم التى تنظم كل شئون الحياة من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية وخلقية وقضائية .. وغير ذلك من النظم. فهو شمول للإنسان، وشمول لما ينظم حياة الإنسان فى كل مكان وزمان»[١].

ولكى يتضح هذا الشمول يمكن أن نبسط أحكام الشريعة فيما يلى :

- النظام العقدى.

وهو أحكام تتناول العقيدة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وما يتعلق بهذا من مسائل الإيمان. وقد جاء حديث القرآن الكريم عن العقائد الإسلامية فى صورة واضحة، حيث ضرب لها المثل وأقام عليها الدليل من النفس والكون، وقارن بينها وبين العقائد الفاسدة، وما يترتب على كل منهما من آثار إيجابية وسلبية تظهر فى حياة الإنسان.

«وشأن الأمور الاعتقادية أن تكون من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفهم أو بليدا، فإنها لو كانت مما لايدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامة، ولم تكن أمية، وقد ثبت كونها كذلك، فلابد أن تكون المعانى المطلوب علمها واعتقادها سهلة المآخذ.

وأيضا فلو لم تكن كذلك لزم بالنسبة إلى الجمهور تكليف مالا يطاق، وهو غير واقع ... ولذلك تجد الشريعة لم تعرف من الأمور الإلهية إلا بما يسع فهمه، وأرجت غير ذلك فعرفته بمقتضى الأسماء والصفات، وحضت

---

(١) د . محمد رأفت سعيد : المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٥١.

على النظر فى المخلوقات، إلى أشباه ذلك، وأحالت فيما يقع فيه الاشتباه على قاعدة عامة، وهو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[١] وسكتت عن أشياء لا تهتدى إليها العقول. نعم، لا ينكر تفاضل الإدراكات على الجملة وإنما النظر فى القدر المكلف به»[٢].

ويشمل الجانب العقدى فى النظام الإسلامى الألوهيات والنبوات والسمعيات، وما يتصل بذلك من التصور الإيمانى للكون والحياة والإنسان. والجانب العقدى هو الأصل الذى تنطلق منه كل حركات الإنسان فهو المحدد لأهداف السلوك اقتصاديا واجتماعياً وعلميا وثقافيا، فبالعقيدة يبنى فكر الإنسان ويستنير عقله ولذلك فمفردات العقيدة هى ركائز التفكير العقلى والتصور القلبى فى الإنسان قال رسول الله - ﷺ - : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى»[٣].

- النظام الأخلاقى.

وهو أحكام تتناول الأخلاق كالصدق والأمانة والعفة والحياء والوفاء بالعهد وغير ذلك من الصفات التى يجب أن يتحلى بها المسلم، كما تتناول الأخلاق المرذولة التى يجب على المسلم أن يتجنبها ويبتعد عنها وذلك كالكذب والبخل والرياء والظلم وغير ذلك.

ويجب على المسلم أن يلتزم بنظام الأخلاق فى كل شئون حياته مع صديقه وعدوه، قريبه وغريمه بدون تفرقة فى ذلك يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٤].

---

(١) سورة الشورى : آية ١١.

(٢) الشاطبى : الموافقات فى أصول الشريعة، دار الفكر العربى ٢ / ٨٨.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله - ﷺ - ابن حجر العسقلانى : فتح البارى ١ / ٣٢.

(٤) سورة المائدة : آية ٨.

- **النظام التعبدى.**

ويتناول هذا النظام علاقة المسلم بربه من خلال الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وهذا النظام يمثل للمسلم الطاعة والانقياد لخالقه، والتربية الروحية والجسدية وصولا به إلى الإنسان السوى والمثل الأعلى، «تحقيقا لمعنى العبودية لله فى الأرض. وهذا يظهر بجلاء فى طريقة أداء المسلم لهذه العبادات على الحد الذى حده الشارع لاعلى مقتضى أهواء البشر وشهواتهم. وهى تمثل حقوق الله على عباده سواء كانت مالية أو بدنية، ويترتب على ذلك أنه لا خيرة للمكلف فى تركها أو تأخير القيام بها، أو اسقاطها، أو التصالح عليها»(١).

- **النظام الاجتماعى.**

لما كان الاجتماع الإنسانى ضرورة لعمارة الأرض، أعطاه الإسلام أهمية كبرى فوضع له القوانين المنظمة له فى كل مرحلة من مراحله وصورة من صورة سواء كانت بسيطة أو مركبة، سهلة أو معقدة، إبتداء من الأسرة الصغيرة التى تتكون من زوج وزوجة ومروراً بالأسرة التى تشمل الأهل والأقارب والجيران وانتهاء بالمجتمع الكبير الذى يشمل الجميع، وفى هذا النظام يقرر الإسلام الحقوق والواجبات التى تحفظ أمن الفرد وسلامته وتحمى كيان المجتمع وتصون وحدته.

- **النظام الاقتصادى (المالى).**

أحاط الإسلام النظام الاقتصادى برعاية كبيرة وعناية خاصة تتناسب مع دوره وخطورته على المجتمع أفراداً وجماعات، فالمال هو عصب الحياة وأساس التقدم ويحتاج إلى العدالة فى توزيع الثروات وحفظ الحقوق ولذلك

---

(١) عبدالعظيم منصور الاسلام شريعة الله الخالدة، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بمصر ١٩٦٩/ م ١٠٧.

شرع له الإسلام أحكاماً «تتناول علاقات الأفراد المالية ومعاملاتهم كالبيع والاجارة، والرهن والكفالة، ونحو ذلك مما يسمى حالياً بالقانون المدنى، ومن هذه الأحكام مايتعلق بالشركات والتفليس والأمور التجارية الأخرى وتسمى فى الوقت الحاضر بالقانون التجارى»[١] كما يشمل هذا النظام «الأحكام المتعلقة بموارد بيت مال المسلمين ومصارفه من مثل الزكاة والجزية والفئ والغنيمة والعشور، ومن تحقيق التكافل الاجتماعى بين الفرد والمجتمع وبين الأغنياء والفقراء، كما يشمل النظام المالى التصورات الإسلامية فى القضايا المعنوية للثروة وذلك من مثل مكانة المال فى حياة الانسان ورسالته، وآفاق كل من الملكية العامة والملكية الخاصة بين الناس وغير ذلك من القضايا»[٢] كما يشمل النظام المالى الطرق الوقائية التى تحافظ على الثروات من النهب والضياع وذلك من خلال تحريم الأساليب والوسائل غير المشروعة وجعلها سببا لغضب الله ومقته، ومن أمثلة ذلك، تحريم الربا والرشوة والاحتكار والغش بكل صوره، والذهب والحرير على الرجال[٣].

- النظام الأمنى.

الأمن مطلب شرعى تدعو إليه الحاجة الإنسانية وهو مظهر حضارى وعلامة أخلاقية على رقى المجتمع وتقدمه، وهذا المصطلح يجمع داخله أنظمة عديدة يتوقف عليها أمن المجتمع واستقراره، والخلل فى واحدة منها يسبب تأخر المجتمع وضياعه وانتشار الظلم فيه وقتل المواهب، ومن ثم كانت عناية الإسلام بتحقيق الأمن فى المجتمع عناية فائقة، وقد تناولت النظم الإسلامية هذا الجانب على النحو التالى :

---

(١) د . محمد رأفت سعيد : المدخل لدراسة النظم الاسلامية ٥٢.

(٢) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الاسلام وثقافته ٣٣.

(٣) هناك مقاصد أخرى لتحريم الذهب والحرير على الرجال تتصل بالذكورة وصفاتها التى ينبغى ان تكون بعيدة عن التشبه بالنساء.

- النظام السياسى.

الخلافة عن الله تكريم للإنسان، ومراتب الخلافة متعددة، وأعلاها من يتولى أمور المسلمين ويقوم على مصالحهم، وقد وضع الإسلام الأحكام التى تتناول نظام الحكم وقواعده، وحقوق الأفراد فى الدولة، وعلاقاتهم معها، وتسمى اليوم بالقانون الدستورى.

«وجماع مايمكن أن يقال عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم باعتبار تلك العلاقة أبرز ما يمكن أن يقال عن الإسلام كنظام للخلافة، أن تلك العلاقة تتجلى فى العدل من الحكام، والشورى بين الحاكم والمحكوم، والنصيحة والطاعة للحاكم»(١).

- النظام الإدارى.

وهذا النظام امتداد للنظام القائم على أمن المجتمع، وهو الترجمة العملية له، فعن طريقه تدير أجهزة الحكم شتى الأعمال والوظائف المختلفة فى البلاد والأقاليم، والقائمون به هم نواب الخليفة من ولاة وعمال وموظفين، وهم المنفذون والمحققون لأهداف النظام السياسى الحاكم، وقد تكفل النظام الإدارى فى الإسلام ببيان الشروط التى يجب توافرها فيمن يتولى أمراً من أمور المسلمين، وجعل ولى الأمر مشاركا لعماله وولاته فى إحسانهم أو إساءتهم إلى الرعية، يقول رسول الله - ﷺ - : «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٢).

---

(١) عبدالعظيم منصور : الاسلام شريعة الله الخالدة ١٠٩.

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح كتاب الأحكام باب قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ سورة النساء : آية ٥٩ عن ابن عمر. فتح البارى ١٣٠/٢٧.

وأخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الامارة باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال المشقة عليهم شرح النووى ١٢ / ٢١٣.

- النظام القضائى.

وينظم الأمور التى تتصل بالقضاء والدعوى والشهادة واليمين والبينات وهى تدخل فيما يسمى اليوم بقانون المرافعات[١] وهو يتولى كافة المنازعات والخصومات والاعتداءات – جنايات – جنح – حق مدنى – أحكام أسرة – (أحوال شخصية) الخ وذلك للفصل بين الناس فصلا قائما على الأحكام الشرعية، وعلى الالتزام بقواعد الإسلام الكلية فى جميع المجالات»[٢].

وللقضاة فى الإسلام هيبته ودوره الخطير فى تحقيق العدل ورفع الظلم وهذا من شأنه أن تدقق الهيئات والمؤسسات فى اختيارهم وأن تكون متابعتهم دورية منتظمة.

- نظام الحسبة.

وهو نظام رقابى تقويمى لحماية الأفراد فى المجتمع وكذلك لمنع أهل البدع عن بدعهم، ومن خلال هذا النظام يتم الاشراف على تنفيذ أحكام النظم الإسلامية إشرافا مباشراً بما فى ذلك الحاكم والمحكوم، والغنى والفقير، والرجل والمرأة ومختلف طبقات المجتمع قياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو دور يتصل بدور جهاز الشرطة ولكن الحسبة أوسع وأشمل وأدق وأكمل وذلك برعايتها لمصالح الدنيا والآخرة.

- نظام علاقة الدولة بالآخرين.

ويتناول هذا النظام أحكاماً تنظم معاملة الأجانب غير المسلمين «المستأمنين» فى الدولة الإسلامية، وتنظيم علاقاتهم فيما بينهم، أو مع رعايا الدولة الإسلامية، وتسمى اليوم بالقانون الدولى الخاص.

---

(١) د . عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ٥٠.

(٢) د . مصطفى أبوسمك : نظرات فى نظم الاسلام وثقافته ٣٤.

وهناك الأحكام التى تتناول تنظيم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى فى السلم والحرب وتسمى اليوم بالقانون الدولى العام[١].

- نظام العقوبات.

من وسائل التربية والعلاج التى يحتاج إليها المجتمع تأديب الخارجين على القوانين والقواعد المشروعة، وتلك هى مهمة العقوبات التى تتناسب مع حجم الجرم الذى ارتكبه صاحبه، ولا يستطيع تحديد ذلك إلا صاحب العدل المطلق وهو الله، ومن ثم كانت العقوبات على الجرائم الكبرى توقيفية، وكانت فى غيرها متروكة لما يكون به إصلاح الفرد وتحقيق زجره وتخويفه وصولاً به إلى الشفاء النفسى والعقلى. وقد وضع الإسلام الضوابط التى تقف بالعقوبات عند دورها الصحيح دون إفراط أو تفريط، وذلك من خلال الاقرار والشهادة المستوفية للنصاب المقرر شرعاً، أو قيام الأدلة والقرائن التى تثبت الجريمة على مرتكبها، مع الاحتياط وأخذ الحذر ودرء الحدود بالشبهات، وقبول العفو من صاحب الحق، وقبول توبة التائب إذا لم يصل الأمر إلى ولى الأمر.

«والعقوبات فى الإسلام إما عقوبات مقررة بالشرع مثل عقوبات القتل والسرقة وقطع الطريق والافساد فى الأرض والزنا والقذف ... وهذا النوع من الحقوق لا يملك أحد الإعفاء منه أو تعطيله أو استبداله بغيره بأن توضع عقوبات على خلاف ما أمر به الشارع .. أما المعاصى التى ليس فيها حد مقرر ولا كفارة فمرتكبوها يعاقبون تعزيراً وتأديبا وتنكيلا بقدر مايراه الوالى»[٢].

وقد وضع الإسلام الأحكام التى تتناول تحديد علاقة الفرد مع الدولة الإسلامية من جهة الأفعال المنهى عنها (الجرائم ومقدار عقوبة كل جريمة)

---

(١) د. عبدالكريم زيدان : أصول الدعوة ٥٠.

(٢) عبدالعظيم منصور : الاسلام شري[illegible]

وهذه تدخل فيما يسمى اليوم بالقانون الجنائى أو قانون العقوبات ويلحق بها الإجراءات التى تتبع فى تحقيق الجرائم وإنزال العقاب بالمجرمين وهى مايسمى اليوم بقانون تحقيق الجنايات[١].

- نظام الجهاد.

وهذا النظام يمثل الدرع الواقي لحماية الأمة الإسلامية ضد أعدائها، حتى تبلغ دعوة الله إلى كل مكان، وهذا النظام يحقق للأمة كيانها القوى ومكانتها المرهوبه، وقد تناولت الأحكام الإسلامية أنواع الجهاد وأهدافه ووسائله وأخلاقه ومكانته وحكمه وما يجب على كل مسلم تجاه الجهاد. وفى ظل هذه الأحكام نشأت العسكرية الإسلامية والجندية الإيمانية وقوى ساعدها وبرز فيها أصحاب المواهب العسكرية.

٢) نظام المعلومات.

الإنسان تواق إلى المعرفة يبحث عنها ويجرى خلفها وقد يصيب وقد يخطئ، وكلما كان بحثه متصلا بالغيبيات الماضية أو المستقبلية كان إلى الظن أقرب، وذلك إذا بحث الإنسان فى نشأته وأراد أن يحدد رسالته ويقف على نهايته أو أن يجمع معلومات معرفية عن الحضارات القديمة وماهو السبيل الأمثل فى أمثال هذه الدراسات. وتبعا لأهداف الباحثين تختلف النتائج وينعدم الأثر ويصبح علم الإنسان سببا لفتنته والقضاء عليه.

من هنا كان نظام المعلومات فى الإسلام نظاماً دقيقا فريداً تربويا يعطى للإنسان من الماضى ما يفيده فى الحاضر، ويقدم له عن المستقبل مايلزمه من أمور الساعة وأشراطها والقيامة وأحداثها والآخرة وأهوالها. فى كل ذلك يقدم الإسلام للمسلم الحقائق الثابتة والتجارب الصادقة، مقدراً

---

(١) انظر د . عبدالكريم زيدان : المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية ط سابعة ١٩٨٢ / م ص ٥٧ وما بعدها.

لعقله ومغذيا لملكاته، فكانت أخبار الحضارات والأمم السابقة، وكانت التصورات الكونية الصحيحة والحقائق الإنسانية الدقيقة، وهذا يجعلنا على قناعة تامة بأسبقية النظم الإسلامية فى مجال مناهج البحث العلمى، وفى مجال المعرفة الموسوعية الشاملة.

(د) أقوال واعترافات.

تمام النظم وكمالها نعمة ربانية اختص الله بها أمة سيدنا محمد - ﷺ - وكان هذا التمام والشمول مثار عجب من أهل الكتاب وغيرهم، وقد أشار إلى هذه الحقيقة كثير من الأقوال والشهادات التى نطقت بها كتب أهل الكتاب مع تحريفها، وجاءت على ألسنة الباحثين. من ذلك ماجاء عن موقف اليهود من قول الله - تعالى - : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1] حيث «قالت اليهود لعمر : إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر : إنى لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت؟ وأين رسول الله - ﷺ - حين أنزلت : يوم عرفة وإنا والله بعرفة»[2].

وجاء فى إنجيل[3] يوحنا على لسان المسيح فى حديثه عن سيدنا محمد - ﷺ - ورسالته : «وإنما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بأمور

---

(١) سورة المائدة : آية ٣.

(٢) رواه البخارى فى كتاب التفسير باب قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ابن حجر : فتح البارى ١٧ / ١٣٩.

ورواه مسلم فى كتاب التفسير النووى : شرح مسلم ١٨ / ١٥٣.

(٣) تنسب الأناجيل إلى كاتبيها وليس إلى المسيح لأنها روايات وحكايات يصور فيها كل كاتب الأمور من وجهة نظره، وهذا فى اعتقاد المسيحيين، أما القرآن الكريم فيقرر أن الله أنزل على عيسى بن مريم إنجيلا واحداً، ولما ضاع هذا الانجيل كتب المسيحيون كل هذه الأناجيل البشرية.

آتية»[١] وهذا تصريح من المسيح أن رسول الله محمداً - ﷺ - «يدعو إلى الحق جميعه لأنه أوتى الشريعة كاملة غير منقوصة خالدة لكل زمان ولكمالها كانت هى الخالدة»[٢].

ولنسمع إلى مايقوله أساطين الفقه وعباقرة القانون فى العالم عن شمولية الشريعة، ومبادئها الحية، نسوقها لمن لا يؤمن بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من ديار الغرب.

يقول الدكتور «إيزكو إنساباتو» : «إن الشريعة الإسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوربية، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا».

ويقول الدكتور «هوكنج» : «إن فى نظام الإسلام أستعداداً داخليا للنمو، وإنى أشعر بأنى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض»[٣].

وفى مؤتمر القانون الدولى المقارن فى لاهاى الهولندية عام ١٩٣٧ قرر مايلى :

- اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.
- اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور.
- اعتبار التشريع الإسلامى قائما بذاته وليس مأخوذاً من غيره.

كما أصدر المجمع الدولى للحقوق المقارنة فى كلية الحقوق بجامعة باريس عام ١٩٥١ قراراً جاء فيه :

---

(١) يوحنا : إصحاح ١٦ / ١٣.

(٢) د . خليفة العسال : معالم الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى ط ثانية ٢٠٠١ / م ص ٦٠.

(٣) عبدالله علوان : محاضرة فى الشريعة الاسلامية وفقهها ومصادرها، دار السلام ط أولى ١٩٩٠/م ص ١٩.

- إن مبادئ الفقه الإسلامى لها قيمة حقيقية تشريعية لا يجارى فيها.

- إن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوى على ثروة من المفاهيم والأصول الحقوقية هى مناط الإعجاب وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستوعب لجميع مطالب الحياة والتوفيق بين حاجياتها»[١].

ولا يبقى إلا أن نقرر ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾[٣].

ثالثا: خاصية العموم

(أ) مفهوم العموم.

يقال: عمهم الأمر يعمهم عموماً: شملهم[٤]، وعم الشئ عموماً: شمل، والنبات: طال، والقوم بالعطية عموماً شملهم، ويقال: عم المطر الأرض. ورأسه عماً: لفه بالعمامة»[٥]. وعمم لرجل: سود، وعمم القوم فلانا أمرهم: قلدوه إياه أو ألزموه إياه فصار ما جاء للعامة»[٦].

وبالتأمل نرى أن هذه المادة اللغوية للعين والميم تدور حول معانى الشمول والارتفاع والدوران والصدارة وسمو المكانة والتفرد.

وقد جاءت النظم الإسلامية لتشمل كافة الناس فى كل زمان وفى كل مكان، وهى من خلال مقوماتها تتبوأ الصدارة بين النظم الأخرى، فهى

---

(١) أنور الجندى: معلمة الاسلام ١ / ٥٨٢.

(٢) سورة النمل: آية ١٤.

(٣) سورة الصف: آية ٩.

(٤) ابن منظور: لسان العرب ٤ / ٣١١٢.

(٥) المعجم الوسيط ٢ / ٦٢٩.

(٦) لسان العرب ٤ / ٣١١١، والمعجم ال... ٦٢٩.

ملزمة للجميع وهى ملجأ الجميع، وهى تدور مع الإنسان حيث وجد وأينما كان.

وعموم الشريعة الإسلامية ونظمها هذا غير مقصور على فترة معينة من الزمن أو جيل خاص من البشر، وإنما هو عموم فى الزمان كما هو عموم فى المكان، ولهذا فهو باق لا يزول ولا يتغير ولا ينسخ»[١].

(ب) ركائز العموم.

تبنى العلوم الإسلامية، وتؤسس الأحكام والخصائص النظمية فى الفكر الإسلامى على أدلة ثابتة متواترة يحملها القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذ الأدلة تمثل البناء العقلى والفكرى، والاطمئنان القلبى لكل مسلم، وقد قامت الأدلة الشرعية المتعددة مؤكدة عموم النظم الإسلامية لكل الناس، يقول تعالى : ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾[٢] ويقول تعالى ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)**﴾[٣] والإسلام هو أساس النظم، وإذا كان الإسلام هو الدين - أى النظام - الذى ارتضاه الله للإنسان فى كل زمان ومكان، كانت نظمه لازمه وعامة ولا يصح غيرها عند الله. وقد جاءت رسالة سيدنا محمد - ﷺ - عامة لكل الناس، وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)**﴾[٤].

---

(١) د . عبدالكريم زيدان : أصول الدعوة ٥٤.

(٢) سورة آل عمران : آية ١٩.

(٣) سورة آل عمران : آية ٨٥.

(٤) سورة الأعراف : آية ١٥٨.

وتلك أدلة العموم الكونية والأنفسية، فالله له ملك السماوات والأرض، وهذا دليل كونى، والله يحى ويميت وهذا دليل إنسانى، وبذلك أصبحت النتيجة حتمية والحقيقة واضحة، وهى لزوم الإيمان بالله ورسوله والنظم التى شرعها الله وأنها عامة للناس جميعا، عموم ملك الله للسماوات والأرض، وتلك صورة توضيحية لتحقيق المساواة بين الناس فى تقديم الدليل. ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾[٢] وفى هذه الآيات إعلان واضح بعموم الرسالة الإسلامية ونظمها إلى كل من يبلغه نداؤها ونصل إليه دعوتها وأحكامها وقواعدها[٣] يقول تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾[٤].

وهذا العموم خاص برسالة سيدنا محمد - ﷺ - وهذا مايقرره فى قوله : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى. وأعطيت الشفاعة. وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة. وبعثت إلى الناس عامة»[٥].

يقول الإمام ابن حجر : «وظاهر الحديث يقتضى أن كل واحدة من الخمس المذكورات لم تكن لأحد قبله وهو كذلك. ولا يعترض بأن نوحاً - عليه السلام - كان مبعوثا إلى أهل الأرض بعد الطوفان لأنه لم يبق إلا من كان

---

(١) سورة سبأ : آية ٢٨.

(٢) سورة الفرقان : آية ١.

(٣) انظر د . خليفة العسال : معالم الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى ط أولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م /١٤٠.

(٤) سورة الأنعام : آية ١٩.

(٥) رواه البخارى فى كتاب التيمم. فتح البارى ٢ / ٤٤٣.

مؤمنا معه، وقد كان مرسلاً إليهم، لأن هذا العموم لم يكن فى أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الذى وقع وهو انحصار الخلق فى الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما نبينا - ﷺ - فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك»(١).

إن مايرشد إليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من تقرير عالمية الدعوة الإسلامية يبين بداهة عموم النظم المنبثقة من هذه الدعوة العالمية الموجهة للناس كافة، وهذا بخلاف النظم الأخرى. تلك التى تتسم بالمحلية والقومية والاقليمية والخصوصية»(٢).

ثانيا: البراهين العقلية.

تفردت النظم الإسلامية بعمومها لجميع البشر دون غيرها من النظم الوضعية وكذلك رسالات الأنبياء السابقين، والمتأمل يرى أنه لم يأت نبى آخر غير محمد - ﷺ - برسالة عامة لجميع البشر، ولم تأت رسالة غير الإسلام شملت دعوتها الناس جميعا، فالرسالة الموسوية كانت قاصرة على بنى إسرائيل يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾(٣) وامتدت إلى فرعون بحكم المجاورة والملابسة التى كانت بينه وبين بنى إسرائيل بحكم تواجدهم فى مصر، وقد كان مطلب موسى - عليه السلام - من فرعون ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٤) ولغة الخطاب من موسى - عليه السلام - تفيد وتؤكد أن رسالته كانت مخصوصة ببنى إسرائيل وأنه لم يرسل إلا إلى قومه يقول تعالى:

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٥٦.

(٢) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٤٠.

(٣) سورة الصف : آية ٥.

(٤) سورة الشعراء : آية ١٧.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾(١)، واليهود يقرون بذلك فهم لا يدعون إلى شريعتهم غيرهم من الأمم.

وأما بالنسبة لرسالة عيسى ابن مريم - عليه السلام - فالأدلة على خصوصيتها ببنى إسرائيل أكثر من أن تعد، منها ماجاء فى الأناجيل كقول عيسى المنسوب إليه: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»(٢). وهناك نصوص أخرى يمتلئ بها العهد الجديد(٣).

ومنها ماجاء فى القرآن الكريم على لسان عيسى ابن مريم - عليه السلام - وهو يوجه خطابه إلى بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾(٤). وقد أخبر الله - تبارك وتعالى - عن ذلك فى قوله: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(٥).

ومن تم تبقى خاصية عموم الرسالة والنظم مقصورة على الرسالة المحمدية، وفض الاشتباك الفكرى فى هذه القضية، يتطلب الهدوء فى التفكير وقراءة الواقع الإنسانى، والإقرار بالحكمة الإلهية المنزهة عن العبث، بعيداً عن التعصب العرقى والجنسى والاستسلام للسلطة الزمنية التى ضل وأضل بسببها الكثيرون.

فنقول: الدين هو الإسلام منذ آدم وإلى أن تقوم الساعة، والرسل هم حملة الرسالات التى تمثل الإسلام، وحكمة الله تقتضى العدل والرحمة، ومن ثم تعددت الرسالات قبل رسالة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - تبعا لأسباب بيئيته وأخرى إجتماعية وثالثة إعلامية علمية، وعندما قارب الإنسان عصر التقدم

---

(١) سورة المائدة : أية ١٩ ، ٢٠ سورة الصف : أية ٥.

(٢) إنجيل متى إصحاح ١٥/ ٢٤.

(٣) للتوسع فى ذلك يراجع بحث «النصرانية بين المحلية والعالمية» دراسة تحليلية د. محمد عبدالعزيز عوض، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد السادس عشر ١٤١٩هـ ١٩٩٨/م.

(٤) سورة الصف : أية ٦.

(٥) سورة آل عمران : أية ٤٩.

الذى تلاشت فيه المسافات وزالت فيه تلك الأسباب كان من الحكمة عالمية رسالة الإسلام الأخيرة جمعاً للبشرية على كلمة سواء فكانت رسالة سيدنا محمد - ﷺ.

أما الذين يعتقدون تعدد الأديان السماويه، ويفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض فهؤلاء عزلوا الدين عن واقع الحياة ومعطيات العلم، ولو أعملوا العقل فى مبتكرات الإنسانية التى تهدف إلى التوحد والوحدة فى الهيئات والمؤسسات، وكذلك التوحد والوحدة فى القانون الذى يحكم كل المخلوقات، لخرجوا من دائرة الخلط إلى دائرة الحقيقة، وأقروا بأن عموم الرسالة للبشرية أمر إلهى ومطلب إنسانى، ولكن ليس على طريقة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو محكمة العدل الدولية أو وحدة العملة الأوربية والسوق المشتركة والأحلاف العسكرية والنظم الاشتراكية أو الديمقراطية أو العولمة المادية أو منظمة حقوق الإنسان، وإنما هى وحدة الدين والعبودية لله وتطبيق القوانين الإلهية كاملة متكاملة ولن يكون ذلك فى غير الإسلام صاحب الشريعة العامة والنظم الصالحة لكل زمان ومكان.

«إن الله وضع فى الإسلام من الخصائص مايؤكد عالميته من حيث إنه لم يرتبط باسم شخص أو قبيلة كما ارتبطت اليهودية (بيهوذا) وكما ارتبطت المسيحية بالمسيح أو بأنصاره، ولكن الإسلام ارتبط بأمل يراود الناس جميعا ذلك الأمل هو السلام »(١). فمصطلح الإسلام فطرى وعلمى وقانونى لوضوح أركان العقد وتوافرها فيه، فهو يشمل الإنسان كمسلم والله هو الذى يسلم الإنسان إليه وجهه ورسالة الإسلام ونظمه هى برنامج وبنود العقد، والسلام هو المقصد والغاية والهدف وهو الوسيلة كذلك. ومما لاشك فيه أن عموم رسالة الإسلام ونظمه يعنى ختم الرسالة، وختم الرسالة مسبوق بختم النبوة بقول تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن

---

(١) د. خليفة العسال: معالم الدعوة الاسلامية فى عهده المكى ١٤٢.

﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(١). ومقررات هذه الآية وحقائقها تحمل دليلا عقليا لمن يريد الله به الهداية، حيث لم يدع أحد بعد رسول الله - ﷺ - النبوة - اللهم إلا نبوة كاذبه لايؤيدها منهج تدعو إليه، ولا سنن كونية أو أنفسية تدعمها - فضلاً عن أن يدعى الرسالة. ولم يقم نظام - فى غير الإسلام - استطاع أن يحقق للبشرية الأمن والأمان، وواقع الحروب والتفرقة العنصرية أصدق دليل على ذلك ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين.

إن التوحد خير من التشرذم، والتعاون على البر والتقوى خير من التعاون على الإثم والعدوان، ولكن أين النظام الذي يوحد الناس عقيدة وفكراً، قيما وأخلاقا، وسائل وأساليب، مقاصد وغايات؟ إن مفردات النظم الإسلامية لرسالة سيدنا محمد - ﷺ - تجعلها بمعيار العلم الصادق والحقائق الثابتة وما انتهى إليه العلماء فى كل التخصصات، أولى النظم بالقبول وألزمها للإنسان بالإيمان والتصديق. ولكن.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(٢).

ويعجب الإنسان ويتساءل مردداً قول الله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(٣). ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(٤). ويزول العجب عندما يقرأ الإنسان قول الله - تعالى -: ﴿ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٠.

(٢) البوصيرى: بردة المديح، الشمرلى ١٩٧٧/م ص ٢٤.

(٣) سورة النساء: آية ٧٨.

(٤) سورة محمد: آية ٢٤

(٥) سورة الروم: آية

(٦) سورة العنكبوت: آية ٦٣.

(جـ) مجالات العموم:

ماهو المدى الذى تمتد إليه حقيقة العموم فى الشريعة والنظم الإسلامية؟

وماهو المستوى الذى تحققه وتصل إليه النظم الإسلامية فى عمومها؟

وماهي المساحة التى تتعامل معها النظم الإسلامية عندما نقول بأنها عامة؟.

وحتي يتسنى لنا التوضيح والبيان نقول: إن المجالات التى تغطيها النظم الإسلامية من خلال خاصية العموم كثيرة.

العموم الكونى:

أقام الله الكون على نظام أخص سماته العموم، فالكون أرضه وسماؤه يخضع لهذا النظام العام، وأهم مظاهر هذا النظام.

الطاعة والانقياد لله رب العالمين يقول تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾[3]. فالكون كله بما فيه ومن فيه محكوم بقانون عام هو الطاعة والانقياد لله رب العالمين تسبيحاً وسجوداً، خوفاً وخشية.

---

(١) سورة الاسراء: آية ٤٤.

(٢) سورة فصلت: آية ١١.

(٣) سورة الحج: آية ١٨.

* عموم النظام لكل المخلوقات، فقد خلق الله الكون بالحق وللحق، فكل مخلوق يؤدى دوره من خلال نظام عام وسنن ثابتة جمع الله عليها كل المخلوقات تتصل بالتسخير وطريقة العمل وتحقيق المنفعة للإنسان. يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾(٣). ويقول تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(٥). ويقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾(٦). ويقول تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(٧).

إن الكون وكل مافيه يسير حسب ناموس عام وسنة ثابتة، وهذا النظام العام بأمر الله وبتقدير الله وبتسخير الله الذي قدر فى كل شئ أسباب قوته وأمده بأسباب هدايته، وهنا يكمن الفرق واضحاً بين الكون فى النظم الإسلامية والكون فى النظم الوضعية.

• العموم المكانى:

جاءت نظم الإسلام لتعم المكان الذى يتحرك فيه الإنسان ومن خلاله، والإنسان يتحرك على الأرض، فالنظم عامة لكل إنسان على ظهر الأرض

---

(١) سورة الجاثية: آية ١٣.

(٢) سورة طه: آية ٥٠.

(٣) سورة الأعلى: آية ١:٣.

(٤) سورة الرحمن: آية ٥.

(٥) سورة القمر: آية ٤٩.

(٦) سورة الروم: آية ٢٥.

(٧) سورة فاطر: آية ٤٣.

يقول تعالى:﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾(١). وأم القرى هى مكة، وفيها البيت العتيق، والدنيا كلها تعتبر حول مكة التى تمثل مركز الأرض، ومنها انطلقت النظم الإسلامية لتعم من حول مكة من العقلاء فى كل بقاع الأرض، فأم القرى «مكة التى هى أم الأرض وأصلها، منها دحيت ولشرفها أوقع الفعل عليها، عداً لها عداد العقلاء، ثم بين أن المراد أهلها بقوله «ومن» أى وتنذر من «حولها» وهم سكان جميع الأرض التى هى أمها. وبذلك فسره البغوى فقال: قرى الأرض كلها، وكذا القشيرى وقال: العالم محدق بالكعبة ومكة لأنها سرة الأرض»(٢).

فالناس فى جميع القارات والدول والجزر والقرى والبلاد تعمهم النظم الإسلامية وهم مطالبون بها ومدعوون إلى الإيمان بها وتطبيقها، وإذا كانت الأرض هى الكوكب الذى يعيش عليه الإنسان فإن عموم الدعوة الإسلامية ونظمها يتسع ليعم عوالم أخرى ومدارات أوسع وأرحب، وإلى هذا يشير قول الله - تعالى - :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٣). وقوله تعالى:﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحْمَةً لِّلعالمين ﴾(٤). ويقوله تعالى:﴿ وما أرسلناك إلاَّ كافَّةً لِّلنَّاس بشيراً ونذيرا ﴾(٥). وكلمة (العالمين) لاشك أنها كلمة فاجأت العرب من ناحيتين على الأقل: ناحية الجمع وناحية تذكير الجمع، فالعرب لم يكونوا يعرفون إلا عالماً واحداً هو الذى كانوا يعيشون فيه، ولكن حرفية اللفظ القرآنى، وحقيقة الجمع القرآنى يقتضيان أن تكون هناك عوالم أخرى»(٦).

---

(١) سورة الشورى: آية ٧.

(٢) البقاعى: نظم الدرر ٦/٦٠٢، القشيرى: لطائف الاشارات ٣/٣٤٣.

(٣) سورة الفاتحة: آية ٢.

(٤) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

(٥) سورة سبأ: آية ٢٨.

(٦) د. محمد أحمد الغمراوى: الإسلام فى عصر العلم، دار الكتب الحديثة ١٩٧٧م ص ٢٦٠ ومابعدها.

وبذلك فنظم الإسلام تعم عوالم كثيرة، ولايضرنا اختلاف العلماء فى تحديد مفهوم هذه العوالم. فالدعوة ونظمها مرتبطة بالإنسان أنى وجد فى هذا المكان الذى يشمل الأرض ويتسع لكل العوالم الأخرى.

العموم الزمانى:

ولد رسول الله - ﷺ - عام الفيل[١]. وأرخوا لذلك ميلاديا بعام ٥٧١م[٢]، وبعث بعد ذلك بأربعين سنة[٣]، وهو مايقارب عام ٦١١م، ومنذ ذلك الحين وعطاء النبوة يتدفق، وأنوارها تشع وتتلألأ فى مكان معلوم يعم الأرض كلها ويسرى فى العوالم كلها، وفى أزمنة متصلة ومتواصلة وأجيال متلاحقة ومتعاقبة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفى هذا الزمان الممتد تمتد النظم الإسلامية لتعمه بأكمله، فهى نظم لاتعقبها نظم أخرى، فكل الأجيال إلى يوم القيامة يشملهم عموم الدعوة الإسلامية، وبالتالى فالنظم الإسلامية عامة فى كل الزمان منذ انطلاقها وفى الحاضر والمستقبل، وذلك لتجدد العطاء فى النظم الإسلامية يشير إلى ذلك، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٤]. والسين للاستقبال، أى سيظهر لهم من الآيات ومن الأحداث التى تجرى فى أحوال العالم، وماسيحل بهم من اختلاف الأمور مايتبين لهم من خلاله أن هذا الدين حق، وأن هذا الكتاب حق، وأن محمدا - ﷺ - حق، وأن المجرى لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحق - سبحانه»[٥].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية وشرحها الروض الأنف، دار المعرفة ١٩٧٨م ١/١٨١.

(٢) محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، دار نهر النيل ٠٩ ومن الباحثين من يرى أن الولادة كانت فى عام ٥٧٠م انظر د. محمد بن محمد أبو شهبة: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، دار القلم ط رابعة ١٩٩٨م ١/١٧٣.

(٣) انظر صحيح البخارى، هامش فتح البارى. كتاب المناقب باب صفة النبى ﷺ ١٤/٥٣.

(٤) سورة فصلت: آية ٥٣.

(٥) القشيرى: لطائف الاشارات ٣/٣٣٩.

ومن الآيات التى تشير إلى عموم النظم الإسلامية الزمانى قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾(١).

وهذا لايتأتى إلا بالعموم الزمانى الدائم والمستمر مع الزمان، وكلما جد للناس جديد فى النظم البشرية الوضعية كانت النظم الإسلامية أظهر وأقوى لأنها هى الهدى وهى النظام الحق، وبذلك يقيم الله الحجة على خلقه وتشهد عليهم هذه النظم وتدينهم يوم القيامة لتطابقها مع واقع الإنسان ومسايرتها للحقائق التى وصل إليها الإنسان.

إن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم يخرج من مشكاة الاعجاز اللغوى الذى ركبت منه الكلمات ورتبت منه الآيات والجمل، ومن ثم كان الإعجاز العلمى هو لغة الدعوة إلى الله فى زمن لغته الكشف عن السنن والقوانين، وهذا مايؤكد العموم الزمانى المستمر والمتواصل للنظم الإسلامية، فقد تحدثت النظم عن خلق الإنسان، وعن خلق الكون، وعن المحرمات والموبقات، وعن الحلال والطيبات، وكانت فى حديثها تدعو المسلم وغيره إلى البحث والدراسة فى كل ذلك، مع استيعابها للمعالم الرئيسية والخطوط الأساسية لهذا الاعجاز، وكشفها عن بعض السنن التى لم يهتد إليها الإنسان، فذكرت العلاقة القائمة على القانون الثابت الذى لايتغير بين الطاعة لله والاستجابة لأمره ونهيه، والوقوف عند الطيبات وبين البركة والنصر من الله والنور، وسعة الرزق والعلم اللدنى وغير ذلك، وبين المخالفة لأوامر الله وتغيير شرع الله واستبداله بغيره والوقوع فى ارتكاب المحرمات سواء فى الأموال أو الأعراض أو الطعام والشراب وبين ظهور الفساد والافساد والمعيشة الضنك، وعمى البصيرة، وظهور الأمراض والحروب والعدادات.

---

(١) سورة الفتح:آية ٣٨، ٣٩.

وماذلك إلا لأن الطاعات وأثرها محكومة بسنة إلهية وقانون ربانى، والمعاصى والمخالفات وارتكاب المحرمات محكومة بقانون لايتخلف.

وهذا عموم زمانى يؤكده العلم التجريبى فى أبحاثه التى تكشف أسرار هذه القوانين الاجتماعية الحاكمة لحياة الإنسان والمجتمع والأمة.

وفى ظل العموم المكانى والزمانى لايبقى لأحد عذر فى عدم البحث عن الإسلام ونظمه لكى يؤمن به وخصوصا فى هذا العصر الذى أصبحت الأرض فيه قرية صغيرة.

وقد أشارت السنة النبوية إلى العموم المكانى والزمانى فى أحاديث عديدة منها قول النبى -ﷺ-:

«ثلاثة» يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى - ﷺ - فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبدمملوك أدى حق الله - تعالى - وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» وعند البخارى «وآمن بمحمد - ﷺ -[1] وقوله: «والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2]. وهذا يفيد أن أهل الكتاب هم أولى الناس بالإيمان وتصديق رسول الله - ﷺ - «فمن آمن به واتبعه منهم كان له فضل على غيره، وكذا من كذبه منهم كان وزره أشد من وزر غيره»[3]. فقد قرر رسول الله -ﷺ- أنه «لايسمع بى أحد من هذه الأمة أى ممن هو

---

(١) الحدبث فى صحيح البخارى ومسلم واللفظ لمسلم.

* صحيح البخارى كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله. فتح البارى ٢٩٢/١.
* صحيح مسلم شرح النووى كتاب الايمان باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ - ١٨٧/٢.

(٢) مسلم بشرح النووى كتاب الايمان باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ ١٨٦/٢.

(٣) ابن حجر العسقلانى. فتح البا

موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته، وإنما ذكر اليهودى والنصرانى تنبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لاكتاب له أولى والله أعلم»(١).

وهناك حقيقة غيبية يؤمن بها المسلم لإخبار الصادق المصدوق بها، وهى قول سيدنا محمد - ﷺ -: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم - ﷺ - حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد»(٢).

وتلك إشارة صريحة إلى استغراق النظم الإسلامية للزمان وعموميتها له، فإن نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - لتأييد العموم الزمنى للنظم الإسلامية وذلك من خلال محاربته لما يخالفها حتى ولو كان من عقائد النصارى فإنه سيكسر الصليب حقيقة ويبطل مايزعمه النصارى من تعظيمه،(٣) وسيقتل الخنزير وهم يستبيحونه وهو محرم عليهم بنص العهد القديم «والخنزير فإنه ذو ظفر ولكنه لايجتر فهو رجس لكم لا تأكلوا شيئا من لحمها وميتتها لاتمسوا»(٤)(٥).

وكل هذه الأعمال من عيسى ابن مريم إنما هى من النظم الإسلامية التى جاء بها سيدنا محمد - ﷺ - ودوره فيها أنه «ينزل حاكما بهذه

---

(١) النووى: صحيح مسلم بشرح النووى ١٨٨/٢.

(٢) المصدر السابق ١٨٩/٢.

(٣) تعظيم النصارى للصليب وتقديسه ثابت فى كتبهم الأصيلة لديهم، ويرجع إلى مجمع نيقية الأول ٣٢٥م. انظر د. محمد رجب الشتيوى: المجامع المسيحية وأثرها فى النصرانية ١٩٨٧م ص ٣٠٠.

(٤) تثنية: ٨/١٤.

(٥) يرجع استباحة النصارى أكل لحم الخنزير إلى مجمع أورشليم المحلى حيث أحل فيه بطرس لحم الخنزير استناداً على رؤيا رآها - أعمال الرسل: ١٠/١٠: ١٦ المصدر السابق ١٠٤.

الشريعة لاينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة»[١]. من كل ماسبق يتبين لنا عموم النظم الإسلامية، وذلك لعالمية دعوتها التى عمت الزمان والمكان بل والعالمين إنسا وجنا.

(د) مقومات عموم النظم الإسلامية:

من السهل أن يدعى بعض الناس عالمية نظام معين، ولكن هذا الادعاء مرهون بالمقومات التى تصدق مايقول، وهذا هو ردنا على كل من يزعم عالمية أى نظام وضعى، أو عالمية دين محرف لعبت به الأيدى والأهواء، أن يأتينا بالمقومات التى تشهد له بعموم نظامه، ولكن كيف تحدد المقومات، وكيف تختار، وهل تصلح لأن تطبق على الجميع فى كل الأزمان والأماكن؟.

وقد يقال هنا: لماذا كانت الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع، أما كان من الأفضل استمرار تنزل الشرائع الإلهية؟.

والجواب لا، لأن تنزل الشرائع ليس من قبيل العبث واللهو، وإنما هو لسد نقص فى تشريع سابق، أو لإكماله بتشريع لاحق مناسب لمستوى البشرية، وحيث إن الشريعة الإسلامية كاملة تامة سدت كل مالم تأت به الشرائع السابقة وأكدت ماجاءت به هذه الشرائع السابقة فلا حاجة ولاداعى لمجئ شريعة أخرى»[٢].

وقد قدر الله بسابق حكمته وعلمه أن الإنسانية قد وصلت إلى رشدها فى عصر محمد – ﷺ – وأنه بالتالى يمكن أن تختم الرسالات الإلهية وتتوج بالرسالة الأخيرة، وليس معنى تقدم العلوم والصناعات المستمر أن الانسانية لم تبلغ رشدها العقلى منذ ذلك الحين، إذ أن هذا التقدم ليس إلا نتيجة

---

(١) النووى: شرح صحيح مسلم ٢/١٩٠.

(٢) انظر د. عبدالكريم زيدان: أصو[illegible]

طبيعية لنمو الخبرة ونضوجها ورقى الالات التى يستخدمها، وإلا فإن الأساس العقلى والفكرى واحد لايتغير»[١].

وبالتأمل فى الشريعة والنظم الإسلامية نجد أن مقومات عمومها وعالميتها وبقائها يتمثل فى:

أولاً: رعايتها للمصالح الإنسانية:

وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد فى العاجل والآجل معاً[٢]، وقد حرصت الشريعة الإسلامية بنظمها على مصالح الإنسان الحقيقية، فجميع أحكام النظم الإسلامية فى جميع المجالات تتصف بذلك وتعمل على تحقيقه جلباً للمصلحة ودرءا للمفسدة، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة. وهذا ماتؤكده رسالة الرسول - ﷺ - فى عمومها، فقد بعثه الله رحمة للعالمين، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٣]. ومن شأن الرحمة رعاية مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم. وتؤكده نظم الشريعة التى بعث بها، وذلك عندما يقرن القرآن الكريم بين الأحكام والمصالح المترتبة عليها يقول تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[٤]. ويقول تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٥]. ويقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾[٦]. وتلك نماذج لقيام النظم الإسلامية ورعايتها لصالح الإنسان وخيره وتحقيق أمنه

---

(١) د. عبدالكريم عثمان: معالم الثقافة الاسلامية، مؤسسة الرسالة ط الخامسة عشرة ١٩٩١/م ص ٥٢.

(٢) الشاطبى: الموافقات ٦/٢.

(٣) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

(٤) سورة البقرة: اية ١٨٤.

(٥) سورة البقرة: آية ١٧٩.

(٦) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

وسلامته. وهكذا بقية الأحكام بلا استثناء لايخرج منها أى حكم سواء أكان من أحكام الاعتقادات أم العبادات أم غير ذلك»[١].

وعندما يتعرض الإنسان للحرج والمشقة فإن النظم الإسلامية ترفع عنه هذا الحرج إبقاءً على حياته وحفظا لها، وهو ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة، ومن ذلك مشروعية الرخص، وإباحة المحرم عند الضرورة مثل أكل الميتة عند الهلاك وإباحة الفطر فى رمضان للمريض والمسافر، ومن هنا كانت النظم الإسلامية «يسراً لاحرج فيه ولا عسر ولا إرهاق.. ومن فروع هذا الأصل أن الواجب الذى يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا»[٢].

إن الإنسان مخلوق مكرم، ومن ثم جاءت الشرائع والنظم الإسلامية للمحافظة على هذا التكريم، وذلك برعاية مصالحه فى كل مايلزم حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات.

يقول الإمام الشاطبى: «تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها فى الخلق. وهذه المقاصد لاتعدو ثلاثة أقسام: (أحدها) أن تكون ضرورية (والثانى) أن تكون حاجية (والثالث) أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية: فمعناها أنها لابد منها فى قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفى الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين... ومجموع الضروريات خمسة. وهى: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.

---

(١) ـ عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة ٥٦.

(٢) محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى، الزهراء للاعلام العربى ١٩٨٨/م ١٨١.

وأما الحاجيات: فمعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع

[illegible]

فإذا لم تراع دخل على المكلفين الحرج والمشقة.

وهى فى العبادات كالرخص المخففة، وفى العادات كإباحة الصيد والتمتع بالطيبات وفى المعاملات كالسلم والمساقاة، وفى الجنايات كضرب الدية على العاقلة، وتضمين الصناع وماأشبه ذلك.

وأما التحسينات: فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التى تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.

وهى فى العبادة كإزالة النجاسة، وستر العورة، وأخذ الزينة، وفى العادات كآداب الأكل والشرب، ومجانبة المآكل النجسات والمشارب المستخبثات والاسراف، وفى المعاملات كالمنع من بيع النجاسات وفضل الماء والكلأ»(١).

وكل ماسبق يبين لنا ويؤكد أن الشريعة الإسلامية بنظمها العامة الدائمة لايمكن أن تضيق بحاجات الناس الضرورية أو أن تقف فى سبيل سعادتهم واستمتاعهم بالطيبات.

ثانيا: القواعد العامة والأحكام التامة:

تقوم النظم الإسلامية على قواعد عامة أساسية، تساعد على حفظ توازن الوجود فى جميع المجتمعات، وذلك «بسهولة ويسر تطبيقها فى كل زمان ومكان، وقد صيغت بكيفية تمكنها من سهولة هذا التطبيق

---

(١) الشاطبى: الموافقات ٢/٨ ومابعدها باختصار.

ويسره، كما أن معناها الحق لايمكن أن يتخلف عن أى مستوى عال يبلغه أى مجتمع، وبالتالى يتسع لكل مصلحة جديدة، كما أن هذه القواعد والمبادئ تعتبر كالأساس لما يقوم عليها من أحكام جزئية ولما يتفرع عنها من فروع»(١). من هذه القواعد والمبادئ، مبدأ الشورى، وهو مبدأ عام يشمل المجتمع فى أبسط مؤسساته وأعظم هيئاته، ويدخل فى ذلك نظام الحكم وغيره من الأمور التى لم يرد فيها نص قطعى يحدد أسلوب التنفيذ.

وهذا المبدأ وتلك القاعدة تعتمد على قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى غرسها الإيمان فى قلب المسلم وعقله، وتعتمد على خلق الرحمة والترابط وحب الحق، فهى ليست شورى فوضوية أو لتحقيق أهداف مادية أو تعمل تحت مبدأ العنصرية، ومن ثم فنتاج الشورى يعرض على الأحكام والقواعد الكلية للشريعة، يقول تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٢). يقول تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾(٣).

والشورى بذلك تجرى على أسس إيمانية وقواعد أخلاقية ترعى صالح المسلمين، وتحقق وحدة الصف، وتجيب على جميع التساؤلات، وتقضى على جميع الشبهات، وبذلك تضمن للجميع مبدأ الحرية التى رفع الإسلام بنظمه لواءها، وجعلها حقا للجميع، ولكنها حرية الصالح العام، والبناء لا الهدم.

---

(١) انظر د. عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة ٥٨.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٣) سورة الشورى: آية ٣٨.

ومن هذه المبادئ المساواة والعدالة، بين الناس جميعا بعيداً عن النظر إلى معتقداتهم أو أحسابهم أو أنسابهم، إنها العدالة المطلقة والمساواة الكاملة، بين الأفراد، وبينهم وبين المجتمع، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾(٢). ومما لاشك فيه أن كل إنسان مطالب بتحقيق العدل عندما يحكم سواء كان هذا الحكم بين الأفراد أو فى دائرة القضاء، والعدل والمساواة مبدأ يشمل جميع المجالات، فلابد أن يطبق فى الحقوق والواجبات، والجرائم والعقوبات.

إن هذه المبادئ مطلقة وليست نسبية يدفع إلى تطبيقها فى المجتمع الإسلامى وتحويلها من مجرد قاعدة إلى واقع حقيقى عوامل كثيرة تتصل بالعقيدة الإسلامية التى تزرع فى المسلم المراقبة لله والخوف منه فى الدنيا قبل يوم القيامة، وتتصل بالجانب الخلقى فى الإسلام، وتتصل بالثقافة الإسلامية التى تقرر وحدة الجنس البشرى وعبودية الجميع لله رب العالمين، وهنا يكمن الفرق بين النظم الإسلامية، وبين النظم الوضعية فى تطبيق مبدأ العدل والمساواة، وما أمر التفرقة العنصرية فى أوربا وأمريكا - وخصوصاً بين البيض والسود - عنابعيد.

وهناك الأحكام التامة التى تشمل كل الميادين الكونية والإنسانية بتفصيلاتها وجزئياتها المبينة فى كتب الفقة الإسلامى ومراجع النظم الإسلامية فى كل مايتعلق بالإنسان مادة وروحاً، من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق.

---

(١) سورة النحل: آية ٩٠.

(٢) سورة النساء: آية ٥٨.

ثالثاً: رعايتها للوسائل الحضارية والتربوية:

من مقومات العالمية الأساسية والضرورية الوسائل التى تحقق حضارة المجتمع وتصل به إلى أفق الوسائل التربوية التى تخدم أهدافاً نبيلة، ومقاصد أبدية، ولما كان مفهوم الحضارة نسبيا فى المذاهب الوضعية بسبب غياب المقاصد والغايات وبعدها عن بلوغ الصواب والحق فى ذلك، كانت حضاراتهم فاشلة لأنها لم تحقق للإنسان السعادة، وهذا أمر لا يستطيعه نظام بشرى أو تفكير عقلى أو تنظير إنسانى، ومن ثم كان تميز النظم الإسلامية وكانت عالميتها، وقد اختار الله لها أن تظهر فى الأفق العام مستوعبة الزمان، وذلك فى كيان الأمة التى قيامها فرض عين من جانب وفرض كفاية من جانب آخر، يقول تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

وبدون الأمة فلا قوة ولاكيان، وإنما الخطر كل الخطر، والتأخر كل التأخر، فقد خسر العالم الكثير والكثير بانحطاط المسلمين[2]. وحتى يعود المسلمون إلى ماكان عليه السابقون فلابد من التوظيف للوسائل الحضارية والأساليب التربوية المركوزة فى أصول الاسلام ونظمه، عقيدة وشريعة وأخلاقاً.

١) الوسائل الحضارية:

شأن المؤمن السمع والطاعة لشرع الله جملة وتفصيلا يقول تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

(٢) كتب الشيخ أبو الحسن الندوى كتابا طيبا بهذا الصدد تحت عنوان «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

رُسُله وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ﴾(٢).

وهذا الشأن وتلك الصفة لاتمنع المسلم من فقه الشريعة ونظمها وتصنيفها وتبويبها، فهذه مراجع الأحكام، وهذه أخرى لفهم مقاصدها والتعرف على أسرارها، وتلك ثالثة للوقوف على إعجازها وصلتها بمعطيات العلوم فى العصور والأزمنة المختلفة، وبالتأمل نرى أن النظم الإسلامية تحمل الكثير من الوسائل التى تؤكد عالميتها وعموميتها للجميع.

ففى جانب الفكر تأتى العقيدة صافية خالية من التعقيد أو اللبس أو التقليد، مدعمة بالأدلة المتنوعة والدلائل المختلفة فى النفس بعوالمها، والكون بآفاقه المتعددة، أدلة تحمل البساطة لتناسب من قصرت بهم المدارك عن التغلغل والبحث، وأخرى تحمل الدقة فى الدليل والشمول فى جوانبه، إنها أدلة العوام والخواص، يجدها الجميع فى الحقل والمصنع فى المتجر والمعمل، فى النظرة السطحية العابرة والتجربة البحثية المتأنية، وتلك تجليات الرحمة الإلهية والعدل والحكمة والإرادة والقدرة، وهذا لايتأتى فى غير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومثال ذلك أن الإنسان العادى يرى أدلة الوحدانية واضحة فى خلق السماوات والأرض، ويدرك حقيقتها عندما يرى دقة الصنع وحكمة الصانع، «والعالم يدرك الوحدانية بأسلوب أدق عندما يقف من خلال بحثه

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٥.

(٢) سورة النور. اية ٥١.

على قانون الوحدة الذي يحكم كل المخلوقات فى صورها المختلفة فالذرة فى جميع المخلوقات واحدة وتعمل بنظام واحد»[١]. وليس هذا بعجيب فالقرآن أثبت الوحدانية لله من خلال أدلة من السماء ومافيها والأرض وماعليها، ثم أتبع كل دليل من هذه الأدلة باستفهام كبير يسع كل التخصصات والمجالات الإنسانية وهو ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

ومن ثم كان التوحيد هو عقيدة المسلم وشعار الإسلام، «وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية، بل أكثر من يومية، حيث يكررها الفرد المسلم فى صلواته المفروضة فقط تسع مرات فى تشهده، وخمس مرات فى إقامته، ولم يكتف الإسلام بذلك بل شرع الأذان فى كل يوم خمس مرات ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائره بصوت جهير «أشهد أن لا إله إلا الله»[٣].

ولم يكن هذا عبثا وإنما ليجمع المسلم بين الشهادة اللفظية والحقيقة الكونية فيرى الوحدانية والتوحيد فى أبواب سعيه وميدان عملة ومفردات تجربته وبحثة. وعقيدة هذا شأنها تمس شغاف القلب وتتعانق مع الفطرة النقية صالحة لأن تجمع تحت رايتها المجتمع الانسانى قاطبة.

وفى جانب العبادات نرى الصلاة تبدأ بالطهارة والوضوء وصولاً إلى نظافة بدنية تتناسب مع دور الصلاة الحضارى وأهميتها فى بناء الفرد والمجتمع، فهيئة الصلاة وحركاتها وخصوصاً عندما تؤدى فى

---

(١) انظر د. يوسف القرضاوي: حقيقة التوحيد، مكتبة وهبة ط سابعة ١٩٨٩م ص ٩.

(٢) سورة النمل: آية ٦٣.

(٣) المصدر السابق ٣٠.

جماعة تطبيق لمبدأ المساواة بين الناس، وغرس لمبدأ الاتحاد والتعاون، وتدريب على النظام، وتدريب على العسكرية التى قوامها الطاعة والنظام»[١]، والصلاة ثقافة إسلامية وتعليم لأحكام الإسلام ومحاربة للأمية كما هو الحال فى الصلاة التى يجهر فيها الإمام بالقراءة، وهى فوق ذلك استنهاض للهمم وشحذ للعزائم واستحضار للقلب والعقل بعيداً عن النسيان والسهو فى حالة من الخشوع، وبذلك تجمع الصلاة بين الامتثال الظاهرى والباطنى، «فمن صلى بجسده وقام بأركان الصلاة كما أمر ظاهراً، وأنزل نفسه مع كل ركن من أركانها فى معانيها الباطنة، وفهم بروحه وعقله تلك المعانى، وشاهد المراد بكل ركن منها، فقد صلى بجسده وقلبه وروحه وعقله»[٢]. وقد جمع الله - تبارك وتعالى - كل هذه المعالم فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾[٤]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[٥].

وفى الزكاة والصيام والحج معالم حضارية تحقق عالمية النظم الإسلامية وعمومها، وتأتى المعاملات الإسلامية لتشمل الجانب الاقتصادى فى حياة الإنسان من خلال الوضوح فى العقود والصدق فى العرض والطلب، وتحريم الوسائل التى تضر بالآخرين، وتعطى لكل حقه فى

---

(١) انظر د. يوسف القرضاوي: العبادة فى الإسلام، مكتبة وهبة ط الخامسة عشرة ١٩٨٥م/ ٢٢٨ ومابعدها.

(٢) عبدالوهاب الشعرانى: أسرار أركان الإسلام، تحقيق عبدالقادر عطا، دار التراث العربى ط أولى ١٩٨٠م ٤٧.

(٣) سورة المؤمنون: آية ٢.

(٤، ٥) سورة المعارج: آية ٢٣، ٣٤.

الاختيار، وتطالب المسلم بعمارة الكون بالاستثمار، وتفتح أبواباًكثيرة ينتقل فيها المال، حتى تتحقق معالم العدل والمساواة بين الناس، وتقتلع كل وسائل الظلم من جذورها، ومن وقف على أبواب البيع والرهن والشركة والمساقاة والمزارعة وغير ذلك عرف أسلوب الإسلام ومنهجه الحضارى والضوابط التى وضعها لصيانة الأموال.

والأخلاق الإسلامية تقوم على الطهر وتحقيق الذاتية الإنسانية التى فطر الإنسان عليها بعيداً عن عوامل التأثير الداخلية والخارجية، من خلال تعريف الإنسان بأصول الأخلاق ومكارمها التى تفردت بها رسالة سيدنا محمد - ﷺ - القائل: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١]، وتعريفه بخوارق المروءة، والحدود التى يتحرك فيها المسلم عند الصلح بين المتخاصمين، وماقد يضطر إليه فى ساحة القتال، أو عند سياسته لزوجته، ومايتصل بذلك من ثبات القاعدة الأخلاقية فى الإسلام والتى تقوم على الصلة الوثيقة بين أطرافها المتمثلة فى الأصول والوسائل والغايات[٢].

ومن معالم الحضارة فى تعاليم الإسلام وأحكامه ونظمه الاهتمام بالملكات الإنسانية التى حافظ عليها الإسلام وتلك مرحلة ثم زكاها ونماها وتلك مرحلة أخرى وفتح أمامها المجالات التى تحقق لها ذلك فى النفس

---

(١) الحديث أخرجه البيهقى فى السنن، وله روايات أخرى منها «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وهذه الرواية فى الصغير برقم ٢٥٨٤ ورمز لصحته وعد من رواته البخارى فى الأدب المفرد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى شعب الإيمان، قال الهيثمى: رجال أحمد رجال الصحيح، وقال ابن عبدالبر: حديث متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيرة. السيوطى: جمع الجوامع رقم ٣١٣٩ - ٧٦٢٥ ورقم ٣١٤٠ - ٧٦٢٦.

(٢) للتوسع فى ذلك راجع:

الغزالى: إحياء علوم الدين، د. محمد عبدالله دراز: دستور الأخلاق . عبدالرحمن الجزيرى: الأخلاق الدينية والحكم الشرعية، محمد الغزالى: خلق المسلم.

والكون لتصل إلى العلاقة الثابتة بين أركان الإسلام وبين الدلائل القائمة فى الكون والنفس.

وقد جاءت الأوامر والنواهى فى الإسلام شاملة لأبواب الحلال والحرام وكلها تقوم على الحكمة البالغة والحجة الواضحة، التى تتصل بالمحافظة على الكليات الخمس، فالزواج مطلب اجتماعى وعمرانى، والزنا على العكس من ذلك فوضوى وتخريبى، والطيبات بحدودها تحقق الصحة والتوازن، والمحرمات تهدم وتقوض وتقتل الملكات فى جانبها الروحى والمادى معاً، ومن ثم كانت العلاقة قائمة بين النظم وبين تعقلها والتفكر فيها والبحث فى مراميها الإجتماعية ومقاصدها الصحية والعلمية.

ومن الأصول التى قررها الإسلام لتحقيق هذا التطور العالمى:

* وجوب الرجوع إلى العقل فى الأخذ بأية عقيدة دينية.
* طلب الدليل على كل مايتطلب التصديق.
* الاستماع إلى كل قول واتباع أحسنه.
* تصيد الحكمة من كل فطانها حتي ولو جاءت عن المشركين.
* طلب العلم من المهد إلى اللحد، وبذل كل جهد للوصول إلى لبابه.
* النظر فى السماوات والأرض، وفى جميع مايقع تحت سلطان المشاعر والتأمل فيها.
* السياحة فى الأرض لدراسة أحوال الأمم ، ومعرفة علل تقدمها وتأخرها أو هلاكها وبقائها.
* عدم الاعتداد بالعقائد الموروثة، ومحاكمتها إلى العلم والعقل وتطلب الدليل عليها.

* الامتناع عن التقليد وتطلب الامتناع الشخصي.
* اسشعار المسؤولية الشخصية، والاعتقاد بأن الإنسان لايغنى عنه أحد شيئا.

هذه أصول لو أخذت بها أمة فى عقليتها ونفسيتها ووجودها الإجتماعى تطور سريع لايقف دون إبلاغها أرفع مستوى تتوق إليه فى حياتها الأرضية.

ولو أخذت به الأمم قاطبة لتقاربت وتفاهمت وتعاطفت، وانتهت إلى الوحدة التامة، كما حدث للأمة الإسلامية وهى مؤلفة من عشرات من القوميات، وكما يحدث لمن يقبل الإسلام وينالـه، إذ يجد نفسه كأنه من المسلمين جسداً وروحاً، وينسى أنه من نابتة بيئة أجنبية. فالإسلام رسول الوحدة الإنسانية، والمهد لأكبر تطور روحى وعقلى وإجتماعى سيحدث فى العالم البشرى»[١].

٢) الوسائل التربوية:

خلق الله الإنسان على شاكلة تتوافق مع ماأودع الله فى الكون من أسرار وسنن، وتتوافق كذلك مع التعاليم التى شرعها، والنبى أو الرسول هو أداة تحقيق هذا التوافق والانسجام بين الإنسان وتعاليم الله، وحتي يحقق الأنبياء والرسل هذا التوافق فإنهم يتخذون لذلك وسائل وأساليب تتفق مع أصناف المدعوين، ويكون هذا توجيها من الله لهم يمدهم به من خلال الوحى، ومن ثم تتعدد الأساليب وتتنوع طرق الدعوة مابين ترغيب وترهيب وقصة ومثل، ودعوة للعقل لقراءة مافى

---

(١) محمد فريد وجدى: السيرة المحمدية [illegible] ضوء العلم والفلسفة، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م ١٠٥.

الكون والنفس من أدلة هادية وآيات مرشدة وعلامات مذكرة وآثار مذهلة، وقد فطر الله الأنبياء والرسل فى دعواتهم على التماس السبل المؤدية بأقوامهم إلى الإيمان.. وهذا التنوع فى الأسلوب والتغيير فى طريقة العرض هو آخر ماانتهى إليه أهل التربية وعلماء النفس والمهتمون بصالح الإنسان»(١).

وقد قامت النظم الإسلامية فى بنائها على هذه الأسس وتلك الوسائل والأساليب مراعية فى ذلك الجبلة الإنسانية ومايعتورها من قوة وضعف، وتباين واختلاف.

وعلى سبيل الإجمال نقول: القرآن الكريم هو مصدر النظم الإسلامية الأول، وقد جاءت صياغته العربية معجزة فى خطابها للإنسان، فقد جمعت بين الأساليب المختلفة والوسائل المتنوعة لتشمل جميع الناس، كما طرقت كل أبواب المعرفة وميادين العلم وآفاق الكون وجنبات النفس لتتيح للجميع الفهم، «ومن حكمة الله البالغة أن يكون خطابه للأمى غير خطابه للجاهل، كما أنه غير خطابه للعالم، فما يصلح لنفر من الناس شفاء وعلاجا، ربما يصلح لآخرين زيادة فى العلم، كما أنه يصلح لنفر ثالث توجيها وإرشادا، فكل خطاب من الله يصلح لكل مقام، وكل أناس يفهمون من كلامه تعالى حسب درجاتهم وكل كلام يصدر عن الله تعالى فيه حكمة بالغة للناس جميعا دون إسراف أو إقلال»(٢).

---

(١) د. محمدى عبدالبصير: الإنسان فى العهد القديم والقرآن الكريم دراسة مقارنة، رسالة دكتوراة بكلية أصول الدين القاهرة ١٩٩٦/م ١٧٣.

(٢) د. حسن الشرقاوى: نحو منهج إسلامى، مطابع السفير بالاسكندرية ١٢٣.

ومما يشير إلى ذلك ويؤكده «أن النبى – ﷺ – بعث بجوامع الكلم، ألفاظا محدودة تحمل معانى واسعة، لأنها مركزة تركيزاً يدل على حكمة واضعها، وعلى الغرض الذى من أجله صيغت بهذا الشكل لتكون صالحة لكل زمان تجد فيه حوادث ومشاكل، ولكل بيئة لها ظروفها وعرفها الذى يناسبه نوع خاص من فروع التشريع»(١).

وفى مجال الأحكام جاءت معالم التربية الإسلامية واضحة فى تلك القواعد التى تحكم الإنسان فى كل زمان ومكان، ومن أهمها :

* الوسطية التى تجمع بين حقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(٢) وبذلك فلا إفراط ولاتفريط ولا أنانية أو عنصرية، ولا شهوات بهيمية ولا حرمان أو رهبانية.

* التنوع فى وسائل الثواب والعقاب التى تناسب كل القطاعات والأحوال الانسانية انطلاقا من التخلى إلى التحلى ومن التدنى إلى الترقى، ومن الجمع بين الثواب والعقاب المادى والمعنوى الدنيوى والأخروى، وكل ذلك غايته «الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات»(٣).

---

(١) عطية صقر :الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه، مجمع البحوث الاسلامية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ٣٤.

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٣) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ١٨٠.

* الأخذ بالوسائل التعليمية، والرسوم المتحركة التى تساعد على الفهم والاستيعاب من مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) ﴾(١) وذلك لإخراج المعانى فى صورة المحسوسات، ومن مثل قول النبى - ﷺ - «إن من الشجر شجرة مثلها كمثل المسلم، فأردت أن أقول هى النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكت، قال النبى - ﷺ - هى النخلة»(٢).

وهذا تمثيل للحقائق الايمانية والقضايا الاعتقادية والقيم الأخلاقية بما يشرحها ويوضحها من الوسائل الكونية التى تحمل فى داخلها أدلة اليقين وبراهين الايمان. ومن وسائل التعليم فى الإسلام الأذان ولغته الواضحة وموضوعه الذى يلخص الإسلام وقواعده ووسائله ومقاصده، وكذلك صلاة الجماعة بشقيها السرى والجهرى، وكذلك مناسك الحج والعمرة، ومنه قول النبى - ﷺ -: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»(٣). وقوله «لتأخذوا عنى مناسككم»(٤). قالها فى مواطن كثيرة وهو يؤدى مناسك الحج.

ومن هنا كانت للقدوة أهميتها، وكان على العلماء والدعاة إلى الله أن يكونوا أعلام هداية، ومثلا تتلألأ فى أعمالهم نظم الإسلام، حتى يقربوا الإسلام إلى العقول ويرسموا لنظمه الصورة الواضحة.

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٢٤.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب العلم باب الفهم فى العلم. فتح البارى ١ / ٢٥٩.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب أبواب الأذان باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماع والاقامة. ابن حجر: فتح البارى ٣/٣١٥.

(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحج باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكبا ٩/٤٤.

* التكليف بالوسع وقدر الطاقة، ومن هنا كان التيسير وعدم المشقة، يقول تعالى: ﴿ يرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(١). يقول تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾(٢).

وهذا هو تشريع اللطيف الخبير الذى خلق النفس ويعلم مافيها من جوانب الضعف ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾(٣). والمرض، والتعب لتحصيل الرزق، يقول تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾(٤).

وقد عالجت الشريعة الإسلامية بنظمها العامة العالمية الأحوال التى تطرأ على الإنسان وجعلت لكل حالة مايناسبها من التكليف فالمقيم غير المسافر، والصحيح غير المريض، والحرب غير السلم، والخوف غير الأمن، وأصحاب الأعذار غير الأصحاء، والشاب غير الشيخ الهرم الذى خارت قواه، يقول تعالى: «ليس على الأعمى حرج ولاعلى الأعرج حرج ولا على المريض حرج»(٥).

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد عملت على رفع الحرج عن أهل الأعذار فإنها قد وضعت للأصحاء منهجا قويما يسلكونه فى تطبيق النظم الإسلامية يقوم على «منع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيبا للنفس، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾(٦). وفى هذا

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٠.

(٣) سورة النساء: آية ٢٨

(٤) سورة المزمل: آية ٢٠.

(٥) سورة الفتح: آية ١٧.

(٦) سورة المائدة: آية ٧٧.

النهى اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر»[١].

* قلة التكاليف وشمول مفهوم العبادة. حيث أركان الإسلام منها مايؤدى فى العمر مرة واحدة، ومنها مايؤدى فى العام مرة، ومنها مايؤدى فى كل يوم، ومنها مايؤديه إنسان ومنها مايسقط عن غير المستطيع، ثم هى تؤدى فى وقت معلوم وبقدر معين، وهى فى أدائها فيها ماهو واجب الأداء وفيها ماهو سنة وفيها ماهو مندوب، والعكس بالعكس، وكلها تؤكد التوافق بين التكاليف وبين رسالة الانسان فى الحياة، وهذه التكاليف تمثل جانبا من جوانب العبادة المتعددة فقد وسع الإسلام دائرة العبادة لله رب العالمين، وجعل التكاليف بمثابة التدريب والقاعدة التى ترتقى بالإنسان لتصبح العبادة لله حاضرة فى قلبه وعقله وفكره فى كل نشاط يقوم به، إذا قام به الإنسان وفق منهج الإسلام مبتغياًبه وجه الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٢]. ومن ثم كانت الكلمة الطيبة صدقة وكانت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وكان السعى على المعاش صدقة، وكان الذكر والتسبيح والاستغفار صدقة، ومساعدة الغير ومشاركته فيما هو فيه صدقة إلى غير ذلك من أبواب الصدقات.

ومن خلال ماسبق عرضه من مقومات يتضح لنا أن عالمية الإسلام ونظمة حقيقة إيمانية وكونية تحمل أدلتها ودلائلها التى تشمل الزمان والمكان.

---

(١) محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى ١٨١.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٦٢، ١٦٣.

رابعا : خاصية الواقعية والمثالية

خلق الله الإنسان من الأرض فكان وثيق الصلة بها، ونفخ فيه من روحه فكانت فطرته تواقة إلى الخير، ومنحه نفسا سوية فكان لها من القدرة ما تحقق به التوازن بين الواقعية والمثالية، يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾[١] وقد جاءت النظم الإسلامية لتحقق فى الإنسان جوانب الواقعية والمثالية معاً، ولبيان ذلك لابد أن نقف على مفهوم الواقعية والمثالية.

(أ) مفهوم الواقعية والمثالية.

١) مفهوم الواقعية :

يدور مفهوم الواقعية حول «مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعية، ومراعاة واقع الحياة من حيث هى مرحلة حافلة بالخير والشر، ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة»[٢].

وهى تعنى كذلك : قابلية النظم الإسلامية للتطبيق فى جميع المجالات ومختلف التخصصات على مستوى الأفراد والجماعات واستغراق الزمان والمكان.

٢) مفهوم المثالية :

تعنى المثالية : «وصول الإنسان إلى درجة عالية فى سلم الرفعة والكمال الإنسانى»[٣]. والمثالى : وصف لكل ماهو كامل فى بابه، كالخلق المثالى، واللوحة المثالية»[٤]. ومن الممكن أن نقول : المثالية هى ظهور التجليات الإلهية على النفس الإنسانية فى ظل النظم الإسلامية.

---

(١) سورة الشمس : آية ٧ : ١٠.

(٢) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ١٤٩.

(٣) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ٥٣.

(٤) [illegible] ٢ / ٨٥٤.

وهى المحافظة على الذات الإنسانية فى أحسن تقويم، وقاية لها عن التردى فى الخسر وأسفل سافلين.

(ب) العلاقة بين الواقعية والمثالية.

تطبيق المنهج الإلهى كاملاً ممثلا فى النظم الإسلامية، له آثار إيجابية تظهر على الذات الإنسانية، وهذا راجع إلى واقعية النظم وقابليتها للتطبيق الذى يحقق لدى المسلم بناء ماديا وروحيا متعادل الايجابية، «والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضا للنزعة المثالية المعتدلة فى الفلسفة والأخلاق. فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان وتطلعها إلى الترقى، وشوقها إلى المثل الأعلى. فهذه إذن واقعية مثالية، أو مثالية واقعية، فقد سلمت من إفراط المثاليين ومن تفريط الواقعيين من البشر»[١].

ومن ثم فكل زعم بدعوى الواقعية لنظام من النظم الوضعية غير مقبول لعدم قيامه على المثالية الإسلامية التى حددها خالق الإنسان وهو الله - سبحانه وتعالى.

(جـ) ضوابط الواقعية والمثالية.

دورة القوانين فى حياة البشر - غير المسلمين - فى تغير مستمر، وهذا يفيد أنها غير واقعية وبالتالى فهى ليست مثالية فى جانب التربية الإنسانية وتحقيق المثل الكامل. وحتى لا تكون الواقعية والمثالية كلأً مباحاً فالأمر يحتاج إلى ضوابط حاكمة تقوم مقام الميزان والقانون.

ويوضح مانقول الميدان التجريبى للعلوم، فعندما يكتشف قانون مادى ويصبح ثابتا وقطعيا كقانون الجاذبية وقوانين الماء والهواء وغير ذلك، فإننا نقول هذه قوانين واقعية حققت التوازن والمثالية بين المخلوقات من خلال قيامها بدورها الذى خلقها الله من أجله، وهذا يرجع إلى المعطيات التى

(١) د. يوسف القرضاوى : الخصا[illegible] ١٥٠.

يتكون منها القانون، فمثلا الجاذبية بين الأجسام تعتمد على الحجم والمركز والسرعة والمسافة بين الأجسام، وعندما ننتقل إلى النظم فالأمر يتطلب ذلك حتى تحقق النظم الواقعية والمثالية للإنسان، وإذا كان الكون واضحاً فالنفس الإنسانية غير ذلك عمقا وتشعبا وتشابكا، ومن ثم فهى تحتاج إلى الصانع الخبير المحيط لتأخذ عنه أحكامه ونظمه التى تتطابق مع واقعها الذى خلقت عليه لتصل إلى الشفافية والمثالية، يقول تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾[١] ويقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾[٢].

ومن يتأمل القرآن الكريم يرى أن النظم الإسلامية جاءت بقدر يتوافق مع الوسع والطاقة الإنسانية، كما جاءت مراعية للطبيعة الإنسانية فى جانبيها المادى والروحى.

فالواقعية : التشريع والتنظيم على قدر الطاقة، والمثالية وصول الذات الإنسانية بالواقعية إلى أعلى مستوياتها الخلقية والنورانية.

وهذا يتطلب التقدير والتحديد فى النظم، وإلى هذا يشير قول الله – تعالى – : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[٣] وقول الله – تعالى – : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٤] وقوله تعالى :﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾[٥].

وتبعا لذلك جاءت النظم قوانين وحدود أو أحكاماً، وبينات، ومبينات، يقول تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[٦] وهذا فى النواهى

---

(١) سورة الملك : آية ١٤.

(٢) سورة ق : آية ١٦.

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٨.

(٤) سورة الفرقان : آية ٢.

(٥) سورة القمر : آية ٤٩.

(٦) سورة البقرة : آية ١٨٧.

والمحرمات، ويقول تعالى : ﴿ تلك حُدُودُ الله فلا تعتدُوها ﴾(١) وهذا فى جانب الحلال. ويقول تعالى : ﴿ ذلكُم حُكمُ الله يحكُمُ بينكُم والله عليمٌ حكيمٌ ﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكُم آيات مُبيِّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكُم وموعظة للمُتقين (٣٤) ﴾(٣).

وهذه الواقعية وتلك المثالية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وبها يتحقق اليقين لأهل الايمان وطلاب الحقيقة الذين يبحثون عنها فيهتدون إليها فيقرون بها، يقول تعالى : ﴿ يثبتُ الله الذين آمنُوا بالقول الثابت في الحياة الدُنيا وفي الآخرة ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿ ويتفكرُون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سُبحانك ﴾(٥).

وحتى يدرك الإنسان هذه الواقعية وتلك المثالية، كلف الله الإنسان بالبحث والتفكير والتدبر والنظر فى النظم وما تحققه من واقعية تتحقق معها المصلحة، ومثالية تتحقق معها العبودية الكاملة لله رب العالمين.

والأمثلة كثيرة، فالحديث عن الخمر مذيل بقوله تعالى : ﴿ كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكُمُ الآيات لعلكُم تتفكرُون في الدُنيا والآخرة ﴾(٦) وفى النظم التى تتعلق بالزواج والطلاق جاء الحديث مذيلا بقوله تعالى : ﴿ وتلك حُدُودُ الله يُبينها لقوم يعلمُون ﴾(٧) وبقوله تعالى : ﴿ كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكُم آياته لعلكُم تعقلُون (٢٤٢) ﴾(٨) وفى النظم التى تتعلق بالمجتمع وأفراده، من حفظ النفس ومال اليتيم، والكيل الميزان والعدل فى سورة الأنعام ذيلت الآيات بقوله

---

(١) سورة البقرة : أية ٢٢٩.

(٢) سورة الممتحنة : أية ١٠.

(٣) سورة النور : أية ٣٤.

(٤) سورة إبراهيم : أية ٢٧.

(٥) سورة آل عمران : أية ١٩١.

(٦، ٧، ٨) سورة البقرة : أية ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٤٢.

تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١] وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[٣].

والإسلام بذلك يحتم على العقل أن يدرك الواقعية الكامنة فى النظم الإسلامية، وذلك ببحثها ومعرفة مقاصدها وأسرارها.

وعلى الجانب الآخر نجد المثالية واضحة فى النظم الإسلامية من خلال ما تحققه للإنسان، ولذلك ختمت الآيات التى تتناول النظم بمثل قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥] وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٨].

وبذلك يقنن الاسلام للواقعية والمثالية ويضع لها الضوابط التى تجعل الواقعية قصراً على الاسلام دون غيره من النظم الوضعية.

(د) مقومات الواقعية والمثالية.

تقوم الواقعية والمثالية فى النظم الإسلامية على دعائم قوية وأسس علمية وموضوعية، تجعلها ظاهرة وواضحة لكل باحث عن الحقيقة وطالب للهداية.

١) **التوازن:** وذلك برعاية الإنسان فى جانبه المادى والروحى، فنظم الإسلام تغذى جسد الإنسان بالمحافظة عليه وتقويته، وتغذى روحه لينطلق

(١، ٢) سورة الأنعام : آية ١٥١، ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران : آية ١٣.

(٤) سورة البقرة : آية ١٨٦.

(٥) سورة آل عمران : آية ١٣٠.

(٦) سورة الأعلى : آية ١٤، ١٥.

(٧) سورة النساء : آية ١٢٨.

(٨) سورة البقرة : آية ٢٣٧.

إلى أفق المشاهدة والمكاشفة سالكا سبيل المؤمنين والمتقين والمحسنين، والسابقين وأصحاب اليمين، وعباد الرحمن، وأهل الخشية، والمقربين والصادقين، والصديقين، والصالحين.

وفى سبيل تحقيق التوازن أباح الله الطيبات من مأكل ومشرب ومنكح ومسكن وملبس، وأدب المسلم أن يستقبلها كنعمة من نعم الله تظهر فيها أيادى الإحسان الالهى وتتجلى فيها مظاهر الرحمة والقدرة الربانية. يقول تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[١] ويقول تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »[٢] وحتى يستوعب الانسان هذا التوازن الذى يحقق واقعية النظم ومثاليتها جاءت العقائد والعبادات والمعاملات جامعة بين مطالب الإنسان المادية وأشواقه الروحية، «فجاءت عقيدة الإسلام تجمع بين الايمان بالمحسوسات فى بعض جوانبها كالايمان بالرسل والكتب، وبين الايمان بالمغيبات كالايمان بالله - سبحانه - وملائكته واليوم الآخر. كما راعى الجانب التعبدى التكوين الإنسانى من المادة والروح، فاعترف بالغرائز وحقوق البدن التابعة للمادة، كما ركز على الجانب الروحى الذى يرفع الإنسان إلى المعارج العليا»[٣]

وهكذا كانت صياغة النظم الاسلامية وبناء أحكامها قائما على تحقيق التوازن بين الطاقات المادية والروحية فى الإنسان، وهذا مايعرف بالوسطية الإسلامية، يقول تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا »[٤] وباختصار فالتوازن هو تحقيق التعادلية بين مطالب الروح ومطالب الجسد، بصورة لا تخرج الإنسان عن إنسانيته. وهذا يتطلب الفقه فى دين الله.

(١، ٢) سورة الأعراف آية ٣١، ٣٢

(٣) د. محمد حسانين البطح الثقافة الاسلامية والتحديات المعاصرة مطبعة رشوان ط أولى ٢٠٠١ ص ٦٦

(٤) سورة البقرة آية ١٤٣

٢) التكامل والترابط: وهو من الدعائم التى تحقق واقعية النظم، وتبرزها فى المجتمع بصورتها التى أرادها الله لها، فهى «نظم لاتقبل التجزئة ولا تتحقق باستقلال جانب من جوانبها أو نظام عن بقية نظمها، لأنها بنيان متكامل لا يظهر كيانه إلا حين تتجمع لبناته وترص فى تلاحم وتلاصق»[1].

وهذا هو شأن المسلم الذى تقوم عقيدته على مطلق الطاعة لله، لأن أوامر الله ونظمه كلها خير، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾[2] ويقول تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾[3].

وإذا كان جسم الإنسان تعمل أجهزته المختلفة فى تكامل حتى يؤدى دوره، ولا يمكن أن يقوم بدوره كاملا فى غياب عضو من الأعضاء أو جهاز من الأجهزة، فإن النظم الاسلامية تحتاج إلى التكامل فى التطبيق حتى يظهر أثرها واضحا جليا، وهذا من باب أولى، وكذلك الكون لا تصلح الحياة فيه إذا توقف أى جزء فيه عن العمل، فالكون بدون شمس لا يصلح، والكون بدون الماء أو الهواء لا يصلح، فالتكامل ضرورى لصلاح الكون ماديا والنظم ضرورية لصلاح الكون ماديا ومعنوياً، وعندما تجاوز الإنسان ظهر الفساد فى البر والبحر، والأمر أخطر من ذلك إذا عطل الإنسان النظم الاسلامية أو نظاماً منها عن العمل، فهذا قانون وهذا قانون، وكلاهما ضرورى.

ولهذا ذم الله - تبارك وتعالى - هؤلاء الذين يتبعون نظام العنصرية فى تطبيق شرع الله ونظمه، يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ

---

(١) محمد طلعت أبو صير وآخرون: مع النظم والثقافة الاسلامية ص ١٤.

(٢) سورة النور: آية ٥١.

(٣) سورة النساء: آية ٦٥.

وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١).

إن نظم الإسلام جاءت واقعية تعالج الواقع وتتعامل معه لتحقق له التوازن الذى يلبى كل الحاجيات الإنسانية بأسلوب وتصور متوازن يساعد الإنسان ويأخذ بيده وقلبه وعقله ليمتثل الشرع والنظم كاملة. وليس لأحد عذر أن يهمل بعض هذه النظم بدعوى عدم حاجة المجتمع إليها، أو عدم فهمها، أو أنها لا تساير العصر، فهذه كلها علل واهية يغذيها فى المسلمين غير المسلمين وأصحاب المذاهب الهدامة، والأولى بالمسلم أن يفقه دين الله حتى يربط بين القانون الذى تعمل من خلاله والقانون الذى يحكم الكون.

إن التكامل فى التطبيق أمر فطرى وكونى ومطلب حضارى، يجعل الحياة كلها منسجمة متناغمة متوافقة، يقول تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون (٨٣) ﴾(٢).

ولن يتحقق الانسجام بين الانسان والكون إلا إذا حقق المسلم التكامل فى تطبيق النظم الإسلامية دون تفرقة أو تعطيل أو تحريف، فالإسلام كل لا يتجزأ، ودائرة واحدة لا تؤدى دورها إلا إذا اكتملت. وهذا يتطلب البعد عن الهوى والتبعية لغير المسلمين، وعدم السماع لكل ناعق ينادى باسم الثقافة الغربية.

وهذا يتطلب من المسلم أن يفهم المعنى الحقيقى الشامل لانتماء الإنسان للإسلام، «فالانتماء للإسلام يقتضى من المسلم أن يذعن بأن الحاكمية لله – عز وجل – وأن حكم الله – تبارك وتعالى – فوق كل رأى من آراء الأشخاص أو الجماعات، أو الأهواء أو المصالح، ولا يعد هذا الانتماء

---

(١) سورة البقرة : آية ٨٥.

(٢) سورة آل عمران . آية ٨٣

الإسلامى صحيحا إذا أصابته التجزئة بسائق المنافع والمصالح والرغبات، فالمسلم مطالب بأن يقيد حريته الخاصة، ورغبته الذاتية بقيود الشريعة، حتى يصح أن يوصف بأنه قد سلك صراط الله المستقيم»[1] يقول تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرِهم ومن يعص اللهَ ورسولَه فقد ضلّ ضلالاً مبيناً (٣٦) ﴾[2].

وفى ظل هذان التكامل تتحقق الواقعية للنظم الإسلامية، وهذا بدوره يؤدى إلى ظهور المؤمن المثالى الذى يتمتع بعطاء النظم وأخلاقها، فكل خلل فى تحقيق التكامل يقابله خلل فى المثالية التى هى نتاج ومحصلة للتكامل فى التطبيق.

ويتطلب التكامل الاهتمام بالواجبات المفروضة أولاً، تبعاً لفقه الأولويات وفى هذا الجانب يقف الناس كلهم سواء متعاونين على تحقيق التكامل فى هذا المجال بكل صوره وشعائره، وتلك مثالية تشمل كل أفراد المجتمع، وبعد ذلك يأتى الترقى فى تحقيق التكامل وذلك بامتثال السنن والمستحبات وتلك مثالية يلتزم بها أهل الحب ومعها تتجلى صفات المتقين والمحسنين من كظم الغيظ والعفو عن الناس وتقديم الإحسان إليهم.

ومن ثم فقد وضعت الشريعة الإسلامية «جملة معايير لبيان الأفضل والأولى والأحب إلى الله تعالى من الأعمال والقيم والتكاليف، وبيان مابينها من تفاوت كبير، ذكرت بعض الأحاديث نسبه ... وفى المقابل وضعت معايير لبيان الأعمال السيئة، كما بينت تفاوتها عند الله، من كبائر وصغائر، وشبهات ومكروهات وذكرت أحيانا بعض النسب بين بعضها وبعض»[3].

---

(١) عمر عودة الخطيب : لمحات فى الثقافة الاسلامية، مؤسسة الرسالة ط تاسعة ١٩٨٤م ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٦.

(٣) د. يوسف القرضاوى : فقه الأولويات، مكتبة وهبه ط ثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ١١.

(هـ) مجالات الواقعية والمثالية.

١) الواقعية فى القصور الكونى.

نظرة النظم الإسلامية إلى الكون تقوم على الواقعية التى تتمثل فى بيان الحقائق المتصلة بالكون، ونفى الخرافات التى سيطرت على الناس أزمنة طويلة، أدت إلى تأخر الحضارة، وعبادة الكثير من المظاهر الكونية. ومن الحقائق التى قررها الاسلام ونظمه :

- مخلوقية الكون لله رب العالمين وعبوديته له سبحانه وتعالى، والمخلوق حادث وكل حادث لابد له من محدث، فلا يليق بالإنسان أن يعبد مخلوقا حادثا، هو فى حقيقته مخلوق لله وعابد له. يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾(١) يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾(٢) ويقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾(٣).

- خلق الله الكون - بالحق - وليس للعبث، فسخره للإنسان ليستقى منه أدلة الوحدانية وصفات الربوبية. يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ۝ ﴾(٤) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(٥) ويقول تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف : آية ٥٤.

(٢) سورة الجمعة : آية ١.

(٣) سورة الرعد : آية ١٥.

(٤) سورة الأنبياء : آية ١٦.

(٥) سورة ص : آية ٢٧.

(٦) سورة الأحقاف : آية ٣.

ومن خلال هذه الحقائق الواقعية أبطل الإسلام كثيراً من الخرافات التى كانت تتصل بالكون، وفتح الطريق أمام الإنسان ليتعرف على الكون ويكتشف السنن والقوانين التى تثبت وحدانية الله وصدق رسالة الإسلام ونبوة ورسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

٢) الواقعية فى التصور الإنسانى.

ضلت البشرية عندما ابتعدت عن النظم الإسلامية، وكان من نتيجة هذا الضلال تأليه البشر وعبادة الإنسان، وفى الجانب الآخر احتقار للإنسان وملكاته وأنه فى أصله حيوان، يعيش لغرائزه فقط، وفى هذه الظلمات تعرض الإنسان للرق والاستعباد وكانت التفرقة العنصرية التى لا تزال موجودة إلى الآن فى دنيا الناس. وقد أدى إلى هذا الخلل الموجود فى التصور لواقع الإنسان وحقيقته. وقد عالجت النظم الإسلامية هذه المشكلة الفلسفية ببيان الحقائق التى تحقق الواقعية فى تصور الكيان الإنسانى، وجاءت على النحو التالى :

- أن الله هو الذى خلق الإنسان خلقا مستقلا متميزاً منفصلاً عن بقية المخلوقات الأخرى، يقول تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١)﴾[١].

- أن الكيان الإنسانى كيان واحد يجمع بين الخصائص المادية والروحية للإنسان يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾[٣].

---

(١) سورة ص : آية ٧١.

(٢) سورة الروم : آية ٢٠.

(٣) سورة الحجر : آية ٢٩.

– أن الكيان الإنسانى يحمل الحرية الكاملة والإرادة والمسؤولية، وذلك فى الاختيار وتقدير الأمور، وأهليته للجزاء يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[٢].

– أن الإنسان خلق مكرما لا يحمل شيئاً من خطايا الآخرين إلا بقدر دوره فيها، أما وراثة الخطيئة فلا يقرها الإسلام، يقول تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾[٤] ويقول تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾[٥].

– أن الإنسان لم يخلق عبثا، وإنما لعبادة الله تعالى، ومفهوم العبادة يشمل تحقيق النظم الإلهية فى كل مجالات الحياة حتى تتلألأ معالم الوحدانية فى الانسان فكراً وسلوكا، يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾[٦].

– أن الإنسان يحمل من الأسباب مايجعله متعلقا بالحياة وبما يحفظ عليه حياته وتلك هى الغرائز، وقد تعامل معها الإسلام فأقرها ثم وجهها وارتقى بها، وجعل للإشباع مجالاته ووسائله التى تدخل ضمن النظم

---

(١) سورة الشمس : آية ٧ : ١٠.

(٢) سورة القيامة : آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة المدثر : آية ٣٨.

(٤) سورة النساء : آية ١١١.

(٥) سورة الروم : آية ٣٠.

(٦) سورة الذاريات : آية ٥٦

الإسلامية، ولم يحارب هذه الغرائز أو يعمل على قمعها، وإنما حقق لها التوازن المطلوب. وبذلك يرتقى الإنسان فى سلم المثالية ملتزما بالطيبات مبتعداً عن الخبائث والمحرمات، وهذا السلم تتفاوت فيه الدرجات تبعا لموقع الإنسان الإيمانى وتبعا لما يحصله من شعب الإيمان، ومدى تغلغل ذلك فى قلبه وفكره، وامتثال جوارحه لقواعد السلوك الإسلامى. كما أقر الإسلام الأحوال المختلفة التى تطرأ على حياة الإنسان، وكذلك الفروق الفردية بين الناس، فأصحاب الأعذار وأهل المرض، والذين فقدوا عضواً من أعضائهم أو وسيلة من وسائل الإدراك فيهم.

- أن الإنسان ليس مخلدا فى الحياة، وأن له أجلا معلوماً يرجع بعده إلى الله للحساب والجزاء تبعاً للطاعة والمعصية.

- أن أفراد الجنس البشرى متساوون فى كل هذه الحقائق، الرجال والنساء، الصغار والكبار، الأغنياء والفقراء والأبيض والأسود. وأن مناط التفاضل خلقى على قدر ما يمتثل الإنسان من نظم الإسلام العقدية والسلوكية.

٣) واقعية الأحكام ومناسبتها للواقع الكونى والإنسانى.

التناسب بين التكاليف الشرعية فى واقعيتها وبين الحقيقة الكونية والإنسانية معلم إسلامى يرجع إلى خاصية المنهج الإلهى والربانى للنظم الإسلامية.

فالعلاقة قائمة وواقعة بين الكون والإنسان والتكاليف، وعلى أساسها كانت النظم والقوانين الإسلامية بالقدر والفكر المناسب لواقعية الكون والإنسان. فللكون ظاهر مادى وباطن معنوى مثالى، والإنسان يجمع بين المادية والروحية، والتكاليف تقوم على الشكل والهيئة والنسبة المحددة كما

تقوم على الأثر والهدف والمقاصد المعنوية والروحية، وتلك عظمة الإسلام وحكمته التى تفردت بها نظمه.

وقد جاءت التكاليف الإسلامية قاضية لتضع الإنسان داخل النظام لتكتمل الدائرة التى أطرافها الكون والنظم الإلهية. وهذان ثابتان ويبقى الطرف الثالث وهو الإنسان حتى تكتمل الدائرة، ولكن انتظامه فى الدائرة متوقف على قبوله للنظم الإلهية الإسلامية ولذلك يقول الله تعالى ﴿ ألم تر أنَّ الله يسجُدُ لَهُ من في السّموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبالُ والشّجرُ والدّوابُ وكثيرٌ مّن النّاس وكثيرٌ حقّ عليه العذاب ﴾[١]

وقد جاءت التكاليف والنظم الإسلامية لتتجاوب مع الواقعية الكونية والإنسانية.

«فالعقيدة واقعية، لأنها تصف حقائق قائمة فى الوجود، لا أوهاماً متخيلة فى العقول، حقائق يقبلها العقل، وتستريح إليها النفس، وتستجيب لها النظرة السليمة»[٢].

فالإيمان بالله يقوم على الواقعية والمثالية: الواقعية فى الأسماء والصفات والمثالية فى الفهم والتصور، «فحيث ينظر الإنسان إلى الله فى القرآن الكريم يجد «الله» سميعا، بصيراً، عالما، قادراً، متكلماً، مريداً، يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير، قائم على الملك، مستو على عرشه، وهذا من شأنه أن يخيل للإنسان تصوراً ما «للذات».

ثم ينظر المسلم فى كتاب الله فيرى «الله» ﴿ ليس كمثله شئ ﴾[٣] ويعمل هذا المفهوم عمله فى تفكير الإنسان، فنأخذ تلك المفاهيم التى كانت

---

(١) سورة الحج : آية ١٨.

(٢) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ص ١٥٣.

(٣) سورة الشورى : آية ١١.

قد بدأت تتشكل وتتجسد - تأخذ فى الذوبان كما تذوب صخور الثلج فى عباب المحيط»[١] وقد جمعت الآيات القرآنية فى عرض أدلة الوحدانية وكمال الألوهية بين الواقعية والمثالية فنسجت أدلة مادية من الكون والنفس وأدلة معنوية تتصل بالنفس وما فيها من أصل الفطرة المسلمة، وما يعتريها من حالات الضعف.

والإيمان بالرسل والكتب يجمع بين الواقعية والمثالية، فالرسل بشر ولكن لهم الكمال البشرى فى الذات والصفات، تجرى عليهم السنن الحاكمة للإنسان، ولذلك كانوا بشراً لتتحقق بهم القدوة، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[٢].

وهكذا كل العقائد الإسلامية تجمع بين الواقعية والمثالية. والعبادات هى الأخرى تجرى على نفس السنن، «لأنه عرف ظمأ الإنسان الروحى فى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات مايروى ظمأه ويشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان فلم يكلفه ما يعنته ويحرجه»[٣] يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٤].

كما ربط فى أدائها بين الالتزام الظاهرى فى الواجبات والسنن والمستحبات وبين المحافظة عليها فى أوقاتها، والمحافظة عليها من إفساد الشيطان، وجعل الفوز والفلاح لأهل الخشوع والبكاء فيها.

وفى المعاملات حقق الإسلام الواقعية، فاحتفظ للإنسان بحقه فى الإيجاب والقبول، والأخذ بالأسباب التى تحقق له العلم الكامل والرؤية

---

(١) محمد الغزالى : عقيدة المسلم، دار الكتب الحديثة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠/م ص ٤٥.

(٢) سورة الفرقان : آية ٢٠.

(٣) د . يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للإسلام ص ١٥٥.

(٤) سورة الحج : آية ٧٨.

الواضحة فما هو بصدده من بيع أو شراء أو عقود تتصل بالمعاملات ماكان منها حالاً أو مؤجلاً، مدعما واقعيته فى ذلك بالقرائن والأدلة والإشهاد الذى تنتفى معه الجهاله وتحفظ به الحقوق، كما حقق المثالية فيها بمراقبة الله والعمل فيها وفق شرعه والنظم التى أنزلها. يقول تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾(٢).

وفى الجانب الاجتماعى حافظ الإسلام على الأسرة والمجتمع والفرد بنظم تحفظ لكل حقه كما جعل حب الخير للآخرين والتعاون على البر والتقوى معلما من معالم الإيمان، وعالج القصور والخلل من بعض الأشخاص بالعقوبة التى تصلح مافسد، وبالحلول التى توجه المشكلات الاجتماعية فى حالات النزاع والطلاق وتعدد الزوجات وحقوق الرضيع والميراث وغير ذلك. وجاءت المثالية فى التوبة والندم ورد المظالم والمراقبة لله فى جميع الأحوال.

ونظام الأخلاق فى الإسلام يقوم على الواقعية، حيث جعل الأخلاق هى الأساس لكل الأنظمة الأخرى، فالصدق والأمانة والوفاء بالعهد، والحياء، والإخلاص، والشجاعة، موازين لقبول الأعمال أو ردها، وكل هذه الأخلاق مفهومة المعنى واضحة المعالم والحدود تغذى فى الإنسان إنسانيته وتحقق له خيريته وسعادته.

وهكذا فمعالم الواقعية والمثالية ثابتة فى كل النظم الإسلامية منسجمة معها مناسبة للواقع الكونى والإنسانى، وتلك معارف وعلوم قلما يدركها أحد

---

(١) سورة البقرة . اية ٢٨٢.

(٢) سورة المائدة : آية ١.

من الناس، اللهم إلا من شرح الله صدره بالنور، وقلبه وعقله باليقين والتسليم، يقول تعالى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾[2]

إننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شئ بقدرته وإرادته واختياره وحكمته، وانه ليس فى خلقه تفاوت ولا فطور. وأنه خلق كل شئ بنظام وتقدير لا جزافا ولا عبثا كما قال تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[3] وقال : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾[4] وقال : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون (١٩) وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (٢٠) وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم (٢١) ﴾[5] وإن له تعالى فى نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع، سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وإن سننه تعالى عامة فى عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر السنن الاجتماعية باللفظ فى سورة المائدة والأنفال والحجر والإسراء والكهف والأحزاب وفاطر والمؤمنون والفتح. فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام فى الخلق الذى تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التى وضعها الخالق لها»[6].

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٣

(٢) سورة الحجر آية ٧٥

(٣) سورة القمر آية ٤٩

(٤) سورة الفرقان آية ٢

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

خامساً: خاصية الجزاء:

نظم الإسلام وقوانينه ثابتة تقوم على الواقعية والتكامل، ويؤكد هذا أنها عند التطبيق تؤتى أكلها، ويظهر أثرها، وذلك للعلاقة الوثيقة بينها وبين السنن الكونية والإنسانية.

١) مفهوم الجزاء:

يقال جزى الشئ - جزاء: كفى وأغنى، ويقال: جزى مجزى فلان ومجزأته : قام مقامه، ويقال: جزى فلانا بكذا وعليه: كافأه»[١].

والجزاء: المكافأة على الشئ، ويكون ثوابا ويكون عقابا.

والجزاء: القضاء[٢].

وعلى هذا فمفهوم الجزاء يدور حول الكفاية والغنى، والمكافأة والقضاء.

ومن الممكن أن نستخلص من هذا المعانى المقابلة والتعويض مثلا بمثل تبعا لنوع العمل حسنا أو قبحا، خيراً أو شرا.

ومن المنظور الإسلامى نستطيع أن نقول: الجزاء هو قانون الله وحكمه الذى يتعلق بكل مايصدر عن الإنسان فى جميع أحواله الاختيارية تعلقا يترتب عليه الثواب والعقاب.

٢) علاقة خاصية الجزاء بالنظم:

النظم الإسلامية قوانين وأحكام محكومة بالتقدير الإلهى الذى يجمع بين الكم والكيف والزمان والمكان والمناسبة بين العناصر الكونية والملكات

---

(١) المعجم الوسيط ١٢١/١.

(٢) أبن منظور: لسان العرب.

الإنسانية فى علاقة تظهر آثارها فى كل ذلك إيجابا وسلبا تبعاً «لنوعية النشاط الإنسانى، نيته وقوله وعمله»[١].

وهذا يمثل جانبا من الجزاء الذى جعله الله ثوابا للمطيع الممتثل أحكام النظم، وعقاباً للعاصى المتمرد عليها.

وقد رغبت الشريعة الإسلامية فى التزام النظم ببيان فضلها ومكانتها والثواب المتنوع الذى جعله الله ثوابا مرتبطا بقانون الطاعة، كما رهبت من مخالفة النظم التى شرعها بالعقاب الذى جعله الله مرتبطا بمخالفتها والخروج عليها.

وهناك نسبة وتناسب بين النظم وبين الجزاء، قدره الله العليم اللطيف الخبير الحكيم القادر القوى، يقول تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾[٢]. ويقول تعالى: ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾[٣]. ويقول تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[٤]. ومن صفات الجزاء فى القرآن الكريم أنه ﴿ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾[٥]. وأنه ﴿ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴾[٦]. وأنه ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ﴾[٧].

وللجزاء مقدمات تتعلق بكسب الإنسان أفرادراً وجماعات تتحقق فى الدنيا، يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٨]. ويقول تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾[٩].

---

(١) انظر وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، كتاب المختار الإسلامى ١٩٩١م. ص ١٢٠.

(٢) سورة الرحمن آية ٦٠.

(٣) سورة النبأ: آية ٢٦.

(٤) سورة الشورى: آية ٤٠.

(٥) سورة الاسراء: آية ٦٣.

(٦) سورة سبأ: آية ٣٧.

(٧) سورة النجم: آية ٤١.

(٨) سورة الروم: آية ٤١.

(٩) سورة الكهف: آية ٨٢.

وهذا يؤكد قيام العلاقة بين الطاعة والمعصية فى النظم وتطبيقها وبين سنة الجزاء التى لاتحابى ولاتفرق بين الناس حتى فى النصر والهزيمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

وفى العلاقة بين النظم والجزاء يقول رسول الله – ﷺ – : «ماظهر فى قوم الربا والزنى إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»[2].

٣) مقومات الجزاء فى النظم الإسلامية:

ميزان الجزاء على الأعمال بيد الله – سبحانه وتعالى – خلقا وتقديراً وتطبيقا. فصفات الله تقوم على الجلال والكمال والجمال، وعلمه شامل وإرادته نافذة وقدرته حاكمة، وحكمه عادل، وقد تجلت هذه الصفات وتلك الأسماء فى الجزاء الإلهى على الأعمال، وهذا الجزاء الإلهى مسبوق بالإنذار، وفتح باب التوبة والندم حتى لايبقى للإنسان عذر إذا نزل به الجزاء فى حالة المعصية.

ومرجعية الجزاء إلى الله ثوابا وعقابا يجعله لمصلحة الإنسان وكذلك المجتمع، وتضفى عليه صفة العدالة والمساواة وتحقيق المصلحة، ودرء المفسدة، وترويض العاصى وتأديبه وتربيته، والرقى بالمطيع وجعله مثلا وقدوة، كما تضفى عليه صفة الحتمية واللزومية فى الدنيا والآخرة.

ومن جملة المقومات ثبات القوانين وعدم التدخل البشرى فيها، وأنها موجودة فى القرآن الكريم الذى يتلوه المسلم فى صلواته وعباداته، وهذا

---

(١) سورة محمد: آية ٧.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده عن ابن مسعود ٤٠٢/١، وفى مجمع الزوائد كتاب البيوع باب ماجاء فى الربا ١١٨/٤ قال الهيثمى: رواه أبويعلى وإسناده جيد. السيوطى جمع الجوامع

يجعل نظام الجزاء حاضراً فى قلب وعقل وفكر كل مسلم، فالمسلم يعرف قانون الجزاء فى الثواب والعقاب ويعرف أسلوب التطبيق ووسائله ومقاصده وغاياته.

ومن مقومات الجزاء فى الإسلام واقعيته ومثاليته، حين يسير وفق سنة إلهية وحكمة ربانية، مستصحبا القلب والعقل، مقدما المثل والتجربة من أحوال الأمم السابقة التى أطاعت وطبقت النظم الإسلامية، والأخرى التى خالفت النظم وحكمت الهوى والشيطان، والمصير الذى آلت إليه كل منهما.

«وقد حدثنا القرآن الكريم عن حياة مجتمعات مختلفة، منها من عاش حياة رغيدة آمنة، ومنها من ذاق لباس الخوف والجوع، ومنها من باد وهلك بعذاب أليم، وتأتى هذه اللمحات القرآنية لتلفت انتباهنا إلى وجود سنن ربانية تحكم حياة المجتمعات البشرية قاطبة، وتقرر مصيرها.. وقد كان البيان القرآنى واضحا، حين قرر أن رقى المجتمعات أو انحطاطها مرهونان بالتزام شريعة الله، أو النأى عنها، ففى باب الرقى وبسط النعمة، نجد قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾(١).

وفى باب الانحطاط يخبرنا القرآن الكريم مثلا عما آلت إليه حال النصارى عندما انحرفوا عن خط التوحيد، فكان جزاؤهم أن انتشرت بينهم نار العداوة والبغضاء: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾(٢). فلما انحرفوا عن خط التوحيد أشد من ذلك حقت عليهم سنة ربانية

٤٩٨/١٨٨٧٠.

(١) سورة الأعراف: آية ٩٦.

أخرى وكان الهلاك مصيرهم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[١] وهذه كلها سنن ربانية ماضية فى الناس إلى يوم القيامة[٢].

وهكذا ربط الإسلام بين الجزاء وبين أسبابه دفعا بالإنسان إلى تصحيح مساره مرة أخرى، وجعل هذا الجزاء السننى فى متناول ملكات الإنسان حتى لايبقى عذر لمعتذر.

٤) معالم الجزاء فى الإسلام:

يسير قانون الثواب والعقاب فى الإسلام تبعاً لمعالم ترسم صورته وتحدد ملامحه، وبالتأمل نرى أن الجزاء دنيوى وأخروى، يقع منه فى الدنيا مايمثل الدليل على عذاب الآخرة يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣]. ويقول تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾[٤].

كما نرى أن هذا الجزاء مادى ومعنوى وتتفاوت درجاته تبعاً لحجم المخالفة وخطورتها وأثرها فى بناء المجتمع أو هدمه، وقد حدد الإسلام بعض العقوبات تحديداً صريحا وذلك فى الزنا والقذف، وهناك عقوبات تتصل بالمخالفات الفردية وأخرى تتصل بالمجموع العام وذلك عند التهاون فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وانتشار وعموم الفواحش فى المجتمعات.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٤٤.

(٢) د. أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق كتاب الأمة ط أولى ١٤١١ هـ ١٩٩٠/م ٦٠.

(٣) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٤) سورة طه: آية ١٢٤.

«وإن من يدقق النظر فى أحكام الشرع المختلفة، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة، التى لاتتخلف نتائجها عن مقوماتها، فإن ترك شئ مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دوما، فى الدنيا قبل الآخرة، وإن الإتيان بشئ قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة فى الدنيا قبل الآخرة، وفى هذا غاية العدل والحكمة والتدبير»(١).

يقول العلامة ابن قيم الجوزية وهو يقرر هذه الحقيقة: «لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة، والمعانى المعتبرة، فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجد، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها»(٢).

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٣). ويقول جل شأنه: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥). ويقول تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾(٦).

---

(١) د. أحمد كنعان: أزمتنا الحضارية ص ٧٨.

(٢) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين. راجعه طه عبدالرءوف مسعد، الكليات الأزهرية ١٩٦٨م/١٩٦/١.

(٣) سورة محمد: آية ٧.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٢٠.

(٥) سورة النحل: آية ٩٧.

(٦) سورة النساء: آية ١٢٣.

وهذا التنوع فى الجزاء يختلف قوة وضعفا، إهانة وتكريما تبعاً للعمق الفكرى والثقل القلبى الذى ينطلق منه السلوك وإلى هذا يشير قول النبى ﷺ- : «إنما الأعمال بالنيات»[١].

والجزاء فى الإسلام كثواب لايقف عند حد معين من العطاء، فالله يضاعف لمن يشاء، ويمنح من يشاء من عطائه كما يشاء ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[٢]، ومن ثم تأتى المواهب والعلوم اللدنية والبشرى.

وفى جانب العقاب يتخطى الألم الجسدى إلى الألم النفسى والضنك وعدم الأمن والمسخ وغير ذلك. حتى ولو كانت الدول المخالفة لشرع الله ونظمه الإسلامية متقدمة ماديا، فإن ممالاشك فيه أنها تعيش حالة من الضنك والأزمات النفسية، وما الحروب والعدوات وكثرة الأمراض النفسية وانتشار الموبقات إلا مظاهر لتلك الأزمة التى تعيشها تلك الدول، وماخفى كان أعظم، فقد حل بهم المسخ فالظلم عندهم عدل والخديعة عندهم دين والكذب وسيلة مباحة للوصول إلى غاية دنيئة.

ومن ثم كان الجزاء الأخروى حتمياً وضرورة اجتماعية وقانونية، «وبذلك يعقد الإسلام صلة وثيقة بين فعل الخير فى الدنيا ومايعقبه من سعادة فى الآخرة، كما يعقد الصلة نفسها بين اقتراف الشرور واستحقاق العذاب الأليم.. فالمجرم لابد أن يلقى عقوبته، وأن يواجه الجزاء من جنس العمل ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[٣]. والمحسن

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله - ﷺ - وقول الله - جل ذكره -: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾. سورة النساء: آية ١٦٣ ابن حجر العسقلانى: فتح البارى ٢٨/١.

(٢) سورة فاطر : آية ٢.

(٣) سورة يونس: آية ٨١، ٨٢.

لايتخلف عنه الوعد الحق، ولا تنقص مكافأته على صالح عمله ذرة [١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وقد راعى الإسلام الضعف الإنسانى والعجز البشرى فرفع عنه المسؤولية حتى يعود إلى كمال رشده وحضور حريته وتيقظ ملكاته، يقول رسول الله - ﷺ - : «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتي يعقل أو يفيق»[٣]. ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾[٥]. وقد جاء فى الحديث قول النبى - ﷺ - : «إن الله تجاوز لأمتى عما توسوس به صدورها مالم تعمل به أو تتكلم به وما استكرهوا عليه»[٦].

وبعد: فإن النظم الإسلامية تتمتع بربانية مصدرها وعموم رسالتها وشمول أحكامها وموافقتها للطبيعة الإنسانية منسجمة فى ذلك مع السنن الكونية ومحققة للتفوق والمثالية برعايتها للجوانب المادية والملكات والأشواق الروحية فى ظل جزاء عادل وقانون ثابت، وهذا يحقق للنظم الإسلامية صلاحيتها لكل مكان وزمان، وقدرتها على سعادة البشرية وإنقاذها.

---

(١) محمد الغزالى: عقيدة المسلم ٢٤٨.

(٢) سورة لقمان: آية ٨، ٩.

(٣) ابن ماجة فى سننه، كتاب الطلاق باب طلاق المعتوه والصغير والنائم ١/٦٥٨.

(٤) سورة النحل: آية ١٠٦.

(٥) سورة المائدة: آية ٨٩.

(٦) ابن ماجه فى سننه كتاب الطلاق باب طلاق المكره والناسى ١/٦٥٩.

المبحث الثاني
خصائص النظم الوضعية

تناول الباحثون فى النظم الوضعية خصائصها بالبحث والدراسة، وقد جاءت هذه الخصائص متداخلة مع خصائص النظم الإسلامية، مشابهة لها فى الألفاظ وليس فى الجوهر والمضمون، وكان هذا سببا من أسباب تناولنا لخصائص النظم الوضعية حتى نبين أنه لاصلة بين المصطلحات وتشابهها فى النظامين الإسلامى والوضعى حماية لطلاب العلم الذين يدرسون المذاهب الوضعية على أنها حقائق ومسلمات.

أولاً: بشرية المنهج:

النظم الوضعية «تصدر عن فكر البشر وتصورات عقولهم الخاضعة للأهواء والمشارب المختلفة والمتغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة»[١].

«وتنشأ النظم عادة من العادات الشعبية، وتنمو وتتطور فى صورة أعراف»[٢].

وتبعا لذلك فقد تعددت النظم فى الموضوع الواحد، فنظام الزواج فى الصين غير نظام الزواج فى أفريقيا، والأولى بذلك أن يقف علماء النظم الوضعية عند الوصف فقط.

وخير مثال على ذلك «انقسام علم الاجتماع إلى قسمين هما علم الاجتماع الماركسى، وعلم الاجتماع الغربى الليبرالى. وطبيعة هذا الانقسام تعود بالدرجة الأولى إلى التصورات العقدية والأطر الفكرية للباحثين حول الإنسان، والمجتمع والتاريخ»[٣].

---

(١) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ص ٢٦.

(٢) المرجع فى مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ٢٤٤.

(٣) منصور زويد المطيرى: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٧٢.

ومن هنا جاءت النظريات المعلنة فى علم الاجتماع ذات طابع فلسفى. أى أنها ليست سوى تبريرات عقلية، لبعض الفروض الخلقية التى يقتنع بها الباحث.

وقد أدى هذا إلى التناقض فى الآراء والنظريات تبعا للميول والرغبات والحب والبغض.

وقد أدى هذا إلى أمر خطير «دعا روبرت مرتون لأن يعترف بأن فى الولايات المتحدة خمسة الاف عالم، لكل واحد منهم علم الاجتماع الذى يخصه[١] وحده»، وذلك نتيجة تعدد العقائد الخاصة بكل عالم، رغم انتماء غالبيتهم إلى عقيدة المجتمع الرأسمالى. وتبعا لذلك ظهرت العقلانية كمذهب مناوئ للدين.

ولم يكن هذا فى صالح الإنسان ولافى صالح الكون فطاقات العقل محدودة، ولا تتعامل إلا مع المحسوسات، «فقد اقتصرت على عالم الشهادة، دون اعتبار لعالم الغيب، واقتصرت على المحسوسات دون المعنويات. ولاشك أن تأثير عالم الغيب فى الحياة الواقعية كبير جداً، إضافة إلى أنه حق لاريب فيه، لايجوز عقلا إنكاره، أو تجاهله بهذه الطريقة»[٢].

وفى القرآن الكريم أمثلة كثيرة لهؤلاء الذين يستقلون بالعقل فى قضايا الإنسان والوجود، يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾[٣]. ويقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

(١) انظر أو سيبوف: قضايا علم الاجتماع، ترجمة سمير نعيم، د. فرج أحمد فرج، دار المعارف ١٩٧٠/م ٦٤.

(٢) منصور زويد المطيرى: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ٤٥.

(٣) سورة الجاثية: آية ٢٣.

عندي﴾(١)، وتلك حالة مرضية تؤدى بصاحبها إلى الضلال، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾(٢). ولهذه المنهج البشرى فى النظم خطورته وعواقبه الوخيمة التى تظهر فى المجتمعات التى تتبنى هذا المنهج، والواقع خير شاهد على ذلك.

ثانياً: العمومية والحتمية:

يقصد بالعموم فى النظم الوضعية، «أنه لايوجد مجتمع ما، أو أى نموذج اجتماعى ما، دون أن يصحبه نظام اجتماعى يحدد الأوضاع والعلاقات داخل هذا المجتمع أو ذلك النموذج الاجتماعي، ومن ثم فإن من أهم خصائص النظم الاجتماعية أنها عامة أى تعم جميع النماذج الاجتماعية فى المجتمع ولا يخلو منها أى وجود اجتماعى مهما كان مستواه»(٣).

ويقصد بالحتمية «أنه إذا وجد شكل من الأشكال الاجتماعية أو نموذج ما. مثل المجتمع المحلى. أو القبلى أو القرية، أو العشيرة. فمن الضرورى أن يلازم هذا الوجود نظام اجتماعى يحدد شكل هذا النموذج الاجتماع ويوضحة، وبالتالى فإن النموذج الاجتماعى، والنظام متلازمان، ومن ثم فإن حتمية النظم الاجتماعية مرتبطة تماماً بعموميتها»(٤).

ولاشك أن العمومية فى النظم الوضعية بعيدة كل البعد عن خاصية العموم فى النظم الإسلامية، فالأولى تبقى كل شئ على ماهو عليه، وتقرر تعدد النظم الفاسد منها والصالح، حتى ولو كان ذلك فى مسألة واحدة، فما يكون صوابا فى مجتمع ما، قد يكون خطأ فى مجتمع آخر. فقتل

---

(١) سورة القصص: آية ٧٨.

(٢) سورة القصص: آية ٥٠.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨١.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٢.

الأطفال الذى توافق عليه بعض الجماعات تحت ظروف خاصة، يعتبر إجراما فى جماعات أخرى، والعفة قبل الزواج مطلوبة فى أحد المجتمعات، وغير مستحبة فى الآخر»[١]، والثانية تحافظ على أن يحكم الجميع بنظام أخلاقى وعقدى واحد، تلغى من خلاله العنصريات والطبقات وكل الفوارق.

وقد عملت رسالة الإسلام منذ البداية «على التحول الشامل بكل أجزاء المجتمع، مع إخضاع الجماعات البشرية إلى نظام موحد والارتفاع عن مستوى المتناقضات السلالية والعنصرية.. أى أن الغاية المثلى من هذا الدين هى الانتقال من المراحل الجزئية إلى مراحل التجانس والإطار الفكرى الموحد الذى يمكن أن تزدهر فى ظلاله مختلف الآراء مهما تنوعت وتباينت»[٢].

إن غاية مايقال فى العمومية والحتمية الوضعية: أنهما دليلان على ضرورة النظم الإسلامية لوحدة الأسرة الإنسانية العالمية.

ثالثاً: التلقائية:

تعنى التلقائية فى النظم الوضعية «أنها تنشأ وتتطور من خلال الحياة الاجتماعية للمجتمعات المختلفة. وذلك مثل نظم الزواج وتكوين الأسرة الذى ينشأ تلقائيا فى المجتمعات استجابة للقيم الخلقية»[٣].

وهذا يؤكد أنها وليدة الظروف والأحداث والأعراف، ترجع إلى مايحدده الأفراد فى نظام اجتماعى معين يختلف عن غيره فى مكان آخر.

---

(١) منصور زويد: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ص ٦٨.

(٢) د. زيدان عبدالباقى: علم الاجتماع الإسلامى ص ٤.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ٨٢.

أما الاسلام فإنه يبدأ معتنقيه بالتكاليف والقوانين الإلهية التى يريدها الله - سبحانه وتعالى - من خلقة، ويبقى دور المسلم هو الجد والاجتهاد فى استقبال هذه القوانين قلبيا وعقليا وفكريا، والانتقال بها إلى مجال التطبيق الداخلى فى ذاته، والخارجى فى المجتمع من حوله، «وإذا تجاوزنا - أو إذا كان لنا أن نتجاوز عن القرن الأول الإسلامى - فإنه يمكن القول : إن كل الأفراد فى المجتمع الإسلامى قد نشأوا فوجدوا النظم الأسرية والقضائية والاقتصادية وغيرها بصورتها الإسلامية فصبوا فيها أعمالهم وأفكارهم متأثرين فى ذلك بما يلقونه من تربية إسلامية فى طفولتهم، بمعنى أن هذه النظم والأوضاع قد نشأت بصورتها الإسلامية منذ نشأة المجتمع الإسلامى، ومن هذا فإن صفة التلقاية يمكن الأخذ بها فى مجال الدين الإسلامى بعد القرن الهجرى الأول، بل وقبل القرن الهجرى الأول إذا أخذنا بأن الإسلام دين سائر الأنبياء»[1]، وتلك حقيقة، وهذا يؤكد أن الإنسانية بدأت منظمة تنظيما إلهيا، فقد كان الدين الإسلامى تلقائيا تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل، يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ

---

(١) د. زيدان عبدالباقى: علم الاجتماع الإسلامى ص ٢٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٢.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٨.

(٤) سورة مريم: آية ٥، ٦.

أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾(١).

وهكذا بقيت التلقائية الإسلامية فى كل الأجيال الإنسانية يحملها خلف عن سلف، وأنبياء عن رسل، والأتباع الصادقون المخلصون فى كل زمان ومكان، ومن ثم كان ذو القرنين وكان لقمان وكان مؤمن آل فرعون، وكان غيرهم، يقول تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢).

ومن ثم فتلقائية النظم الإسلامية تغاير تلقائية النظم الوضعية تغايراً تاماً فى المضمون والمفهوم.

رابعاً: النسبية:

النسبية فى المذاهب والنظم الوضعية نوعان: زمانية ومكانية.

ويقصد بالنسبية الزمانية «أن النظم الاجتماعية قد تختلف بالنسبة للمجتمع الواحد من وقت لآخر فهى ليست ثابتة دائمة بصفة مستمرة على شكل واحد على طول الزمان بالنسبة لأى مجتمع، فقد يلتزم مجتمع معين بنظام معين فى وقت من الأوقات، ثم مايلبث أن يأخذ بنظم غيره فى وقت آخر إذا ماثبت عدم جدواه أو أهميته بالنسبة لهذا المجتمع(٣).

ويقصد بالنسبية المكانية «أن النظم الاجتماعية تختلف من مجتمع لآخر، فقد يأخذ مجتمع مابنظام اجتماعى معين، ويأخذ مجتمع آخر بنظام إجتماعى آخر يناقضه تمام التناقض وفى نفس الزمن.

---

(١) سورة الصف: آية ١٤.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٤.

(٣) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ١٨٣.

فالنظم الاجتماعية ليست واحد ة فى كل المجتمعات ولكنها تختلف باختلاف المجتمعات، كما تختلف أيضا بالنسبة لوظائفها فى كل مجتمع من المجتمعات»[١].

وهذا يعنى إلغاء الثبات من حياة الإنسان، وهذا يجعل المجتمع غير متواصل حضاريا ونظميا، وهذا يؤكد أن النظم الوضعية لم تفرق بين الثوابت فى حياة الإنسان والمجتمع وبين المتغيرات التى لاتخرج فى إطارها العام عن روح الثوابت، كما أنها تعمل على تحقيق مقاصد هذه الثوابت.

والنظم الوضعية بذلك «فى تغير دائم، ولا تكاد تستقر على حال، حتى الدساتير التى هى أم القوانين، كثيراً ماتلغى بجرة قلم، من حاكم متغلب، أو مجلس للثورة، أو برلمان منتخب، انتخابا صحيحا أوزائفا، حتى يصبح الناس ويمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أى مادة، أو قاعدة قانونية، كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام»[٢].

ومن هذا المنطلق بدأ أصحاب هذه النظم الوضعية يهدمون القيم الأخلاقية واحدة تلو الأخرى، وتجاوزوا الحد فى ذلك إلى بلاد المسلمين ليفرضوا عليهم مظاهر هذه النسبية من خلال وثيقة مؤتمر السكان والتنمية[٣].

وفى هذا المؤتمر أعلنت الحرب على العفة والأخلاق والشرف، من خلال صياغة ماكرة خبيثة لبعض الفقرات جاء فيها:

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للاسلام ص ٢٠٤.

(٣) عقد هذا المؤتمر بالقاهرة فى الفترة من ٢٩ ربيع الأول ١٤١٥ هـ ١٩٩٤/٩/٥م إلى ٨ ربيع الآخر ١٤١٥هـ ١٩٩٤/٩/١٣م.

* يتعين على البلدان، بدعم من المجتمع الدولى، أن تحمى وتعزز حقوق المراهقين فى التربية والمعلومات، والرعاية المتصلة بالصحة الجنسية والتناسلية[١].

* وينبغى بذل جهود خاصة لإشراك الرجل وتشجيعه على الاشتراك النشط فى الأبوة والمسؤولية، أو الصحة والسلوك الجنسيين والتناسليين... والوقاية من حالات الحمل غير المرغوب فيها[٢].

وهذه دعوة خبيثة لشرعية الإجهاض وإباحته من قبل الأجهزة المعنية فى الدولة[٣].

* على المسؤلين الترويج للسلوك الجنسى المأمون، والمسؤول، بما فى ذلك العفة الطوعية، واستخدام الواقى الذكرى.. وعلى المسؤلين عبء أخر وهو إلغاء القوانين التى تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسى بحرية، واختيار، وحماية الحاملات سفاحا، لأن ممارسة الجنس، والانجاب، حرية شخصية، وليست مسؤولية اجتماعية[٤].

كما نفّرت هذه الوثيقة من ختان الأنثى، وفيها طالب كتابها بفرض سياسة تحديد النسل فى ثلاث عشرة دولة من دول العالم الثالث، ٩٠٪ من هذه الدول إسلامية»[٥].

---

(١) انظر فقرة ٧/٤٤ ص ٥٣.

(٢) انظر فقرة ٤/١٧ ص ٢٨.

(٣) د. الحسينى سليمان جاد: وثيقة مؤتمر السكان والتنمية رؤية شرعية، كتاب الأمة ط أولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦/م ص ٥٧.

(٤) انظر فقرة ١٨/٣١ ص ٦٤.

(٥) د. الحسينى سليمان جاد: وثيقة مؤتمر السكان ص٦٨.

وقد تعددت المؤتمرات التى تدعو إلى ابتداع أنماط وأشكال جديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية[١].

وفى هذه المؤتمرات حاولوا الترويج والإقرار لأنماط أسرية بديلة، دون أدنى اعتبار للنواحى الشرعية والقانونية والأخلاقية، مثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، وإعطاء الجميع حقوقا متساوية ووضع سياسات وقوانين تقدم دعما تأخذ فى الاعتبار تعددية شكل الأسر، إضافة إلى تحديد النسل باسم تنظيم النسل وتشجيع موانع الحمل، وتيسير سبل الإجهاض» [٢].

وإذا كان هذا هو حال النظم الوضعية، فإن النظم الإسلامية تتمتع بخاصية التمام والشمول والواقعية، وتحمل مقومات الثبات والمرونة، فالنظم الإسلامية تفرق بين الثوابت الضرورية لكل المجتمعات والمتغيرات التى تتغير فى المجتمع الواحد، أو يحتاج إليها مجتمع دون آخر، وقد كان للإمام الشافعى مذهب وهو فى العراق وهذا مايعرف بالمذهب القديم وعندما جاء إلى مصر بنى مذهبه الفقهى الجديد، وهذا يرجع إلى استيعاب النظم والقوانين الإسلامية للثوابت والمتغيرات وقيامها على الثبات والمرونة.

خامساً: القهرية والموضوعية:

يقصد بالقهرية فى مجال النظام الاجتماعى «أن النظام الاجتماعى يمارس ضغوطا على الأفراد، ولا يستطيع الأفراد أن يخرجوا على

---

(١) فى عام ١٩٩٢م عقد ماعرف «بقمة الأرض» فى ريودى جانيرو فى البرازيل، ثم «المؤتمر العالمى حول حقوق الانسان» فى فيينا بالنمسا ١٩٩٣م، و«المؤتمر العالمى للحد من الكوارث الطبيعية» فى يوكوهاما فى اليابان عام ١٩٩٤م، و«القمة العالمية للتنمية الاجتماعية فى كوبنهاجن فى الدانمارك ١٩٩٥م و«المؤتمر العالمى الرابع للمرأة» فى بكين بالصين ١٩٩٥م ومؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية فى اسطنبول ١٩٩٦م.

(٢) عمر عبيد حسنة : تقديم المصدر السابق ١٢.

ماتواضع عليه المجتمع من مواضعات متمثلة فى التقاليد والعادات والأعراف التى تسود المجتمع، وعلى الأفراد الإلتزام والطاعة»[١]. تحت مايسمى جبرية النظم الاجتماعية.

ويقصد بالموضوعية، «أن عالم الاجتماع حينما يدرس – بداءة – بعض ظواهر أو تيارات أو نظم المجتمع يتعين عليه، أن يتخذ موقفا يماثل موقف العالم الطبيعى الذى يفترض أنه يرتاد ميدانا غير معروف وغير مكتشف، لاسيما وأن هذه الظواهر والتيارات والنظم الاجتماعية لها وجود خاص خارج شعور الفرد، لأنها ليست من صنعه، بل هو يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه، بمعنى أنها ليست وليدة التفكير الذاتى، بل الأولى أن يقال بأنها هى التى تشكل هذا التفكير لدى مختلف الأفراد بطابع متجانس إلى حد كبير أو قليل، طبقاً لدرجة التقدم التى وصل إليها المجتمع»[٢].

وبين مايسميه علماء الاجتماع بالقهر أو الجبر أو الإلزام أو الضغط الاجتماعى وبين الموضوعية علاقة، بمعنى أن خاصية القهر أو الإلزام تترتب على خاصية الموضوعية[٣].

وبهذه القهرية التى تؤدى إليها الضغوط الاجتماعية يفقد الإنسان حرية التفكير والمراجعة، «ولايستطيع الأفراد الخروج عن المصطلحات التى يرسمها النظام الاجتماعى، ومن يحاول الخروج عليها فهو لامحالة مأخوذ بالقصاص الاجتماعى»[٤].

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٤.

(٢) د. زيدان عبدالباقى: علم الاجتماع الإسلامى ص ١٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

(٤) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٧٤.

وقد أدى إلى هذه الحالة أسباب كثيرة، تتمثل فى فقدان القانون الحق الذى يقيم هذه العادات والتقاليد التى يقهر الإنسان على الالتزام بها، حتى يدحض منها الباطل، ويبقى على الصالح العام، ثم إن هناك خروجا كثيراً على بعض هذه العادات والتقاليد، وهذا يثبت أن مصطلح القهرية يحتاج إلى المراجعة والتصحيح، وإلا فهذا إقرار من علماء الاجتماع بأن الانسان غير قادر على التفكير.

وهذا إن دل على شئ، فإنما يدل على أن هذه العادات والتقاليد التى تحكم النظم الوضعية خالية وعاجزة عن تقديم الأدلة التى تثبت صحتها لدى العقل، وهى بذلك ليست موضوعية.

والقهر والإلزام من خلال المجتمع يتسم بالقصور ويبقى شكليا فدائرة الجزاء فيه محدودة، وإن عالجت الجانب المادى فى الإنسان فلن تعالج حقيقته الداخلية وجوهره الأساسى.

والنظم الاسلامية بعكس ذلك، فهى ليست قهرية ولاتمثل ضغطا اجتماعياً على الأفراد، فقوامها الاستقامة والتعاون على البر والتقوى، ومظهرها القدوة الطيبة والمثل الصالح، ووحدة الوسيلة والغاية، ومراقبة الله - عز وجل - هى السياج الجامع لكل ذلك، فالمسلم عضو فى جسد الجماعة ولبنة فى بناء الأمة، والقانون الذى يحكم الجميع ليس قانون الأمة ولا هو اختراع الجماعة، وإنما هو قانون الله ونظامه وحكمه، ومن ثم فدور الجماعة فيه يماثل دور المسلم. فدور الجماعة يطلق عليه العلماء العقل الجمعى» وهو مجال للخلط وضياع بعض الاراء الصحيحة. ومن ثم كانت المسؤولية ملقاة على عاتق كل مسلم، وعندما جاء الخطاب جمعيا وجماعيا فى القرآن الكريم وهو يعرض التكاليف والقوانين التى تمثل النظم الإسلامية، كان هذا متعلقا بأهداف تربوية وعلمية تجمع الأمة والجماعة

على التعاون على البر والتقوى وتحقيق الدور الإيجابى الذى يظهر النظم الإسلامية فى كيان المجتمع بأكمله. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾(١). ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(٣). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٤).

وعموما الخطاب لايعنى إعطاء الجماعة حق التشريع أو سن القوانين وإنما هو خطاب التكليف بالقانون والنظام الإلهى يستوى فى امتثاله وطاعته الفرد مع الجماعة، فالمسؤولية فى النظم الإسلامية فردية، وهناك مسؤوليه جماعية ترجع فى أساسها إلى المسؤولية الفردية، يقول تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾(٥). ويقول جل شأنه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾(٦).

والقول بموضوعية النظم الوضعية كخاصية من خصائصها، على هذا التصور والمفهوم الذى وضعه علماء الاجتماع القدامى منهم والمحدثون، يجعلها منقطعة الصلة بالإنسان، ويجعل لها قانون عمل آخر يختلف عن قانون عمل الإنسان، وهذا يؤدى إلى إهدار النعم وتضييعها فى غير ماخلقت له، وقد قطعت الحضارات التى تقوم على النظم الوضعية شوطا كبيراً فى إهدار النعم، وقد رصد القرآن الكريم بعض مظاهر الموضوعية التى تتبناها النظم الوضعية، فذكر الآثار المترتبة على هذا

---

(١) (٢) (٣) سورة البقرة: الآيات ١٨٣، ١٧٨، ٢١٦.

(٤) سورة الأنفال: آية ٢٤.

(٥) سورة النجم: آية ٣٨: ٤١.

(٦) سورة الأحقاف: آية ١٩.

الفكر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٣].

وقد أدى إلى هذا الطغيان القول بانقطاع الصلة والعلاقة بين الإنسان وبين النظم وأنه يتلقاها من الخارج مستقلة عن فطرته، وأن المعرفة بها تأتى من الخارج بعيدة عن شعور الأفراد، وقد أدى إلى هذا الخلط تصورهم أن «النظم الاجتماعية لها وجود خاص خارج شعور الفرد، لأنها ليست من صنعه، بل هو يتلقاها من المجتمع الذى نشأ فيه، بمعنى أنها ليست وليدة التفكير الذاتى»[٤].

وعلى هذا فالموضوعية فى النظم الوضعية تختلف عن الواقعية فى النظم الإسلامية إختلافا جذريا، فالإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه ذو فطرة إيمانية، يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٥]. وهذه الفطرة هى «التى فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[٦]. وقد صرحت السنة النبوية بذلك فى قول النبى - ﷺ -

---

(١) سورة الشعراء: أية ١٢٨: ١٣٠.

(٢) سورة إبراهيم: أية ٢٨.

(٣) سورة الفجر: الآيات ٦: ١٤.

(٤) د. زيدان عبدالباقى. علم الاجتماع الإسلامى ص ١٠

(٥) سورة الروم: أية ٣٠.

(٦) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٤٣٢.

«مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[١]. وقد خلق الله الإنسان وزوده بالمعارف والملكات التى تتعرف على الكون وتتعامل معه يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[٢]. ويقول تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[٣]. وبين الكون وبين الإنسان علاقة هى علاقة العبودية لله رب العالمين، فدلائل القدرة وأدلة اليقين تتماثل فى الكون والنفس الإنسانية فالخالق واحد هو الله، والسنن التى تحكم الإنسان وتحكم الكون، وتقوم عليها النظم الإسلامية واحدة.

وقد خلق الله فى: الإنسان بموجب استعداده علما ضروريا بحقائق الأشياء، وسنن الله التى تحكمها، ومالها من قوانين النفع والضر»[٤].

ولما كان الإسلام هو الأقدر على توضيح الحقائق وإثبات العلاقة القائمة بين الإنسان والأشياء والأفكار، وذلك إذا سارت فى رحاب التوحيد والإيمان،وجدناه يحدثنا عن صور لهذه الصلة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ ياجبال أوبى معه والطير وألفاله الحديد ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[٦]. وقول النبى – ﷺ – :«إنى لأعرف حجراً كان يسلم على قبل أن أبعث»[٧]. ومنه تسبيح الحصى فى كف النبى – ﷺ –

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البرد والصلة والآداب، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/٢٠٧.

(٢) سورة البقرة: آية ٣١.

(٣) سورة الرحمن: آية ١:٤.

(٤) د.أحمد محمد كنعان: أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق ص ٨٥.

(٥) سورة ص: آية ١٠.

(٦) سورة النمل: آية ١٦.

(٧) الحديث فى الصغير برقم ٢٦٤٥ ورمز له بالصحة، وفى مختصر مسلم برقم ١٥٢٨، لجنة تحقيق جمع الجوامع للسيوطى بمجمع البحوث الاسلامية رقم ٣٧٠٢/٨١٩٠.

وفى كف بعض الصحابة وسماعهم لهذا التسبيح، وهكذا فلغة التوحيد مشتركة وعلاقتها قائمة بين الإنسان وكل شئ فى الكون.

وبهذا نرى أن علماء الاجتماع - دوركايم وغيره - فى القول بالقهرية والموضوعية قد جنحوا جنوحاً ماديا لإقصاء كل مايتعلق بالدين وإبعاده، حتى ولو كانت الفطرة الإنسانية.

سادساً: النسقية والهدفية:

يقصد بالنسقية فى علم الاجتماع الإنسانى، «أن النظم الاجتماعية تترابط فيما بينها وتتماسك لتشكل كلا واحداً، يخدم النموذج الاجتماعى العام الذى يوجد عليه المجتمع بصفة عامة.

فالنظم الاجتماعية لاتعيش كل فيها منفردة ومنعزلة عن الأخرى، ولكنها تترابط وتتساند على هيئة نسق متكامل لتعمل على ضغط المجتمع كوحدة واحدة.

فالنظم الاجتماعية مرتبطة بالنظم القانونية والأخلاقية والدينية والأسرية والتشريعية والسياسية والاقتصادية»[١].

وأما الهدفية فيقصد بها «أن النظم الاجتماعية لاتتجه إلى الصدفة لكى تحركها، لكنها محددة الأهداف من حيث أن لها أهدافا وأغراضا تتجه لحماية هذه النظم والحفاظ عليها»[٢].

وهكذا تبدوا أهمية النسقية والهدفية فى النظم المختلفة والمتعددة، لأنها تؤدى إلى السعادة التى ينشدها الإنسان بتصوره ومقياسه، وهذا يتطلب أموراً عديدة: حجم النظم التى يحتاج إليها الإنسان وهنا يأتى الشمول فى النظم الإسلامية، وكذلك الأفراد الذين ستعمهم هذه النظم

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٥.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

وهنا تأتى خاصية عموم النظم الإسلامية، فالنظم الوضعية النسقية فيها محدودة بحدود كل مجتمع، أما النظم الإسلامية فمفهوم العمومية فيها يشمل الكون والإنسان والزمان والمكان وذلك من خلال المقومات التى تساعد على ذلك.

وهذه النسقية مطلب حضارى ولكن هل توافرت الشروط التى تبنى نظماً صالحة تؤدى فى النهاية إلى التناسق وبناء الإنسان الصالح؟ الواقع الإنسانى فى النظم الوضعية لايشهد بذلك، فنسبة الانتحار، وانهيار الأسرة، وانتشار الأخلاق المذمومة يتعارض مع قول علماء الإجتماع: إن أهداف وأغراض النظم الوضعية «تنحصر فى محاولة تأمين المجتمع وتأكيد سلامته وسلامة أفراده والحرص على مقومات هذا المجتمع وبقاء كيانه»[(١)].

وقد يكون هذا القول مقبولاً لديهم، إذا كانت أهداف النظم الوضعية هى العنصرية، ونشر المادية الملحدة، ومحاربة الدين، والأخلاق الحسنة.

وهنا نقول: هل إباحة الزنا فى هذه النظم يؤدى إلى تناسق النظام الاجتماعى مع النظم الأخرى؟.

والأمر كذلك بالنسبة لشرب الخمر، وماهى الحقائق العلمية التى انتهى إليها العلم بخصوص الزنا والخمر والميسر وغير ذلك مما تشتمل عليه النظم الوضعية؟.

إن أهداف النظم لايستطيع أن يحددها غير الذى بقدرته أن يخطط النظم التى تستوعب حياة الإنسان المادية والروحية، ويعلم حقيقة المادية والروحية فى الإنسان، ومن ثم تأتى النظم بالأهداف التى تصل بالإنسان إلى المستوى الراقى والمعرفى الذى وضعه له خالقه.

---

(١) د. محمد عبدالسميع عثمان: أسس علم الاجتماع ص ١٨٦.

إن علماء الاجتماع وأصحاب النظم الوضعية لن يعييهم الكلام، وكان الأحرى بهم أن يبينوا الأهداف والأغراض التى حققتها النظم الوضعية للإنسان فى أى بيئة من البيئات.

إن السعادة لاتقاس بكثرة الاختراعات، وأسباب الترفيه، ولكنها كما يقول «ألكسيس كاريل»: «يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شئ. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لايملك معرفة علمية بطبيعته.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية.. إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا.. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها»[1].

ويقول «ول ديورانت» الفيلسوف الأمريكى فى كتابه «مناهج الفلسفة»: «وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطرة، لأننا أغنياء فى الآلات فقراء فى الأغراض.. وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الدينى، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا، ويبدو العالم كله مستغرقا فى فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب»[2]. ولنا على هذه الأقوال بعض التعليقات حيث إنه من الثابت أن التقدم لايذم لذاته وإنما تذم النظم التى تؤدى به إلى حالة الضنك هذه التى يعيشها العالم، أن هذه الدول أصيبت بكل هذه الأمراض، ولم تستطع المسيحية ولا

---

(١) د. ألكسيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٦م ص ٤١.

(٢) محمد قطب: التطور والثبات فى حياة البشرية، دار الشروق ط خامسة ١٩٨٣م ص ١٦٠.

اليهودية أن تقدم حلا لمشكلات الحضارة، ولم يثبت للغرب حضارة خلت من هذه الأمراض وتلك المشكلات، أما النظم الإسلامية فقد أقامت حضارات عديدة كانت خالية من الأمراض والأزمات التى واجهت غيرها من الحضارات، فهناك مملكة سليمان نبى الله ﷺ ، وماكان فيها من العطاء والفضل الإلهى، وهناك حضارة ذى القرنين وماكان فيها من كشف للسنن الإلهية فى الكون، ثم كانت الحضارة الإسلامية الخاتمة التى امتدت لأكبر رقعة من الكرة الأرضية، وامتدت أزمته طويلة بقيت أكثر من عشرة قرون.

إن خصائص النظم الوضعية التى أشار إليها علماء الاجتماع ليست شاملة وليست كاملة، وليست واقعية، وليست إنسانية، وإنما هى تقديرية لاتفى بحاجات الإنسان وهواه، كما ترجع فى أهدافها ومقاصدها إلى عوامل تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن ثم فالأهداف والمقاصد متعددة ومتباينة من مجتمع لآخر.

الفصل الخامس

أثر النظم فى المجتمعات

المبحث الأول : سنة الله فى النظم والمجتمعات

المبحث الثانى : أثر النظم الإسلامية

المبحث الثالث : أثر النظم الوضعية (المادية)

المبحث الأول : سُنَّة الله فى النظم والمجتمعات

أولا : مفهوم السنة.

السنة هى الطريقة والسيرة، وسنة الله : حكمه فى خليقته[(١)].

يقال : سننت الإبل، إذا أحسنت رعيتها والقيام عليها. واستن الفرس، وهو عدوه إقبالا وإدبارا فى نشاط، وسن الماء على وجهه : صبه صبا سهلا. وسن الحديدة : حددها[(٢)].

ويقال : هذا مما يسنك على الطعام، يشحذك على أكله، ويشهيه إليك وسن الشئ : صوره وملسه، والأمر بينه، والمشرع القانون، وضعه[(٣)]. ولما كانت المادة اللغوية لهذه اللفظة غنية بهذه المعانى استخدمها القرآن الكريم للدلالة «على مجموعة القوانين التى سنها الله - عز وجل - لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها»[(٤)].

فالسنة حكم وقانون يراعى فيه حسن التدبير حتى ترتبط المقدمات بالنتائج، والأعمال بالآثار المترتبة عليها. وهذه السنة تجرى فى نشاط واستمرار بدون توقف، وهى تعمل بيسر وسهولة فلا تتداخل ولا تفقد مرونتها، وذلك لإحكام صنعها ووضعها عند خلقها وتقديرها، وهى نافذة المفعول محققة الأثر قاطعة، وهى كاملة الأركان واضحة المفهوم تتعامل مع الإنسان حسب طاقاته وإمكانياته، وتزرع فيه الهمة إلى التعرف عليها ليقبل على توحيد المشرع الذى وضعها وأتقنها وعبادته، وتصديق رسله الذين أرسلهم، والعمل بوحيه الذى هو نظامه الذى تحكمه السنن الإلهية والقوانين

---

(١) انظر المعجم الوسيط ١ / ٤٥٦.

(٢) الفيروز ابادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد على النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ثانية ١٩٨٦م ٣/٢٦٨.

(٣) المعجم الوسيط ١ / ٤٥٥.

(٤) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق ٥٢.

الربانية، وهذه السنن واضحة وجلية فى الجانب المادى للكون فقد قدره الله تقديرا، يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾[٣] ويقول تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾[٤] ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾[٥]. ويقول تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[٦].

وهذا التقدير الإلهى تظهر آثاره فى قيام المخلوقات بدورها تبعاً للسنن الإلهية التى تحكم هذه المخلوقات وتسيرها، يقول تعالى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾[٧].

وبالتأمل نرى أن هذه السنن والقوانين تعمل بأمر الله وتنفذ أمر الله فهى أمر الله، الذى إذا اكتملت أسبابه وقعت آثاره وكانت نتائجه يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾[٨] ويقول تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[٩] ويقول تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾[١٠].

وتقوم هذه السنن الإلهية بدورها من خلال خصائص تجعل الأمور، التى تخضع لهذه السنن فى نطاق التسخير لنا.

---

(١) سورة الفرقان : آية ٢.

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٨.

(٣) سورة القمر : آية ٤٩.

(٤) سورة الأعراف : آية ٥٤.

(٥) سورة الأعلى : آية ٣.

(٦) سورة الطلاق : آية ٣.

(٧) سورة يس : آية ٤٠.

(٨) سورة الطلاق : آية ٣.

(٩) سورة الأحزاب : آية ٣٧.

(١٠) سورة البقرة : آية ٢١٠.

وأهم هذه الخصائص :

* الشمولية لكل الخلائق حيث يجد الإنسان أنها جميعا ترتبط بمنهج موحد من السنن الربانية، «فكل ما في هذا الكون من جماد وحيوان ونبات وإنسان يخضع لسنن ربانية محكمة ... وأنه لا شئ فى هذا الوجود خارج عن سنة الله، بل الكل خاضع له سبحانه»(١) وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾(٢).

* الثبات، أى أنها لا تتبدل ولا تتحول، يقول تعالى : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾(٤).

* الاطراد واللزوم، فجميع السنن التى فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة - بإذن الله - كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع، التى تحول دون تحقيقها، يقول تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٥) ويقول تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(٦).

وهذا الاطراد يخضع للقدرة والمشيئة الإلهية التى تحكم ماتريد، والتى إذا أرادت عطلت فى السنن هذه الخاصية لحكمة ربانية.

ومما لا شك فيه أن هذه السنن معالم ربانية شاهدة تدعو الإنسان إلى الإيمان بالله خالق السنن والقوانين، كما أنها دالة وهادية ومعلمة ومرشدة،

---

(١) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٦٥.

(٢) سورة الرعد : آية ١٥.

(٣) سورة فاطر : آية ٤٣.

(٤) سورة القمر : آية ٣.

(٥) سورة محمد : آية ٧.

(٦) سورة آل عمران : آية ١٢٠.

تأخذ بلب الإنسان وعقله إلى حقيقة أوسع وأشمل وأكمل وأهم، وهى حقيقة النظم الإلهية القائمة هى الأخرى على السنن الإلهية فتلك مقدمة لهذه.

ثانيا: علاقة النظم بالسنن الإلهية.

تسير النظم الإلهية وفق منهج علمى واضح المعالم والحدود، فالعبادات مقدرة، والمعاملات بكل أنواعها نجد فيها التقدير، والأخلاق معروفة الهيئة والصفة.

وهذا التحديد والتقدير بالأعداد والأرقام يمثل قانون الله ونظامه الذى يأمر به خلقه عند أداء هذه العبادات والقيام بها، وكل طريقة أخرى للأداء مردودة، سواء كان ذلك بالتغيير والتبديل أوبالزيادة والنقص، فقد وضع الله هذه النظم بقدر وتقدير يؤدى إلى آثار ونتائج مقدره، وهى على هيئتها التى شرعها الله عليها وطبقها رسول الله - ﷺ - تتفق وتتناسب مع قدر الله وتقديره فى خلق الإنسان، كما أن طاقتها تسير مع الطاقة الإنسانية، وإلى هذا يشير قول الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] وكان دعاء المؤمنين: ﴿ربّنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾[2].

ومن هنا فالخلل فى الأداء بأى صورة من الصور لا يحقق الآثار الحقيقية المترتبة على أفعال وأعمال الطاعات والعبادات، مما يجعلها مردوده لأن قانون الله فيها لم يكتمل وسنته لم تطبق كما شرع الله وكما طبق رسوله - ﷺ - وإلى هذا يشير رسول الله - ﷺ - بقوله: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»[3].

(١، ٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٣) رواه البخارى، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول رقم ٧٣٥٠ جـ ٢٨ ص ٨٥.

والحديث فى صحيح مسلم وسنن أبى داود. منصور على ناصف: التاج الجامع للأصول، كتاب الإسلام والإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ٣٣/١.

فلابد للنظم أن تكون قائمة على وفق القانون الذى وضعه الله، مستوفية للشروط التى سنها لقبولها حتى تعود على الإنسان آثار هذه النظم، وقد بين القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١).

ومن هنا فالسلوك الإنسانى مقدر ومحدد ويجرى وفق قانون وسنة، وتلك خصيصة من خصائص النظم الإسلامية. وهذا مايتمتع به المسلم دون غيره، فنظم الإسلام تكفل له سلوكا شاملاً لكل جوانب حياته، أهم مقوماته أنه علمى موضوعى يقوم على حقيقة ثابتة وسنة صادقة وقانون مدروس العواقب والآثار.

وقد لاحظ ذلك العلاقة ابن القيم وأشار إليه بقوله : «لهذا يذكر الشارع – الله – العلة والأوصاف المؤثرة، والمعانى المعتبرة، فى الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، ليدلك بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها»(٢).

وإن من يدقق النظر فى أحكام الشرع المختلفة، يجد أنها تعبر عن نوع من السنن المطردة، التى لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، فإن ترك شئ مما أمر به الشارع الحكيم يترتب عليه عاقبة وخيمة دائما، فى الدنيا قبل الآخرة، وإن الإتيان بشئ قد نهى الله عنه يترتب عليه كذلك عواقب وخيمة فى الدنيا قبل الآخرة، وفى هذا غاية العدل والحكمة والتدبير»(٣).

وبهذا البيان يجيب الفكر الإسلامى على كثير من الأسئلة التى يتصور البعض أنها معضلة أو ليس لها جواب، وذلك كسؤال البعض عن الصلوات

---

(١) سورة فاطر : آية ١٠.

(٢) أعلام الموقعين : ١ / ١٩٦.

(٣) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٧٨.

لماذا كانت خمسا؟ ولماذا كان عدد الركعات متفاوتا من صلاة إلى أخرى؟ ولماذا كانت مقادير الزكاة على هذا النحو؟ ولماذا كان الصيام شهراً قمريا؟ ولماذا كان الحج إلى بيت الله الحرام بمكة ؟ وهكذا.

والجواب أن هذه الأحكام سنن إلهية وقوانين ربانية تتفق مع طاقة الإنسان، تجلب له المصلحة وتدفع عنه المفسدة، وقد وضعت تبعا لعلم الله بدقائق النفس الإنسانية وخفاياها وطبيعتها ودوافعها وغرائزها، فجاءت محققة للأمن النفسي والاستقرار الروحي.

ثالثا: علاقة السنن بالإنسان والمجتمع.(١)

النظم الإسلامية سنن وقوانين، تحكم الإنسان والمجتمع، وتظهر آثارها عند تطبيقها فى صور كثيرة، وإذا ماخالفها الإنسان أو أعرض عنها فلها آثار أخرى تظهر فى صور أخرى، فالنظم سنن تنتج سننا، فالصلاة لها قانون وسنة والمحافظة عليها ينتج قانونا وسنة، والاهمال فيها ينتج قانونا وسنة، وهكذا الحياء والصدق والإيثار والشجاعة والصبر والجهاد وأداء الزكاة، وكل نظم الإسلام.

وهذه الآثار تظهر على الإنسان كما تشمل المجتمع.

«إننا نؤمن بأن الله - تعالى - هو خالق كل شئ بقدرته وإرادته واختياره وحكمته، وإن له تعالى فى نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع، سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وإن سننه تعالى عامة فى عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر السنن الإجتماعية باللفظ فى سورة المائدة والأنفال والحجر والإسراء والكهف والأحزاب وفاطر والمؤمنون والفتح، فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام فى

---

(١) راجع ص ٢٩١.

الخلق الذى تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها بحسب السنن والنواميس العامة التى وضعها الخالق لها»[١].

وإذا كانت سنن الله جارية وواقعة فى النظم التى شرعها، فهى كذلك تحكم حياة الإنسان وتظهر آثارها عليه.

يقول أبو الأعلى المودودى : «تلك سنة الله فيما خلق، وهذه السنة كما هى جارية فى سائر الموجودات، هى جارية أيضا فى الإنسان، سواء فى حالته الفردية أو فى حالته الجماعية القومية، فلا يزال العز والذل، والعسر واليسر، والصعود والنزول، وما إلى ذلك من الحالات ينتاب الأفراد والأمم المختلفة وفق تلك الحركة الدورية، فتطرأ على الجميع كل هذه الأحوال بالتناوب، وليس منهم من حرم فى هذه القسمة للأبد، ولا منهم من اختص بدوام حالة واحدة عليه للأبد، سواء أكانت حالة الإقبال أم الإدبار»[٢].

وهذا قانون وسنة إلهية يشير إليها قول الله – تعالى – : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾[٣].

ومعنى ذلك أن سلامة الإنسان وسعادته ليست ذاتية، وإنما هى ترتبط بالنظم التى ينظم بها حياته، ومدى توافق هذه النظم مع طبيعته ومكوناته، وكما يقول أهل التخصص : صاحب الصنعة أعلم بأسرار صنعته، وهذا يؤكد ضرورة النظم الإسلامية.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن النظم الإسلامية فى كل مجالاتها تقوم على أفعال وأعمال وأفكار تقع مابين الأمر والنهى، وما بين حلال وحرام، ويترتب على عمل الحلال آثار، كما يترتب على عمل الحرام آثار، وهذه كلها محكومة

---

(١) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ١٥٣ وما بعدها.

(٢) أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية، دار الفكر ٧٢.

(٣) سورة الأحزاب : آية ٦٢.

بسنة وقانون إلهى جعله الله آية وعلامة واضحة تدل الإنسان على مولاه، وما يجرى على الأفراد يجرى على المجتمعات.

وقد ربط الله بين سنن النظم وبين الإنسان والمجتمع، فأيما إنسان عمل بنظم الإسلام التى هى نظم خالق هذا الإنسان إلا نال الأثر الطيب وهو الجانب الإيجابى فى سنن الله، وأيما عبد خالف نظم الصانع الخالق فى صنعته إلا نال العقاب الذى جعله الله قانونا وسنة، وهو الجانب السلبى للقانون والسنة الإلهية.

يقول تعالى مـ ـنا العلاقة بين قانون النظم الإلهية وعلاقته بالإنسان والمجتمع : ﴿وَكَانَ أَبـ ـهُمَا صَالِحًا﴾(١) ويقول تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾(٣).

وهذه الآيات تبين السنن الإلهية التى جعلها الله آثاراً للطاعة وعمل الصالحات، التى تتمثل فى تطبيق قانون الله فى النظم وتشغيل الإنسان. وهناك آيات أخرى تبين السنن الإلهية التى جعلها الله مرتبطة وحتمية للكفر والمعصية، يقول تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٥) ويقول تعالى : ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(٦). ويقول تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ

---

(١) سورة الكهف : آية ٨٢.

(٢) سورة الرحمن : آية ٦٠.

(٣) سورة الليل : آية ٥ : ٧.

(٤) سورة الأنفال : آية ٥١.

(٥) سورة الزخرف : آية ٥٥.

(٦) سورة الأعراف : آية ١٦٦.

أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾[١].

والآيات القرآنية فى بيان السنن الإلهية التى تربط بين النظم والإنسان والمجتمع كثيرة، وهى تؤكد قيام وحتمية هذه السنن واطرادها فى حياة الأفراد والمجتمعات، كما أنها تبين تعددها وتنوعها مابين مادية ومعنوية فى جانب الفجور والتقوى، والطاعة والمعصية، والإصلاح والإفساد، والكفر والإيمان.

ولنا أن نستأنس بما كتبه الدكتور : أحمد محمد كنعان، وهو يبين هذه الحقيقة، وذلك فى قوله : «أجل .. فإن سنن الله - عز وجل - لا تحكم العالم المادى وحده، بل هى تحكم مافى هذا الوجود من خلائق، سواء أكانت مادية كالذرة، والكهرباء والحرارة، أم كانت معنوية كالعواطف الإنسانية، والسلوك الاجتماعى .. وهذا ما تؤكده آيات كثيرة من القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾[٢] فالكل خاضع لله .. خاضع لسننه التى فطر الخلق عليها .. وكما أن الماء يطفئ النار، وكما أن المعدن يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة ..

وهذه كلها سنن مادية مشاهدة ومدركة .. فكذلك السنن التى تحكم النفس البشرية والحياة الاجتماعية، فهى سنن تقوم على مقدمات ونتائج، وترتبط نتائجها بمقدماتها ارتباطا وثيقا مقدرا من الله عز وجل.

ويجمع علماء النفس من خلال ماحصلوه من معلومات وخبرات عن طبيعة النفس البشرية، بأن هذه النفس محكومة بسنن صارمة، تقدر حالها،

---

(١) سورة الطلاق : آية ٨ : ١٠.

(٢) سورة آل عمران : آية ٨٣.

من حيث الصحة والمرض، والعادة والشقاء، كما يجمعون على أن الوضع النفسى للفرد يتوقف بصورة مؤكدة على عوامل عديدة، كالثقافة والظروف البيئية والاجتماعية والسياسية ..

ويثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة دون لبس، ويبين بوضوح تام، أن حال الإنسان من حيث السعادة والشقاء مثلا مرهونة بنظرته إلى الحياة، وبموقفه من هذه الحياة .. ففى سورة الشمس، يخبرنا الله - عز وجل - بأن صلاح الإنسان مرهون بتزكية نفسه، وأن شقاءه بالمقابل، مرهون بتدسية هذه النفس ..

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾(١).

فهذه سنة نفسية تصدق على أى إنسان، فأيما إنسان صدق العزم، وأخلص النية، وزكا نفسه، فنأى عن المحرمات، وعن الخبائث، فإن الفلاح سيكون من نصيبه، وأيما إنسان دنس نفسه بالحرام، ورضى بالخبائث فإن الخسارة نازلة به لا محالة.

ولقد قدم لنا القرآن الكريم السُّنَّة التى تحكم سعادة الإنسان وشقاءه بصورة معادلة رياضية لا تقبل الجدل، وذلك فى قوله - سبحانه - : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(٢).

فالسعادة والشقاء كما يقدر الحق - تبارك وتعالى - رهن بالتزام شرع الله، أو النأى عنه ورفضه، وهذه سنة ربانية تحكم حياة البشر، وستظل تحكمها إلى يوم القيامة ..

---

(١) سورة الشمس : آية ٧ : ١٠.

(٢) سورة طه : آية ١٢٣، ١٢٤.

ولو تتبعنا الآيات القرآنية، لوجدناها تعرض لنا الدليل تلو الدليل على أن النفس البشرية خاضعة لسنن صارمة، لا تقبل التبديل ولا التحويل. فإذا ما انتقلنا بعد ذلك من نطاق النفس البشرية، إلى نطاق المجتمع، فإننا سنجده أيضا محكوما بسنن ربانية صارمة شأنه شأن النفس ... ولا عجب فى هذا، فإن المجتمع فى الحقيقة ليس إلا مجموعة من الأفراد .. وأن حال المجتمع يعكس سلوك هؤلاء الأفراد أنفسهم، ومن ثم فإن مصير المجتمع بأسره مرهون بسلوك أفراده .. نجد مصداق هذا فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[١] وقوله - تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[٢].

وفى هذا دليل على أن سلوك الأفراد، الذين يشكلون مجتمعا ما، يعد بمثابة مقدمة لنفاذ السنة المرتبطة بهذا السلوك .. وبمعنى آخر فإن انتقال المجتمع من حال إلى حال لا يحصل عشوائيا، بل يحصل وفق سنن ربانية تحكم مساره وتضبط وجهته»[٣].

وحقائق القرآن الكريم فى هذا المجال ليست نظرية فقط، وإنما لها رصيد كبير يؤكدها من الواقع العملى والمجال التطبيقى، وذلك فى حياة الأفراد والمجتمعات السابقة التى ظهرت فيها الآثار الإيجابية والسلبية للسنن الإلهية والقوانين الربانية التى تحكم سلوك الأفراد والمجتمعات، يقول تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم

(١) سورة الرعد : آية ١١.

(٢) سورة الأنفال : آية ٢٥.

(٣) انظر د. أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٥٨ وما بعدها.

(٤) سورة القصص : آية ٨١.

مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾(١) وقوله كذلك : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(٢) وحديث القرآن الكريم عن الأمم والمجتمعات السابقة المختلفة والمتعددة واضح فى بيان الجانب التطبيقى لسنن الله، منها من عاش حياة رغيدة آمنة، ومنها من ذاق لباس الخوف والجوع، ومنها من باد وهلك بعذاب أليم، والأمثلة كثيرة، فهناك قوم نوح وقوم هود، وقوم صالح وأصحاب مدين، وفرعون وقارون، وهناك سبأ، وصاحب الجنتين، وعلى الجانب الآخر هناك ذو القرنين. يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾(٤).

وهكذا فالعلاقة قائمة بين قانون النظم وقانون الإنسان والمجتمعات، بين الإيمان وأثره، وبين الكفر وأثره، بين الطاعة وأثرها، والمعصية وأثرها.

وقد عرضت السنة النبوية لكثير من الحقائق التى تتصل بالسنن الإلهية والقوانين الربانية التى تحكم حياة الأفراد والمجتمعات. وذلك فى قوله - ﷺ : «ما ظهر فى قوم الربا والزنى إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله»(٥) وقوله - ﷺ : «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»(٦) وقوله - ﷺ :

(١) سورة العنكبوت : آية ٤٠.

(٢) سورة فاطر : آية ٤٣.

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٦.

(٤) سورة الجن : آية ١٦.

(٥) الحديث فى مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود ٤٠٢/١، والحديث فى مجمع الزوائد ١١٨/٤ قال الهيثمى : رواه أبو يعلى، وإسناده جيد. السيوطى جمع الجوامع ٤٩٨/١٨٨٧٠ ص٢٣٣١.

(٦) الحديث فى مجمع الزوائد كتاب الزكاة، باب فرض الزكاة، قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط. السيوطى جمع الجوامع ١١٨٧ - ١٩٥٥٩ ص ٢٩٦٤.

«لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض مافى أيديهم.

ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[(١)].

هذه صور للسنن الإلهية التى تحكم الأفراد والمجتمعات وتقع بهم وتظهر فيهم آثارها، وهذه نتيجة حتمية مرتبطة بمخالفة سنن الله التى جاءت فى نظمه التى شرعها ونظم بها خلقه من الأفراد والمجتمعات.

وهناك صور ونماذج عرضت لها السنة النبوية فيما يتصل بالسنن التى تظهر فى الأفراد والمجتمعات عند الالتزام وتطبيق النظم الإلهية، ومن ذلك قول النبى ﷺ : «من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ فى أثره فليصل رحمه»[(٢)] وقوله - ﷺ - : «مانقصت صدقة من مال، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[(٣)] «فهذه كلها سنن اجتماعية لا تتخلف نتائجها عن أسبابها، فهى كالمعادلة الرياضية، التى ترتبط فيها

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات ٤٠١٩ حـ ٢ ص ١٣٣٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة : باب صلة الرحم. النووى : شرح صحيح مسلم ١٦ / ١١٤.

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة : باب استحباب العفو والتواضع. شرح النووى ١٤١/١٦.

النتيجة بالمقدمة ارتباطا محكما لايقبل التبديل»[١] ونخلص من كل ماسبق إلى تقرير الحقائق الآتية :

- أن لله سننا وقوانين أقام عليها النظم التى شرعها لخلقه.
- أن هذه السنن تتوافق وتنسجم مع خلق الإنسان وطبيعته وأنها تحقق له الإنسجام مع المجتمع والكون.
- أن الله أحكم صنع الكون المادى وأتقنه بسنن وقوانين تحكم نظامه وحركته، ومن خلالها يقوم كل مخلوق بدوره، ومنها تعلم الإنسان الكثير واستفاد منها فى حياته العملية.
- أن الإنسان والمجتمع يخضعان لسنن إلهية مرتبطة بالنظم الإلهية سواء عند تطبيقها والعمل بها أو عند تركها ومخالفتها.
- أن الواقع وأخبار الأمم السابقة يؤكد ذلك.
- أن السنن الإلهية التى تحكم العالم المادى جعلها الله دليلا يأخذ بالإنسان إلى الإيمان بالسنن التى قامت عليها النظم الإلهية، والتصديق بالسنن التى جعلها الله آثاراً للإيمان بالنظم أو الكفر بها ومخالفتها.
- أن هذا الفكر السننى ليس له مصدر سوى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتلك خصيصة إسلامية لا توجد فى أى فكر آخر، أو أى مذهب وضعى.

---

(١) د . أحمد كنعان : أزمتنا الحضارية ٦١.

المبحث الثانى : أثر النظم الإسلامية

جاءت النظم الإسلامية مستوفية لكل الخصائص والمعالم التى تؤكد توافقها مع الطبيعة الإنسانية بما فيها من طاقات وقدرات ونوازع ودوافع، وما ذلك إلا لأنها نظم الله الذى خلق الإنسان وصوره فى أحسن تقويم، ولما كانت النظم الإسلامية على هذا النحو فقد جاءت لتوظف طاقات الإنسان أحسن توظيف، ولتستخرج مافيه من المواهب الروحية التى تجعل الإنسان أهلا لاستشراق العوالم النورانية والآفاق العلوية، فالمسلم لا يؤمن بعالم الغيب إيمانا نظريا فقط، وإنما يجمع إليه التذوق والوجد والمشاهدة من خلال النظم الإلهية التى توفر له هذه الملكات وتحرك فيه هذه الطاقات، ولذلك فالقضية ليست فى عالم الغيب ولكن القضية فى النظم التى تحرك الملكات وتوقظ عالم الروح الحقيقى فى الإنسان، وقد شرح القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله - تعالى - : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾(١) وقوله - تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾(٢).

ومن هنا كانت آثار النظم الإسلامية بعيدة المدى عظيمة التأثير والأثر فى الإنسان لأنها تتعامل مع الكيان الإنسانى بشقيه المادى والروحى، وهى فى فكرها وتطبيقاتها العملية تغذى فيه الجانبين معا، ثم تضيف الى ذلك بعداً ثالثا وهو الأثر الذى يلحظه المسلم فى حياته الخاصة والعامة، فيما بينه وبين مجتمعه، وفيا بينه وبين ربه وخالقه - سبحانه وتعالى - فالنظم الإسلامية مربية وحاكمة ومثمرة.

وآثار النظم مجالاتها واسعة، يراها المسلم فى تربيتها للفرد والجماعة، ويراها كذلك فيما تحققه من هدى ونور وصلاح، وأخوة صادقة،

---

(١) سورة البقرة : آية ٥.

(٢) سورة الزمر : آية ٢٢.

وترابط حقيقى بين أفراد المجتمع المسلم، ويراها كذلك فى نجاح الفرد المسلم فى رسالته، ونجاح الأمة فى القيام برسالتها وشهادتها على الناس، ويراها كذلك فى الدنيا والآخرة، ويراها كذلك فى التقدم العلمى بكل تخصصاته، والآفاق الروحية التى تصل بالمسلم إلى مقام اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إن المسلم يعرف من خلال سنة الله فى النظم الإسلامية بركة الطاعة، وشؤم المعصية، ويعرف أن هذه من آثار النظم الإسلامية، إنه يتعامل مع النظم الإسلامية فيرى أثرها وثيق الصلة به فى كل شؤن حياته، كما يرى أثرها فى الأسرة التى يعيش فيها والمجتمع الذى هو فرد من أفراده.

وقد جاءت آثار النظم الإسلامية على النحو التالى :

أولاً : أثر النظم فى بناء المجتمع.

يقوم المجتمع على عدد من الأفراد يمثلون كيانه وحقيقته، تربط بينهم روابط متعددة، تختلف فى تصورها من مجتمع لآخر، «فكل مجتمع لا يصلح للحياة المشتركة، إلا إذا وجدت بين آحاده روابط من ضروب شتى، تجمع بينهم وتوجههم إلى غرض واحد. وقد وجدت هذه الروابط فى أول أدوار الاجتماع، وكانت من السذاجة على قدر ماكان عليه الأجيال الأولى من البساطة، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعا بأفراد من نوعه، كانت أولى تلك الروابط الحاجة المعاشية، فكان الأفراد يترابطون على القيام بها تحصيلا للقوت، ودفاعا عن الحوزة ضد الحيوانات الضارية، وضد المغيرين عليهم من الجماعات المجاورة لهم. وكانوا كلما ارتقوا فى الأسباب، زادت الروابط التى بينهم تركبا، ومازالت تتركب حتى بلغ الإنسان شأوا بعيداً من المدنية، فبلغت الروابط بينهم من التعقد بحيث يعوزها خبرة عظيمة بما يناسب الجيل من القيود والروابط ... من هنا صارت الحاجة

ماسة إلى وجود علماء للاجتماع ليتعرفوا هذه الروابط، ويقفوا على أسباب توثقها، وعلل تفككها، ووسائل معالجتها، حرصا على بنية المجتمع من الانحلال»[١].

وهذه الروابط متداخلة ومتشابكة ومعقدة، فالمجتمع يجمع بين الذكر والأنثى، والأم والأب، والزوجة والولد، والأخ والصديق والجار فى السكن، والصاحب فى العمل، والصغير والكبير، والصحيح والمريض، والغنى والفقير، والحاكم والمحكوم، وكلها حقائق تشكل المجتمع، وتكشف عن عمق المشكلة التى تواجه من يضع روابط للمجتمع، تربط بين هذه النماذج جميعا مع مراعاة العدل والمساواه بين الجميع فى الحقوق والواجبات، ولا يتسنى ذلك إلا للخالق الذى خلق الجميع، وقد سبق علمه بهذه الحقيقة التى يقوم عليها المجتمع، فجاءت تشريعاته ونظمه موازية لهذه الحاجات، محققة للعدل والمساواة بين هذه النماذج وتلك الحالات التى إن أهمل منها نموذج واحد، أو لم يعالج معالجة تتوافق مع حالته فربما أدى ذلك إلى وقوع الخلل فى المجتمع.

ومن هنا كان إهتمام النظم الإسلامية بالأركان التى تمثل المجتمع، وكان أثرها الواضح فى هذه الأركان التى تجمع الفرد والأسرة والأمة.

- أثر النظم فى بناء الإنسان.

الإنسان هو اللبنة الأساسية التى يتكون منها المجتمع، ولذلك اهتمت به النظم الإسلامية أيما اهتمام، لتجعل منه المثل الصالح والقدوة الحسنة، والنموذج الطيب الذى يشكل مجموع الأمة، وقد حددت النظم الإسلامية للإنسان المسلم كوحدة فى بناء المجتمع الحقائق اللازمة لبناء شخصيته وتقويم فكره، حيث أمدته بالحقائق التى تتصل بخلقه ومكانته بين المخلوقات،

---

(١) محمد فريد وجدى : مهمة الإسلام فى العالم، هدية مجلة الأزهر ١٤٢٢ هـ ٢ / ٢٦.

ودوره ومهمته فى الكون، ومدى رعاية الله له وعنايته به، كما حددت له السلوك المستقيم، ورسمت له الصورة الصحيحة الحقيقية لغايته التى خلق من أجلها.

والمتأمل فى النظم والقيم الإسلامية يرى أنها جاءت على قدر هذه الحقائق التى يزرعها الإسلام فى قلب وعقل المسلم، ولذلك يظهر أثر النظم فى بناء الشخصية من خلال، «تلك الخصائص العامة التى يصنعها الإسلام بطبيعة الفلسفة التى يقدمها للإنسان، والقيم التى يدخلها إلى بنائه النفسى، بحيث كل فرد من أفراد المسلمين مهما تكن خصائصه، الوراثية الجسمية، البيولوجية والفيزيولوجية، فإنه يأخذ حظه من الآثار التى تولدها التربية الإسلامية فى شخصيته، والتى يصبح بفضلها كائنا يجمعه قاسم مشترك مع غيره من الأفراد داخل نفس المجتمع»(١).

وهذا الأثر الذى تحدثه النظم الإسلامية فى المسلم يعمل فى اتجاهين: إتجاه تربية للمسلم، واتجاه النتائج التى تعود عليه نتيجة لتطبيقه للنظم، حيث يجد ثمرة هذه التربية.

وبالتالى فهذا التأثير ذو شقين .. شق يترتب على قراءة الإنسان فى نظم الإسلام وثقافته، والشق الآخر يترتب على معايشة الإنسان لثقافة الإسلام والتزامه تطبيقا لنظمه»(٢).

وهكذا فالنظم الإسلامية تصنع الإنسان القدوة، الذى يوجد لديه وعى صحيح بحقيقة النظم الإسلامية، يمكنه من كشف الدخيل من النظم الوضعية، ومواجهة الوافد من التيارات الثقافية البشرية النابعة من أهواء

---

(١) د. عبدالمجيد بن مسعود: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، كتاب الأمة، ط أولى ١٩٩٩م ١٢٦.

(٢) د. مصطفى أبو سمك: نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦٦.

العقول، وهذا هو التحصين لعقل المسلم ضد هذه الانحرافات الفكرية، والذى تحققه النظم الإسلامية بتنمية قوى الإنسان الروحية والفكرية، والحسية والمادية، مما يحقق للمسلم السير فى طريق طاعة الله - عز وجل - ومراقبته وخشيته، والبعد عن طريق الهوى والعصيان.

وأعظم أثر لنظم الإسلام فى الفرد المسلم «هو تقوية صلته بالله - عز وجل - إلى الدرجة التى تجعله يراقبه فى السر والعلن، فى كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شئ إلا وهو يراعى حرمة الله ويرجو له وقارا، إنه يستشعر الخشية منه، وهو مقيم بين الخوف والرجاء، وهذا يملأ قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف، الخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، لأنه يشعر بقوة الله وحده، وأنه هو المالك للضر والنفع، وهذه الصلة بالله لها من الآثار، ذلك التركيز لفكر الإنسان وجهوده وطاقاته حول محور واحد هو الولاء لله ولرسوله وملة الإسلام ونظمه، فهذا التركيز هو الدرع الواقى من التشتت والانشطار الذى يضرب الذات بعنف فى غياب الإيمان بالله.

وإذا كانت النظم الإسلامية، وعلى رأسها الإيمان بالله، تترك أثرها فى النفس والجسم، طمأنينة وسكينة، فإنها فى ترابط عضوى مع كل الآثار السابقة، تخلف أثرها الواضح فى عقل الإنسان المسلم بفضل ذلك النسيج المحكم من الحقائق والتشريعات وأنماط السلوك التى يتصل بها كيان المسلم»[١].

يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[٢].

ولابد أن يستوعب المسلم حقيقة السنن الإلهية والتى تمثل النتيجة الحقيقة لأثر تطبيق النظم واستيعابها، وذلك كسنة الإيمان يؤدى إلى الفلاح،

---

(١) د . عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٢٧ بتصرف.

(٢) سورة التغابن : آية ١١.

يقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) ﴾[١] والكفر يؤدى إلى البوار يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾[٢] ومثل ذلك علاقة الاستغفار بنزول المطر فهذا أثر يمثل قانونا للنظم الإسلامية ينتج عنها عند تطبيقها، وكذلك المدد بالأموال والبنين، وعلاقته بالزراعة والرى، والجنات والأنهار، وكذلك علاقة المعاصى بظهور الفساد فى البر والبحر، إلى غير ذلك من الآثار الإيجابية والسلبية التى تتعلق بالنظم الإسلامية عند التطبيق وعدم التطبيق، وهذا مجال واسع يحتاج إلى دراسة متخصصة.

ولا شك أن هذه الآثار تتعلق بحياة المسلم، وهو يواجها تبعا لنوعية أعماله وسلوكه الذى يختاره، ولا يظلم ربك أحدا .

وهذا هو عطاء النظم الخاص بالنظم الإسلامية فقط، والذى «يتمثل فى قدرة النظم الإسلامية على تحقيق المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والشرور عن كل فرد من أفراد المجتمع»[٣].

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآثار تجمع بين المادية والروحية المعنوية، وهذا مرتبط بدرجة الإخلاص التى يلتزم بها المسلم فى أداء ماعليه من حقوق وواجبات تجاه نفسه وتجاه الآخرين، وقبل ذلك تجاه الله سبحانه وتعالى. يقول تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩) ﴾[٤].

والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن والسنة، وصورتها جمع القرآن فى الآثار المترتبة على نظم الإسلام بين البركات التى تفتح من السماء والأرض

---

(١) سورة المؤمنون : آية ١.

(٢) سورة إبراهيم : آية ٢٨.

(٣) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٦٨ .

(٤) سورة الأحقاف : آية ١٩.

والنور الذى يجعله الله فى القلب، والبرهان الذى يختص الله به من يشاء، والبصيرة التى ينالها أهل الايمان والتقوى، وهذه كلها آثار معنوية روحية، وبين الآثار المادية، وصورتها زيادة الرزق والعيش الرغد، والمخرج، والتيسير، والرزق من حيث لا يحتسب. إلى غير ذلك من الآثار.

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾(١) ويقول تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾(٢) ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(٣) ويقول تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾(٥).

وهذه الآثار – كما هو واضح من الآيات القرآنية – قانون يحكم نظم الإسلام فى كل الرسالات.

- أثر النظم فى بناء الأسرة.

الأسرة هى الوسيلة التى شرعها الله، وجعلها سببا للتناسل وتحقيق الذرية، فالأفراد جميعاً ينتمون إلى أسر مختلفة، والأسرة تحمل فى نظام الإسلام أمانة إعداد الأفراد، ولذلك كان اهتمام الإسلام بها عظيما، ودعوته إلى قيامها وتحقيقها أمراً أكيدا، فقد رغب الإسلام فى الزواج، وجعله

---

(١) سورة المائدة : آية ٦٦.

(٢) سورة الجن : آية ١٦.

(٣) سورة الأعراف : آية ٩٦.

(٤) سورة نوح : آية ١٠ : ١٢.

(٥) سورة هود : آية ٣.

السبيل الوحيد والطريق المشروع للعلاقة بين الرجال والنساء، وحتى يتحقق وجود الأسرة - معمل الأفراد - يسر الإسلام الأسباب التى تؤدى إلى قيامها، وأتاح الوسائل التى تحققها، ولم يقف بها عند الأسباب والوسائل المادية فقط، وإنما امتد بها إلى مكارم الأخلاق ومكانة الإنسان فى فكر الإسلام وثقافته، وبين للناس فلسفة الزواج، والدوافع التى على أساسها يتناكح الناس، وبين الحقيقى منها والوهمى، والأصيل والمزيف، وذلك فى كل من الزوج والزوجة، حتى أن الإسلام تغلغل فى البيان فتناول عوامل الوراثة وخصوصا منها مايتصل بالأخلاق والعادات والتقاليد الحسنة والسيئة، وجاء أثر النظم الإسلامية واضحا فى بناء الأسرة عندما رسم الإطار الصحيح لمكان الرجل والمرأة فى الأسرة، وحدد لكل منهما دوره، وماله من حقوق وما عليه من واجبات، ورتب الخطوات التى على أساسها تقوم العلاقة بين الزوج والزوجة، وشرح لهما الغاية من هذا الزواج، وأنه لا يقتصر على المتعة وقضاء الوطر فقط، وإنما هذه وسائل ودوافع يحرك الله بها الإنسان لبقاء النسل وقيام الذرية التى هى عماد الأسرة.

ولما كانت تربية الأولاد تحتاج إلى مرونه وصبر، وجدنا نظم الإسلام تعالج ذلك ببيان المنهج الذى يتبعه الزوج والزوجة فى تربية الأولاد، وبيان الخير الذى يعود عليهما من وراء التربية الحسنة، كما عالج الأزمات التى قد تطرأ على الأسرة، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، مع بيان دورهما فى هذا العمل الشاق مما يدفع بالأولاد إلى برهما والعطف عليهما، وفى كل ذلك تعرض النظم الإسلامية صوراً واقعية من مصادرها الأصيلة، تشرح من خلالها للزوج والزوجة المراحل التى تعرض لهما فيما يتصل بنعمة الأولاد، والغاية التى من أجلها يطلب الولد ذكرا كان أو أنثى، وكيف يقف كل منهما عند فقد الولد، أو الحرمان منه، وذلك من خلال حياة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام، وحياة المؤمنين الصادقين الذين يقول الله عنهم :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[١] ويقول عن مقاصدهم فى الزواج والتناسل : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾[٢] ويقول عن تقديرهم لنعمة الأولاد، وقيامهم بواجب تربيتهم، وما يرجونه لهم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ ﴾[٣]. وفى مقام التربية يعرض كذلك الفكر النظمى الإسلامى من خلال مصادره نماذج للصادقين، وخير مثال على ذلك ما بينته لنا سورة لقمان - عليه السلام -. إن الأسرة هى المجتمع الصغير، وهى نواة الأمة الإسلامية، وطالما كانت فى رحاب النظم الإسلامية فهى محققة لدورها من خلال التعاليم والأحكام الربانية التى تمثل نظم الإسلام، التى تحقق لها السعادة وتضمن لها السكن المادى والمعنوى والمودة والرحمة، وحتى يقف المسلم والباحث عن الحقيقة على الأثر العظيم للنظم الإسلامية فى بناء الأسرة المسلمة، فإن عليه أن يمم وجهه شرقا أو غربا إلى النظم الوضعية، ليرى الفارق واضحاً بين الصورتين والحقيقتين من خلال آثار كل منهما، وإلى أى مدى يحقق كل من النظامين الأمن والاستقرار للأسرة بالمفهوم الصحيح وليس المزيف أو الخداع فى ظل رسالة الإنسان وغاية وجوده، وليس فى ظل الأهواء والشهوات. ولو أن الباحث عن الحقيقة قارن بين النظامين من خلال التعرف على بعض الحقائق فى كل من النظامين الإسلامى والوضعى من مثل العفة، وزى المرأة، وعلاقتها بالآخرين وبزوجها، والحرية، فإن الحقائق ستتحدث عن نفسها، والفطرة ستجد ضالتها، وليس ذلك إلا فى الأسرة المسلمة[٤].

---

(١) سورة الفرقان : آية ٧٤.

(٢) سورة مريم : آية ٥، ٦.

(٣) سورة إبراهيم : آية ٣٩، ٤٠.

(٤) عالج كثير من الباحثين المسلمين نظام الأسرة فى الإسلام، كما عالجها أساتذتنا فى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين بالقاهرة نذكر منها على سبيل المثال : دراسات فى النظم والثقافة الإسلامية، لكل من الأساتذة : أ.د محمود يوسف كريت، أ.د مصطفى أبو سمك، أ.د. محمد رجب الشتيوى، أضواء على النظم الإسلامية. أ.د. عبدالقادر سيد عبدالرءوف، فلتراجع.

- أثر النظم فى بناء الأمة.

جاء الإسلام ليجمع من يدخلون فيه تحت راية واحدة، وأمة واحدة، ووضع الأسباب والوسائل والمقومات التى تحقق ذلك، وتكفلت النظم الإسلامية ببيان ذلك، فالقاعدة الفكرية واحدة، والمنظومة الثقافية واحدة، ومصادر النظم لدى الجميع واضحة.

وقد جاءت تراتيب النظم الإسلامية لبيان هذه الحقيقة واضحة، حيث الأمر بالتعاون والاعتصام، والدعوة إلى إخراج الأمة وتكوينها، وبيان صفات هذه الأمة وخصائصها، ومقوماتها، والدور المنوط بها، مع النهى عن الاختلاف والتفرق، وترك سبيل المؤمنين، والتشيع أحزابا.

وهذا يلقى بالمسئولية على عاتق كل مسلم للقيام بدوره فى تحقيق هذا المطلب الإسلامى.

وقد جاء أثر النظم الإسلامية واضحاً تجاه هذه الحقيقة، حيث الروابط التى تخلق من المجتمع أمة، «فقد كانت الروابط الاجتماعية للأمم إلى عهد الإسلام تنحصر فى التعاون على تحصيل مقومات الحياة المادية بإثارة الحروب على المجاورين وشن الغارات عليهم، فإذا كتب لجماعة منها النصر جعلت همها تجريد المقهورين من أموالهم، واستعباد رجالهم ونسائهم، والأخذ بسنة العسف فى معاملتهم، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة وغايتها تسويد الجنس الغالب على جميع الأجناس البشرية، ولكن الروابط الإسلامية كانت أصولا أدبية هى أرفع مايصل إليه العقل من معنى العدل الإلهى فهى تقوم على هذه المبادئ :

أولها: المساواة بين جميع الخلق لأن كلهم لآدم وآدم من تراب.

ثانيها: أن التفاضل بينهم لا ينبنى على الفوارق من جنس ولون ولغة، ولكن على الكمالات النفسية، يقول تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

ثالثها: أن القبائل والشعوب خلقت لتتعارف على الاضطلاع بأعباء الحياة، لا لتتناكر وتتناحر.

رابعها: تسويد الحق فى جميع المواقف على القوة، يقول تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾[١].

خامسها: العمل على إعلاء كلمة الله فى الأرض، وهى العدل المطلق لا المصلحة المادية[٢].

ولا شك أن النظم الإسلامية ومن خلال أثرها هى التى ساعدت على إخراج الأمة الإسلامية كواقع عملى فى السابق، ولا تزل هى القادرة على إعادة إخراجها مرة أخرى متى تقوم برسالتها التى تحتوى ثلاثة أقسام رئيسية هى :

١) الإيمان بالله، ومحوره الإيمان بقدرته وهيمنته وإنه المالك المتصرف بالوجود كله. وثمرة هذا الإيمان تحرر الإنسان من طغيان الآلهية المدعاة، وإطلاق قدراته العقلية والنفسية والجسدية لاستعمالها فى تسخير الكون دون عائق من رهبة أو رغبة.

٢) الأمر بالمعروف، ومحوره الدعوة إلى التوافق مع سنن الله وأقداره وقوانينه فى الوجود القائم، لأن فى هذا التوافق بقاء الإنسان ورقيه.

٣) النهى عن المنكر، ومحوره التحذير من الاصطدام بسنن الله وأقداره وقوانينه فى الوجود القائم لأن هذا الاصطدام تدمير لبقاء الإنسان وسقوطه فى الدنيا والآخرة[٣]، وهذه العناصر الثلاثة الرئيسية التى

---

(١) سورة يونس : آية ٣٢.

(٢) محمد فريد وجدى : مهمة الإسلام فى العالم ٣٠ وما بعدها.

(٣) د . ماجد عرسان الكيلانى : إخراج الأمة المسلمة، كتاب الأمة ط أولى ١٩٩١م ٥٨.

تتكون منها الرسالة متضمنة فى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(١).

إن النظم الإسلامية هى التى أكسبت الأمة عوامل قوتها وجعلتها فى مقدمة الأمم، بل خير أمة أخرجت للناس فى تاريخ الحضارات الإنسانية فى القديم والحديث، وذلك للدور الذى تضطلع به هذه الأمة، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢) وهذه الرسالة مهمة وضروورية فى وجود الأمة واستمراريتها، وتبدو هذه الأهمية فى الأمور التالية :

الأمر الأول: تتقرر مكانة الأمة بين الأمم على المستوى العالمى، بمقدار ماتقدمه من عطاء حضارى للآخرين، وهذا العطاء هو الرسالة التى تحملها الأمة بين الأمم الأخرى، وتضع فى خدمتها كافة إمكاناتها ومصادرها البشرية والمادية والمعنوية، وهو مايسميه – توينبى – الأناقة الحضارية.

الأمر الثانى: إن هذا العطاء الحضارى هو الضامن لبقاء الأمم واستمرارها. ذلك أن الأمة التى تتوقف عن العطاء تبدأ بالأخذ، والأخذ الذى لا يوافقه عطاء متبادل سبب من أسباب الذوبان وفناء الأمم. ولكنه فناء بطيئ، لا يراه إلا العارفون بقوانين الاجتماع البشرى وسنن التاريخ، ولأنه يتم على مراحل تستغرق كل مرحلة منها جيلين أو ثلاثة.

- ففى المرحلة الأولى، تأخذ الأمة الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية والحربية.
- وفى المرحلة الثانية ، تأخذ الأمة العادات المادية، كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام.

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٣.

- وفى المرحلة الثالثة، تأخذ الأمة المظاهر الثقافية، كاللغات ونظم الإدارة والنظم الدبلوماسية والعلاقات الاجتماعية والفنون وأشكال الترويج.
- وفى المرحلة الرابعة، تأخذ الأمة القيم والمقاييس الاجتماعية والأخلاقية.
- وفى المرحلة الخامسة، تأخذ الأمة العقائد، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز، ويبدأ الذوبان الكامل.

الأمر الثالث: الذى يمثل أهمية الرسالة فى حياة الأمة هو أن الرسالة حاجة نفسية اجتماعية، والأمم التى تحمل رسالة، تحفظ وحدتها، وتجنب مجتمعها من الانقسام والتفتت والحزبية والطائفية والتصارع من أجل المصالح والعصبيات المحدودة، وتتناوب الظاهرتان بشكل كامل بحيث إن غياب إحداهما يؤدى إلى بروز الثانية، ذلك أن الرسالة توحد أفراد الأمة وجماعتها حول هدف أسمى، يستهلك طاقاتهم ونشاطاتهم، فتختفى الانقسامات والفتن، أما حين تغيب الرسالة، فإن الناس تتقاسمهم أهداف فردية ومصالح عصبية، وبذلك تبرز الحزبية والعصبيات، وتشيع الفتن، وتتفرق الأمة إلى فئات متنابذة متصارعة»[1] وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[2].

والمتأمل يرى أن العلاقة قائمة بين النظم الإسلامية وبين قيام الأمة المسلمة وإخراجها على المستوى العالمى، وهذه العلاقة هى أثر النظم فى تربية الفرد والأسرة والمجتمع، فكل أحكام النظم وقوانينها فى العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات تغرس فى المسلم روح الجماعة، «ويكفى الإشارة إلى زيادة الكم فى الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بالجماعة، على الآيات القرآنية الخاصة بالفرد، ولذلك نجد معظم آيات القرآن تأتى موجهة

(١) د . ماجد عرسان الكيلانى : إخراج الأمة المسلمة ٥٩.

(٢) سورة التوبة : آية ٣٩.

إلى الجماعة .. نداء لها وخطابا .. تحدثا عنها وحاكمة عليها .. آمرة إياها وناهية .. مذكرة لها ومحذرة. وكذلك يكون الشأن فى آيات القرآن المتعلقة بالفرد، حيث نجد فيها مايربطها بالجماعة لفظا ومعنى»[١].

ويضاف إلى ذلك التطبيق العملى لرسول الله – ﷺ – وصحابته ومن جاء بعدهم، فقد عملوا جميعا لإخراج الأمة المسلمة، فوضعت لبنتها الأولى فى حياة رسول الله – ﷺ – وواصل الصحابة هذا الدور حتى كمل كيان الأمة وأصبحت حقيقة واقعية تؤدى دورها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بطاقة وقوة تتناسب مع الأمة وقدرتها، وتلك هى الخلافة العالمية التى ندب الله إليها الأمة، «فالأمة الإسلامية أمة منتدبة من الحق لخلافة الله فى الأرض، وليس فى هذا الأمر مايجرح كبرياء أمة من الأمم، ولا مايحط من عزتها وكرامتها، لأن واضع هذا الانتداب – سبحانه – لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب، ولا وقفا على جنس من الأجناس، ولم يشترط له بيئة من البيئات، ولكنه جعله للجماعة التى تدين بشرائطه المقررة، وأصوله المعينة من أى جنس كان آحادها، وفى أى بقعة من الأرض تأسست دولتها»[٢] يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٣].

فالفضل فى بناء الأمة يرجع إلى النظم الإسلامية التى تحمل أصول الفكر الذى يساعد على ذلك، وتحمل المنهج العملى الذى يحقق ذلك.

ولكن إخراج الأمة المسلمة مرتبط بتطبيق الإسلام ونظمه، فتلك هى المقومات الأساسية لذلك، ولم يكن اختفاء دور الأمة الإسلامية وحقيقتها إلا

---

(١) د . مصطفى أبو سمك : نظرات فى نظم الإسلام وثقافته ١٥٦.

(٢) محمد فريد وجدى : مهمة الإسلام فى العالم ١١٣.

(٣) سورة البقرة : آية ١٤٣.

بسبب إهمال النظم الإسلامية والتفريط فيها، يقول تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[١].

أثر النظم في بناء الحضارة.

الحضارة «هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على زيادة انتاجه الثقافى بعناصر أربعة :

١) الموارد الاقتصادية.

٢) النظم السياسية.

٣) العقائد الخلقية.

٤) متابعة العلوم والفنون[٢].

وهى كذلك «تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها فى نظام اجتماعى، يقود الإنسان إلى الرقى والإخاء والأمان»[٣].

ويرى البعض أن التعريف الإسلامى للحضارة هو «القيم والأخلاق والعقيدة الخلاقة والخصائص الإنسانية العليا التى ينفرد بها الإنسان عن الحيوان»[٤] وذلك أنه «عندما طبقت شريعة الإسلام تطبيقا كاملا - ساد الأمة الإسلامية نظام واحد وفكر واحد - واتجاه واحده .. لأنها جميعا تستمد من نبع واحد وتسقى بماء واحد وتكون من ذلك - بعد الفتح الإسلامى لفارس والروم - عالم موحد فى روحه وطموحه وضميره وفكره وغايته وعمله ساده مايعرف فى التعبير العصرى «بائتلاف النغمة» .. إن

---

(١) سورة محمد : آية ٣٨.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، ترجمة د . زكى نجيب محمود، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م ٣/١.

(٣) أبو الأعلى المودودى : الحضارة الإسلامية، الطباعة العربية ٤، ٨.

(٤) د . توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، دار الوفاء بالمنصورة ط أولى ١٩٨٨م ٤٠.

هذا الذى حدث من التجانس العام فى عالم الإسلام يسمى : نظام الإسلام .. أما الحياة التى بدأت ثم ترعرعت وازدهرت - ثم توطدت وانتشرت فى «ظل نظام الإسلام» وتطبيقه بحركية إيجابية بناءة - وطاقة متجددة دائبة - ونماء موصول مطرد فى الزمان والمكان والإنسان فهو مايسمى «بالحضارة الإسلامية»(١).

فالحضارة هى الصورة المثلى التى تظهر فيها الملكات الإنسانية متفاعلة مع الكون فى إطار التفاعل والإنسجام لتحقيق الخير والسلام للجميع. وقد حملت النظم الإسلامية مقومات الحضارة فى معناها الصحيح، يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢)﴾(٢).

وهذه الآية القرآنية تعطى أسسا حضارية، ومقومات أساسية لابد منها لكى ينهض المجتمع المسلم بأداء واجبه فى الحياة.

إنها تشير إلى مايسمى فى العرف الحضارى - بالمنهج - وهو قوله سبحانه : ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فهو منهج ربانى، كما تشير إلى القيادة التى تتولى شرح المنهج والإشراف على تنفيذه، وذلك قوله سبحانه ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ومن بعده خلفاء مهديون يحملون العبء، وينهضون بالتبعة ويمضون على الدرب.

كما أنها تشير إلى العنصر الإنسانى، الذى ينتفع بالمنهج، ويتدرج فى سلم الحضارة وذلك قوله سبحانه : ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ فقد انتقلوا بالمنهج من الأمية إلى القيادة الحضارية، كما تشير إلى الجهد المبذول فى عملية تحضير الأمة الأمية، وهو الدور الشاق الذى قام به رسول الله - ﷺ - ليخرج العالم من الظلمات إلى النور.

---

(١) توفيق محمد سبع : قيم حضارية فى القرآن الكريم، دار المنار القاهرة ١٩٨٤م ٣٢/١.

(٢) سورة الجمعة : آية ٢.

وتشير الآية أيضا إلى مايسمى «بالساحة الحضارية» وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ فِي الأُمِّيِّينَ ﴾ فقد انطلق بهم المنهج السديد الربانى من شبه الجزيرة العربية حيث نواة الحضارة، إلى عالم أوسع وأرحب يشمل أغلب المعمورة. وتشير الآية كذلك إلى «نقطة الانطلاق الحضارى» وذلك قوله : «وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» فقد تعاملت الحضارة الإسلامية مع بيئة تحمل الحيرة، والقلق والجهالة، والسفه، والانحلال والتخبط.

وتشير الآية كذلك إلى «ثمرة الجهد» وقيمة المنهج. وذاك قوله سبحانه : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وبالمقارنة بين الصورتين تتضح لنا ثمرة المنهج الإلهى، والجهد التربوى الذى انتقل بالعالم - ممثلا فى العرب - من حالة الضلال المبين والحيرة الشديدة إلى حالة فكرية عملية جديدة تقوم على التعليم والتلاوة، ووعى الكتاب والحكمة. فتحولت حالة العرب من الصورة التى صورها القرآن فى قوله : ﴿ إذ كنتم أعداء ﴾[1] إلى الصورة الجديدة التى يصورها قوله : ﴿ فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[2].

إن الأسس الحضارية السابقة من «منهج للتربية، وقيادة، ومجتمع، وساحة، وجهد مبذول، وثمرة، هى التى جهد شراح الحضارة فى إيجاد الصيغة الملائمة للتعبير عنها. وربما كانوا يصورونها للناس على غير أساس، ولكن الآية القرآنية الكريمة، تحدد معالمها، وتشخص مقوماتها، فى دقة وشمول وحسن واستيعاب وبصيغة مختصرة لا تعنى ولاترهق»[3].

وفى ظل النظم الإسلامية بزغت شمس الحضارة الإسلامية وأشرق نورها، وهذا هو أثر النظم الإسلامية فى الحضارة، فكل مقومات الحضارة

(١ ، ٢) سورة آل عمران : آية ١٠٢.

(٣) توفيق سبع : قيم حضارية ٥٠ وما بعدها بتصرف.

موجودة فى الإسلام، وكذلك أسبابها ووسائلها، فالحض على العلم والتعلم والبحث والتحرى والاستنتاج كلها حقائق إسلامية، وأصول شرعية، تقوم عليها نظم الإسلام، يقول تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[١] ويقول تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[٢] ويقول تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾[٣].

وكذلك اهتم الإسلام بالإنسان فكرمه، وحفظ له مكانته بين المخلوقات الأخرى، وجعل التفكير والتعقل أخص خصائصه، ولذلك دعاه إلى إعمالها وتنميتها واستثمارها، وفتح له الطريق إلى ذلك فعرض عليه فى القرآن المنهج الصحيح إلى ذلك، وما أكثر الآيات القرآنية التى تؤكد ذلك وهى تعرض صوراً كونية من الأرض والسماء والنبات والحيوان والبحار والجبال، وصوراً إنسانية من أطوار الخلق ودقائق النفس، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾[٤]، كما اهتم الإسلام بالعمل كمقوم من مقومات الحضارة، فدعا إليه وحث عليه وحدد مجالاته التى تشمل الكون كله، وبين أسلوبه الصحيح وغاياته التى تجعله مشروعاً، وبين غير المشروع من الأعمال، وقد ارتقى الإسلام بمفهوم العبادة

---

(١) سورة العلق : آيات ١ – ٥.

(٢) سورة المجادلة : آية ١١.

(٣) سورة الغاشية : آيات ١٧ – ٢٠.

(٤) سورة آل عمران : آية ١٩٠، ١٩١.

فجعل العمل داخلا فيها إذا كان موصولاً بفكر الإسلام وعقيدته متصلا بمقاصده وغاياته، وذلك ليخرج المسلم من الحيرة الفكرية التى كان يعانى منها الإنسان فى غير الإسلام، فقد كانت الحضارات المادية والوضعية تفصل بين العمل الدنيوى وبين نظم العبادة فيها، أما فى نظم الإسلام «فالمؤمن يعبد الله ويتميز فى عبادته بهذه الشعائر الموقوته، كما يعبد الله بالفكر الراشد والعمل الصالح واستخراج الطيبات من الأرض»[١].

وقد عالجت النظم الإسلامية كل قضايا الحضارة بوضوح لاخفاء فيه وبموضوعية لا تزيد فيها وبعلمية تقوم على الحق والحقيقة، كما عالجت فكر الحضارة وقيمها، أى أن نظم الإسلام شيدت صرح حضارتها الخارجى والداخلى، المادى والروحى.

يذكر المستشرق الدنمركى جوستاف فون، أن التأثير الحضارى للإسلام ونظمه قد شمل تغييرات أساسية أحدثها فى مجال القيم، ومحور هذه التغييرات : تحديد هدف الحياة وغايتها وراء هذه الحياة الدنيا ومن ثم تكون قيمة أى إنجاز بشرى هى فى تقدير حسابه وجزائه فى الدار الآخرة الباقية، قد ضمن ذلك استمرارية الحياة الإنسانية بدون قطع أو تفتتها، وهكذا يتوالى السير ويتصل العمل ولا تكون الحياة تتابعا لتصرفات جزئية متقطعة منعزلة بعضها عن بعض».

ويضرب أمثلة للأسئلة الجوهرية التى يطرحها الإسلام من خلال نظمه، ويقدم لها الأجوبة وهى : «كيف تعيش حياة صحيحة، وكيف تفكر تفكيرا صحيحا، وكيف تقيم نظاما صحيحا؟ وكيف قدم الإسلام أجوبته لهذه المشكلات والقضايا فى التربية الصحيحة للفرد، والترتيب النسبى

---

(١) د . محمد فتحى عثمان : القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط أولى ١٩٨٢م ٧٣.

لمناشط الإنسان (الواجب، المندوب، المباح، المكروه، الحرام) وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة الساسية. وكان من ثمار هذه القيم الأساسية التى قررها الإسلام والأجوبة التى ارتآها للمشكلات الإنسانية الرئيسية فى ظل تلك القيم، أن استحدث الإسلام واجبات على عاتق الفرد أو عمد إلى تعديل واجبات قديمة، كما أنه قرر حقوقا جديدة. وتتناول هذه الواجبات والحقوق شتى مجالات السلوك الإنسانى، سواء السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى وعلاقة الفرد بقرابته أو بالجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة فى هذا الضوء، بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ومقاصده»[١].

وهذه الحضارة التى أقامها الإسلام أساسها العقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة والعبادات ذات الصلة بالفكر الحضارى والمعاملات الميسرة الواضحة والعلاقات الاجتماعية الصادقة الرصينة والمبدأ العام الأصيل الذى يرعى العدل والمساواة بين الجميع دون النظر أو التعويل على اللون أو الجنس أو البيئة.

ولما كانت نظم الإسلام من خصائصها العموم والشمول والربانية، والمعاصرة والأصالة، فقد أثرت كل هذه الخصائص فى بناء حضارة إسلامية إنسانية، وكل هذه المفردات التى تقوم عليها نظم الإسلام، إنما هى المفردات التى تكون الحضارة وتمثل روحها، لأن نظم الإسلام لم تترك شيئا فى الكون والنفس إلا وتناولته بالبيان والتنظيم ليأخذ مكانه الصحيح فى الحضارة الإسلامية.

وقد كان للحضارة الإسلامية خصائص لم تكن لحضارة أخرى، فقد قطعت شوطا زمانيا طويلا لم تبلغه حضارة أخرى، كما أنها بقيت تمارس دورها طول هذه المدة.

---

(١) د. محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية ٤٢ وما بعدها.

وأهم هذه الخصائص التى أنتجتها النظم الإسلامية لحضارتها :

أولا : أنها حضارة إيمان، تؤمن بالله ورسالاته وأنبيائه – عليهم السلام – وتهتدى بهدى خاتم النبيين محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – والحضارة الإسلامية عندما اتخذت من الإيمان ركيزة لها، إنما استهدفت أن تحمى كيانها بسياج منيع من القيم الروحية، والمثل الكريمة، فلا خير فى علم دون خلق.

ثانيا: إنها حضارة تقدمية بكل معانى الكلمة، لا جمود فيها، ولا رجعية، ذلك أن الإسلام الذى ولدت هذه الحضارة وشبت وترعرعت بين أحضانه، جاء ثورة ضد الظلم والاستغلال والجمود والنكوص، والإسلام لا يمنع المسلم من الأخذ بكل جديد، طالما أن هذا الجديد لا يتعارض مع روح الدين ومثله وآدابه.

ثالثا: إنها تتصف بالمرونة وسعة الأفق، بمعنى أن الحضارة الإسلامية لم تكن أبداً منذ مولدها منغلقة على نفسها، وإنما كانت دائما مرنة، قابلة للأخذ والعطاء، ولذلك وسعت كل الثقافات الأخرى وتعاملت معها بميزان الإسلام، فأخذت منها، وصاغت مافيها من تراث صياغة إسلامية، وهى فى كل ذلك تعمل على تنقيته من الشوائب الفكرية المنحرفة التى تخالف حقائقه وقواعده الأساسية.

رابعا: إنها حضارة محبة وسلام، تفرق بين السلام والاستسلام، وقد جعل الله شعار هذه الحضارة وتحية أهلها السلام، مما جعل كل أرجاء هذه الحضارة من البلاد والأقاليم التابعة لها تتمتع تحت مظلة من السلام لم تعرفه فى تاريخها السابق، حتى أطلق بعض المستشرقين على ذلك الوضع اسم السلم الإسلامى.

خامسا: إنها حضارة تسامح، لا حقد فيها، ولا كراهية، وقد جاءت مصادرها حافلة بالحقائق التى تدعو إلى ذلك وتحض عليه وترغب فيه، يقول تعالى : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾[١] ويقول تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٢].

سادسا: إن هذه الحضارة الإسلامية تتصف بالحيوية والاستمرار والوحدة، فهذه الحضارة منذ مولدها وحتى اليوم ظلت حية قائمة، لم تمت مطلقا، لئن تعرضت للذبول حينا نتيجة لعوامل طارئة، فإن مثل هذه العوامل كانت تؤثر فيها تأثيرا مؤقتا لا يلبث أن يزول بزوال المؤثر ... ولئن كانت الدولة الإسلامية الكبرى قد تفككت فى بعض مراحل التاريخ، فإن تمزق الوحدة السياسية للعالم الإسلامى لم يؤثر مطلقا فى استمرارية وحدته الحضارية.

سابعا: إنها حضارة إنسانية بكل معانى الكلمة، تستهدف أولا وأخيراً خير الإنسان فى الدنيا والآخرة، والرحمة به، والحفاظ على كرامته والنهوض بمستواه الروحى والفكرى والاجتماعى والاقتصادى، ومنع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وتجنيبه كل ما من شأنه أن ينزل به الضرر، ويظهر ذلك بوضوح فى تنظيم الإسلام حياة الإنسان الخاصة والعامة.

ثامنا: تتصف الحضارة الإسلامية بالأمانة المطلقة، وهى صفة تميزها عن كثير من الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها[٣].

---

(١) سورة الزخرف : آية ٨٩.

(٢) سورة الحجر : آية ٨٥.

(٣) د . سعيد عبدالفتاح عاشور : حضارة الإسلام، معهد الدراسات الإسلامية ط أولى ١٩٨٧م ١٤ وما بعدها بتصرف.

وقد ظهرت آثار تلك الحضارة التى بنتها النظم الإسلامية فى كثير من المجالات، وفى كثير من التخصصات، فكان التفوق العلمى، والتقدم العسكرى، والاقتصاد المتكامل، والبناء الاجتماعى المتماسك، حضارة لم يكن فيها جاهل ولا غريب، ترعى المحتاج، وتؤوى ابن السبيل وتحاصر الأزمات وتقضى على المشاكل، تتمتع بالتنظيم والتخطيط، حضارة صدح فيها صوت الأذان من الشرق إلى الغرب متواصلا بلا انقطاع لم يخل من صوت التوحيد وقت، ولم يقف جهازها الإعلامى عن تغذيه العقول والأفكار بأصول وثوابت ومرتكزات هذه الحضارة، حضارة الطائفين والعاكفين والقائمين والركع السجود، حضارة الرجل والمرأة، والشاب والكهل، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، حضارة أهل الفكر، وأهل الذكر، حضارة المحدِّثين، والمحدثين والفقهاء، وأهل الزهد، حضارة المعرفة بالله والولاية له. حضارة النشاط والوعى بالزمن، حضارة التذوق الجمالى والجمال الحسى والمعنوى، حضارة الضمير المؤمن، حضارة ذابت فيها الفوارق وانقطعت الحواجز، حضارة نصرة الضعيف، وتواضع الخلفاء والعلماء والمفكرين.

وبعد فهذه بعض الجوانب التى تظهر أثر النظم الإسلامية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والأمة، فى كل ميدان من ميادين الحياة، وفى كل جوانب النفس الإنسانية وأقطارها، أثر وصل إلى الذروة فى صورة حضارة إسلامية بكل ماتعنيه الكلمة، وفوق ماتعنيه فى كل الفلسفات، فالبون شاسع بين حضارة الإسلام وغيرها، وخصوصا إذا كانت حضارة الغرب المادى، والأمم السابقة لم يضف الى رصيدها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] ولم يضف إلى رصيدها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣.

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[1] ولم يضف إلى رصيدها ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾[2].

إنها حضارة الإسلام وحده، فهى حضارة إسلامية وكفى، حضارة النظم الإسلامية.

---

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠.

(٢) سورة الحج : آية ٤١.

المبحث الثالث : أثر النظم الوضعية (المادية)

تحدثنا فى مصادر النظم الوضعية عن الأصول التى تعتمد عليها هذه النظم فى القديم والحديث، وأنها لا تخرج عن المادية المفرطة المتمثلة فى العقل والطبيعة والعادات الشعبية، وقد تركت هذه النظم آثارها فى المجتمعات التى تأخذ بها.

أولا : أثرها فى الإنسان.

الإنسان مخلوق قابل للفجور والتقوى، ويتوقف ذلك على النظم التى تربيه وتغذيه، ومدى تكاملها وشموليتها، ومنهجها فى النظرة إلى الإنسان كمخلوق مادى فقط أو مادى وروحى معا، وقدرتها على التعامل مع جميع طاقات الإنسان.

وعندما نتأمل النظم الوضعية (المادية) فإننا نجد أنها لا تحمل عقيدة صحيحة تتناسب مع الجانب الروحى فى الإنسان، وإنما «العقيدة فى ظل النظريات الفلسفية والتربوية فى الغرب، تتشكل طبقا للرغبة .. فالرغبة فى شئ معين هى التى تولد فى العقل حوافز الاعتقاد بالكون أو الوجود حسب مقتضيات تلك الرغبة. وعلى المناهج التربوية هناك أن تيسر للعقل سبيل هذه الحوافز»(١).

وأما القيم التى توجه هذه النظم فمقطوعة الصلة بالدين، ويقتصر فيها على المنهج التجريبى فيما يتصل بالطبيعة وعلم الاجتماع، وقد أدى ذلك إلى التذبذب فى مفهوم القيم التى تأخذ بها النظم الوضعية، على سبيل المثال قيمة الحرية، والحق، والعفة، والصدق، والعلم، فالحرية عندما نتأمل وضعها فى النظم الوضعية، فإننا نجد أن الواقع فى مجتمع الغرب ينبئ أن

---

(١) د. محمد سعيد رمضان البوطى : منهج تربوى فريد فى القرآن ٧. نقلا عن عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٠٩.

الحرية هناك تنفصل عن الإحساس بالمسئولية، وتتم فى غياب أدنى شعور بالخضوع للمحاسبة، أى فى غياب الاعتقاد بوجود الله - عز وجل - بل إن الحرية هناك فى تلك المجتمعات لا تكاد تجد لها أثراً فى النفوس فى مفهومها السليم وعمقها الأصيل ... وفى الموقف الماركسى، نجده يكبل حرية الإنسان بما يسمى بالحتمية التاريخية.

وعن قيمة الحق نجد أن الالتزام بالحق عرضة للفرار منها والتنكر لها، لأنها فى اعتبار الإنسان الغربى تتنافى مع اللذة الزائفة التى يجنيها من الطريق السهل، طريق السكوت على الحق»[١].

وهكذا كل القيم التى تأخذ بها النظم الوضعية، قد تم تفريغها من المعنى الصحيح والمضمون، وأصبحت تفسر فى ضوء المصادر المادية التى تشكل فكر الغرب وعقله.

وقد تركت هذه النظم المادية من خلال تلك العقيدة الخاوية والقيم الخالية، آثارها فى الإنسان الغربى، «فكان الافتتان، وكان الغرور بالنفس والعقل، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾[٢] فادعى لنفسه ماليس لها، ونسب إليها القهر، والحكمة والعلم، والإبداع، وظهرت فى الغرب المؤلفات التى تمجد الإنسان وترفعه، من أمثال تلك الكتب «الإنسان يصنع نفسه» و «الإنسان يقف وحده» أى دون أى معونة من الله، ودون أى وصاية من الله، ليكون سيد الأرض وقاهرها، والمسيطر على الطبيعة»[٣].

والسبب فى ذلك يرجع إلى القصور الموجود فى هذه النظم وتصورها غير الصحيح للإنسان والحياة، وقد عبر عن هذه الحالة واحد منهم وهو الدكتور «ألكسيس كارليك» عندما سمى كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

---

(١) المصدر السابق ١١١ وما بعدها.

(٢) سورة العلق : آية ٦.

(٣) توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية ٤٨٥.

إن نظام القيم التربوية المادية يعصف بقوى الإنسان ويذهب بها طرائق قددا، ويلحق بها تشوهات مريعة يتحول معها الإنسان إلى كائن مستلب، غريب عن نفسه وغريب عن الكون الذى يحيط به ... فيصيبه الدوران والغثيان، ويشعر بالعبثية وانعدام معنى الحياة. إن الشخصية الإنسانية فى ظل القيم المادية، وقد فقدت صلتها بخالق الوجود، تنجرف مع تيار التطور، والتغير دون ضوابط ولا قيود»[١].

وقد أدت هذه النظم الوضعية إلى صياغة عقل الإنسان وفكره صياغة مادية أدت إلى أمور منها :

- عدم احترام خصائص الإنسان.
- نمو الخصائص الآلية والحيوانية.
- الخواء الروحى والنفسى.
- تمزق الرابط الأسرى.
- قياس التقدم الإنسانى بالمقاييس المادية»[٢].

إن الإنسان فى النظم الوضعية قلق لا يعرف الثبات ولا السكينة، ويفصح عن ذلك بحثه عن الشهوات والملذات، وبذله فى سبيل ذلك كل شئ، وقد يدفعه ذلك إلى الكذب والخداع لتحقيق ذلك، والاعتداء على الأوطان والأعراض، وسلب حريات الآخرين.

ثانيا: أثرها فى المجتمع.

المجتمع المادى محكوم بتصرفات الأفراد فيه، وقد وقفنا على المعاناة التى يعيشها الإنسان فى هذا المجتمع، وكان لابد أن ينعكس ذلك على جهاز

---

(١) د . عبدالمجيد بن مسعود : القيم الإسلامية التربوية ١٣٦.

(٢) توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية ٥٥٧.

المجتمع أو التنظيم الاجتماعي بالتهلهل والتحلل، وذلك في غياب القيم التي ترك للإنسان تحديدها، فالوضعية التي نادى بها «أوجست كونت» عدت الإنسان كائنا يستطيع أن يشكل قيمه بنفسه، ويحولها إلى دين وضعي، يضبط حركته الاجتماعية، ولا حاجة بعد إلى الأديان والقيم القديمة في زعمه. ثم ظهر بعد قرن كامل من الصراع والتجربة أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد القيم المجردة عن المصالح، لأن حب الإنسان لمصلحته، موجها من جانبه الحيواني حال بينه وبين فهم الإنسان من حيث معناه وشموليته، ومنعه من إيجاد تلك القيم المجردة التي تعبر عن المعنى الشامل لإنسانيته»[١].

وفي ظل هذه الآثار السيئة للنظم الوضعية كانت علاقات الإنسان في مجتمعه، وكانت صورة التعامل بين أفراد المجتمع، فالعلاقات مبنية على المصالح المتبادلة فقط، وهي بقدر ما تحقق من النفع المادي، فلا تزاور ولا تعارف، ولا تواصي بالحق، ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن منكر. يقول تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾[٢]. وإذا ما انتقلنا إلى العلاقات الاجتماعية الأخرى في المجتمع المادي الغربي فإننا سنجد أن الروابط الأسرية مفقودة وليس لها تأثير ولا ترتبط بغاية أوهدف، وإنما هي محكومة بالشهوة واللذة وبعد ذلك يأتي الزواج الذي لا يعرف الضوابط من الزوج أو من الزوجة، وقد ساعدت أحكام النظم الوضعية على ذلك، فالقانون لا يعاقب على الزنا إذا تم بالتراضي، وهو يفرق بين موقف الرجل والمرأة فيه، وهذا يؤثر على الأطفال وعلى النسل بصفة عامة، وهذا بدوره قد أدى إلى ظهور أطفال غير شرعيين وأصبحت الحاجة ماسة إلى الملاجئ وبيوت رعاية غير معروفي النسب واللقطاء.

---

(١) د . محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٧٢.

(٢) سورة التوبة : آية ٦٧.

وفى ظل ذلك أصبحت الأسرة سرابا ووهما، وأصبح النسل أمراً غير مرغوب فيه هروبا من المسؤولية وتحقيقا للشهوات وجريا وراء المتع والشهوات التى لا تحمل معها أدنى مسؤولية، ولم يعد الإنسان متكيفا مع مجتمعه، فالآباء والأمهات يتركون أو يودعون المصحات النفسية أو يزجون إلى جمعيات رعاية المسنين.

وحتى يكون حديثنا عن هذا النظام الاجتماعى موضوعيا فى ظل آثار النظم الوضعية فلابد أن نتكلم عن عناصر ثلاثة :

الأول: التحرر الوجدانى.

فقد التقت الأفكار فى المذاهب الوضعية الشيوعية منها والمدنية الحديثة، على أن التحرر الوجدانى يكون فى انطلاق الغرائز، وإشباع الجسد، والتحرر من القيم والأهداف العليا، فغرق الناس فى حمأة الجنس بتأثير هذا التحرر الكاذب، ثم نسوا بذلك أنهم ينحرفون عن الأخلاق ويصبحون عبيداً للشهواة الحرام، فراحوا يقولون : إن الجنس عملية بيولوجية بحتة، لا علاقة لها بالأخلاق.

الثانى: المساواة الإنسانية.

لا تعترف النظم الوضعية بالمساواة، ولا تعترف فى كثير من الأحيان بحق الآخرين فى الحياة، فمثلا تبيح هذه النظم للضمير الأمريكى إفناء عنصر الهنود الحمر، كما تبيح تلك التفرقة المقززة بين الأبيض والأسود. وفى جنوب أفريقيا تمارس هذه التفرقة، كما تبيح لحكومة روسيا والحبشة والفلبين وإسرائيل وغيرها إفناء المسلمين بالجملة، ويضافى إلى ذلك حديثا ماتم فى البوسنة والهرسك وما وقع قريبا فى أفغانستان.

ولقد نتج عن عدم المساواة، والاعتداد بالجنس، وبناء الغايات على التعالى والعصبية، كثير من الحروب والانحرافات. سمع الناس شعار النازية

والفاشية والإنجليزية، فقال الألمان : ألمانيا فوق الجميع، وقالت إيطاليا : إيطاليا فوق الجميع، وقال الإنجليز : سودى يابريطانيا واحكمى[١].

ثالثا: التكافل الاجتماعى.

وقد أثرت هذه النظم المادية فى هذا الجانب، وكانت أهم مظاهر هذا التأثير، أن التكافل الاجتماعى الغربى يقوم على الحقيقة التى توافق منهجهم الحسى والجسمانى والحيوانى، فهم يعاملون الإنسان العاجز، سواء كان كبير السن أو صاحب عاهة، على أنه حيوان، لا يحق له إلا أن يأكل ويشرب فى تلك الملاجئ إلى أن تأتيه منيته، وكانت بعض الدول تتخلص من هذا الصنف، لأنهم يمثلون عبئا على الدولة والمجتمع.

وفى مجال الأسرة، إذا بلغ الولد - ذكرا كان أو أنثى - سن السادسة عشر، فإن الأسرة تقصيه يصارع الحياة، فتخرج البنت لا تجد أحداً بجانبها، فى مجتمع لا يعترف بالقيم بل يعتبرها ضعفا إنسانيا، فتضطر إلى أن تأكل وتعيش، إما بذراعها، أو بجسدها[٢].

وهكذا فعلت النظم الوضعية بالمجتمعات الآخذة بها، وقد عظمت الآثار وفدحت النتائج، فقد «كان من نتائج الفرويدية تحطيم الأسرة وضوابطها، من خلال الفوضى الجنسية العارمة التى نفذت إلى كل جزئية من جزئيات الحياة الاجتماعية فى الحضارة الحديثة، ومن خلال الانحرافات المتلاحقة التى سببت أمراضا نفسية وجنسية خطيرة ومعقدة فى المجتمعات الغربية، وانتقلت جراثيمها بدرجات متفاوتة إلى المجتمعات الأخرى فى العالم كله.

ومن هنا فمنهج التغيير النفعى «البراجماتى» انتهى إلى التخلخل الخطير فى الحياة الاجتماعية فى المجتمع خاصة، لأنه رأى الحق فى تحقق

---

(١) توفيق يوسف الواعي : الحضارة الإسلامية ٥٥٨ وما بعدها بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٥٦٢.

المصلحة بمعزل عن القيم الروحية ومبادئ الحق والعدل المجردين فى تاريخ الفكر الإنسانى»[١].

تلك هى آثار النظم الوضعية فى المجتمع، تمزق وضياع، وفرقة، وأنانية، وفرقة واختلاف، واعتداء على الحرمات، وكبت للحريات وإهدار لكرامة الإنسان وضياع لحقوقه، بل إن الأعجب من ذلك أن الرق لا زال موجوداً فى بعض هذه المجتمعات، فالبنات تباع خشية الإنفاق وخوفا من الإملاق[٢].

ثالثا: أثرها فى الحضارة.

مفهوم الحضارة المتداول مادى، وحتى عندما يشير بعض الباحثين إلى الضمير أوالقيم الروحية، فإن مفهومهم لذلك يدور فى نفس الإطار المادى، فأبحاثهم لا تنطلق عن وحى صادق، وإنما تنطلق عن ظن وهوى وتخمين، وهم أعجز عن التشخيص الحق للحقيقة أو للدواء.

وحتى يكون وصف الحضارة موضوعيا علميا فلابد أن يجمع بين الحقائق المادية والروحية. فما هو موقع الحضارة الغربية التى قامت على النظم الوضعية؟ يقول ألكسيس كارليك : «أصبح كل شخص أكثر اهتماما بالاكتشافات التى تقلل من بذل المجهود الآدمى ... أكثر من اهتمامه بالاكتشافات التى تلقى بعض الضوء على أجسامنا وإحساساتنا. وهكذا أدى قهر العالم المادى الذى استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة إلى نسيان العالم العضوى والروحى نسيانا تاما»[٣].

---

(١) د. محسن عبدالحميد : المذهبية الإسلامية ٧٣ وما بعدها.

(٢) شاهدت فى عام ٢٠٠٢ برنامجا على إحدى الفضائيات يعرض تحقيقا حول هذا الموضوع، وكانت المبررات التى ذكرها الآباء لبيع بناتهن الفقر وكذلك لا داعى لوجود أكثر من بنت أو اثنتين فى البيت، وكان هذا فى دولة أوربية، كما ظهر أن من جملة أسباب وجود الرق فى هذه البلاد خطف البنات وبيعهن للملاهى وغيرها من بيوت الجنس والدعارة.

(٣) ألكسيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول ٢١.

وهذا يجعل مصطلح الحضارة أكبر من أن يطلق على مدنية أوربا وأمريكا، لأن هذه المظاهر تتجه فى اتجاه مادى لا علاقة لها بالروح، وقد أدى ذلك إلى شقاء الإنسان، «فإن العلم بمفهومه الغربى – وهو علم مادى بحت – وفر للإنسان راحة الجسم، ولم يوفر له راحة النفس، حقق له الرفاهية المادية، ولم يحقق له السكينة الروحية، هيأ له الوسائل والأدوات، ولم يهيئ له المقاصد والغايات، ولهذا عاش مزوق الظاهر، خراب الباطن ... ومن ثم رأينا الناس الذين يعيشون تحت سلطان هذه الحضارة يشكون من القلق والاكتئاب والخوف والأسى واليأس، والغربة النفسية، والشعور بالضياع وتفاهة الحياة، وأنها حياة لا هدف لها ولا رسالة ولا طعم ولا معنى. وهذا يحطم الإنسان من داخله.

والحضارة لم تجن على الإنسان وحده، لقد جنت على البيئة من حوله، فلوثتها بدخان مصانعها وفضلاتها، وآثار إشعاعها، ونفاياتها النووية، وتدخلاتها الكيماوية فى النبات والحيوان، وأكثر من ذلك آثار الهندسة الوراثية، وقد بدأت هذه النتائج تبدو للعيان فى مثل (جنون البقر) أضف إلى ذلك الإخلال بالتوازن الكونى، كما يبدو فيما ذكروه من (ثقب الأوزون) ولا ندرى ماذا بعد ذلك»[١].

وقد رصد القرآن الكريم هذه الآثار المترتبة على النظم الوضعية ولكن فى قوانين حقيقية ثابتة شاملة دائمة، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[٣] والحقائق القرآنية تشير إلى الأمراض

---

(١) د . يوسف القرضاوى : حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا ٨.

(٢) سورة طه : آية ١٢٤.

(٣) سورة الروم : آية ٤١.

النفسية التى هى آثار من آثار النظم الوضعية المادية البشرية، كما تشير إلى أنواع الفساد الذى يصيب الكون والمخلوقات من جراء هذا النوع من النظم، كما تشير إلى هذا الخلل الموجود فى تلك الحضارة إن صح أن يطلق عليها هذا المصطلح.

وقد ظهرت تلك الحقائق القرآنية فى المجتمعات التى تأخذ بالنظم الوضعية وباعتراف منهم يقول أحدهم : «إننا نواجه مشاكل أعظم خطورة تحتاج إلى حل سريع، إذ بالرغم من أننا نسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية .. الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال. فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية .. ففى بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى. وكالجنون، فإن الاضطرابات العصبية، وضعف القوى العقلية آخذة فى الزيادة .. وهى أكثر العناصر نشاطا فى جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر .. إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن»[١].

وقد تعددت الآثار الناجمة عن النظم الوضعية، ولم تترك مجالاً من مجالات الحياة إلا ظهرت فيه الآثار السيئة التى هى قانون وسنة إلهية تأتى عقابا للمخالفين وعذابا نفسيا وعضويا للمكذبين. تركت النظم المادية آثارها فى الجانب الاجتماعى والجانب الاقتصادى وأصبح سلوك الإنسان بعيداً عن الإنسانية، فالكذب والقذارة، والفقر، وخراب الحياة الزوجية آثار ظاهرة وواضحة [٢]. وقد أصبح الإنسان فى هذه الحضارة فاقداً لخصائص

---

(١) ألكيس كارليل : الإنسان ذلك المجهول ٣٤.

(٢) مصطفى فوزى غزال : الحضارة الغربية على شفا جرف هار، دار السلام، ط ثانية ١٩٨٧م/ ١٩، ٧٢، ٧٧.

الإنسانية فهو مترف فى اللذات، وهو لا يرى ولا يسمع غير مايتصل بها، وكأنه قد مسخ يقول تعالى - فى شأن من لا يستفيد من آيات الله، ويخالف شرعة ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾[١].

ولذلك تعالت صيحات المحذرين تحذر الناس من خطر هذه الحضارة. يقول العالم (رينيه دوبو) : «إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم فى بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أى تفكير، وأكثر مايزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة، والخليط الحضرى المتمرد، والعادات الاجتماعية التى تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»[٢].

ويقول الفيلسوف الأمريكى (جن ديوى) : «إن الحضارة التى تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة هذا العلم فى خلق قيم جديدة .. لهى حضارة تدمر نفسها بنفسها»[٣].

وهذه حقيقة، ولكن الحضارة لا تدمر نفسها بنفسها وإنما تدمرها السنن الإلهية والقوانين الربانية التى تعمل بإذن الله وأمره، كما دمرت فى السابق حضارة عاد وثمود وغيرهم فقد تشابهت الحضارتين القديمة والحديثة فى أسباب الهلاك التى كانت آثاراً للنظم الوضعية وكما أخذ الله الحضارة القديمة، فسوف يأخذ الحضارة الحديثة.

يقول أبو الأعلى المودودى : «إنه قد سلط على الأمم الغربية شيطانان قويان، يجرانها إلى مافيه الهلاك. أولهما شيطان قطع النسل والآخر

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٦٦.

(٢) رينيه دبو : إنسانية الإنسان، ترجمة د . نبيل صبحى الطويل، مؤسسة الرسالة ٣١.

(٣) المصدر السابق ٤٣.

شيطان القومية، فالشيطان الأول قد سيطر على أفرادها والآخر على أممها وحكوماتها، وإن الأول قد قلب عقول رجالها ونسائها فجعلهم يستأصلون أنسالهم بأيديهم. إنه يعلمهم تدابير منع الحمل، ويحضهم على تعمد الإسقاط ويلقنهم فوائد عملية التعقيم التى يقضون بها على قوتهم التوليدية للأبد، ويبعث فيهم من القسوة والغلظة ما يجعلهم يقتلون أولادهم بأيديهم، فهذا هو الشيطان الذى يدفعهم تدريجيا إلى الانتحار.

وأما الشيطان الآخر فقد سلب كابر ساستهم وقادة حربهم قوة التفكير السليم والتدبير الصحيح، فهو يبعث فيهم نزعات الأثرة والمسابقة والتنافر والتعصب والحرص والطمع، وذلك يقسمهم ويفرقهم شيعاً متعادية متحاربة، ليذيق بعضهم شدة بعض. وهذا أيضا من صور النقمة الإلهية»[١] يقول تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[٢].

وبعد فهذا تحذير للذين يسيرون فى ركاب النظم الوضعية، حتى لا يجلبوا على أنفسهم غضب الله وعقابه، وقد جاء الإسلام بنظمه واضحاً يحقق الأمن والأمان وفيه الكفاية والرشاد، وبه ستعود أمة الاسلام، وكما يقول أبو الحسن الندوى: «ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض، التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم، ومزاحمتها فى وضع العالم»[٣].

وصدق الله العظيم ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[٤].

---

(١) أبو الأعلى المودودى: نحن والحضارة الغربية ٧٧.

(٢) سورة الأنعام: آية ٦٥.

(٣) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين ٢٢٩.

(٤) سورة الصف: آية ٩.

الخاتمة

فى ختام هذه الدراسة حول «مقدمات فى النظم الإسلامية» يطيب لنا أن نسجل بعض النتائج التى وقفنا عليها وتحققت لدينا.

- أهمية النظم عموما والنظم الإسلامية خصوصاً للإنسان والمجتمعات فى كل زمان ومكان فالإنسان مدنى بطبعه.
- تؤكد النظم الإسلامية أن الأسرة هى أساس المجتمع الأول، ويرى علماء الاجتماع أن هناك ثلاث نظريات حول نشأة المجتمع وهى التوتمية والأمية والأسرة.
- أن غاية الاجتماع الإنسانى مرتبطة باستخلاف الإنسان فى الأرض، بينما ترى النظم الوضعية أنها مرتبطة بدوافع غريزية مادية بحتة.
- حتمية النظم الإسلامية للإنسان والمجتمعات البشرية، وذلك لصلاحيتها الذاتية وآثارها الطيبة.
- النظم الإسلامية تصاحب الإنسان الأول - آدم عليه السلام - منذ بدايته وترافق ذريته جيلا بعد جيل فى منهج حكيم وتدرج قويم، تقوم عليه رسالات الأنبياء والرسل - عليهم السلام - إلى أن اكتملت منظومة النظم الإسلامية فى رسالة سيدنا محمد - ﷺ - الخاتمة.
- النظم الإسلامية مصدرها الوحى الإلهى الذى يشمل القرآن والسنة والإجماع والقياس، بينما النظم الوضعية مصادرها العادات الشعبية وعقل الجماعة والطبيعة، وكلها مصادر بشرية.
- تتمتع النظم الإسلامية بخصائص الربانية والعموم والشمول والكمال والواقعية والجزاء كما أنها تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتغطى الزمان والمكان وتشمل كل المجالات الكونية والإنسانية، وأما خصائص النظم

الوضعية فبشرية المنهج، والعمومية والحتمية والتلقائية والنسبية والقهرية والموضوعية والنسقية والهدفية، وكلها خصائص وصفية من ترتيب الإنسان وعمله.

- تتعامل النظم الإسلامية مع الجانب الروحي والمادى فى الإنسان، بينما تتعامل النظم الوضعية مع الجانب المادى فى الإنسان فقط.

- أن للنظم الإسلامية آثاراً مادية ومعنوية تتصل بالإنسان والمجتمع، ربطها الإسلام بالطاعة والمعصية، وجاءت هذه الآثار فى النظم الوضعية محددة بالجانب المادى للإنسان والحياة ممثلة فى الزينة والشهوات.

- تعددت آثار النظم الإسلامية فى بناء الإنسان وبناء المجتمع والأسرة وإخراج الأمة، وحركت فى الإنسان كل مواهبه وملكاته الروحية والعقلية والمادية، بينما لم تخاطب النظم الوضعية فى الإنسان إلا جانبه المادى من خلال الغرائز والدوافع.

- أن النظم الإسلامية محكومة فى آثارها بقانون السنن الإلهية، بينما جاءت النظم الوضعية خالية من هذا الفكر الإسلامى العلمى.

- أخرجت النظم الإسلامية للإنسانية حضارة ربانية تعانقت فيها الحقائق المادية والمواهب الروحية، فأثمرت الأمن والسلام، بينما وقفت حضارة النظم الوضعية عند التعامل مع الجانب المادى للإنسان والحياة، فجلبت له الشقاء والتعاسة كماعبر عن ذلك فلاسفتهم وحكماؤهم.

- أن أمن العالم وسلامته مرتبط بالنظم الإسلامية بحثا وفهما وتطبيقا فكريا وعمليا، وأن على الشعوب الإسلامية القيام بهذا الواجب حتى تتحقق لهم الشهادة على الناس جميعاً فإن الرسول - ﷺ - سيكون شهيداً عليهم.

أهم المراجع[(١)]

أولا: القران الكريم.

ثانيا: التفسير.

الكتاب	المؤلف	النشر
١) تفسيرالقرآن العظيم	ابن كثير	مكتبة التراث
٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم	د. محمد سيد طنطاوى	مطبعة السعادة ط ثالثة ١٩٨٩م
٣) جامع البيان عن تأويل أيات القرآن	الطبرى	تحقيق محمود شاكر، أحمد محمد شاكر، دار المعارف ط ثانية ١٩٦٩م
٤) فى ظلال القرآن	سيد قطب	دار العلم بجدة ط الثانية عشرة ١٩٨٦م
٥) لطائف الإشارات	القشيرى	تحقيق د. إبراهيم بسيونى الهيئة العامة للكتاب ط ثانية ١٩٨١م
٦) مفاتيح الغيب	الرازى	دار إحياء التراث العربى بيروت ط ثالثة
٧) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور	البقاعى	تخريج عبدالرازق غالب، دار الكتب العلمية لبنان ١٩٩٥م
٨) الوسيط فى تفسير القرآن المجيد	الواحدى	تحقيق محمد حسن أبو العزم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م

(١) رتبت هذه المصادر دون النظر إلى ال التعريف.

ثالثا: الحديث النبوي.

الكتاب	المؤلف	النشر
١) جمع الجوامع	السيوطى	مجمع البحوث الإسلامية
٢) سنن ابن ماجة	محمد بن يزيد القزوينى	تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، دار الريان للتراث
٣) سنن أبى داود	أبو داود السجستانى	دار الحديث القاهرة ١٩٨٨م، دار الريان للتراث
٤) سنن الترمذى	محمد بن عيسى بن سورة	تحقيق أحمد شاكر، المكتبة الثقافية بيروت
٥) سنن الدارمى	عبدالله بن عبدالرحمن السمرقندى	تحقيق فواز أحمد زمزلى، خالد السبع العليمى، دار الريان للتراث ط أولى ١٩٨٧م
٦) صحيح البخارى	أبو عبدالله البخارى	هامش فتح البارى نفس الطبعة
٧) صحيح مسلم بشرح النووى	يحيى بن شرف	المطبعة المصرية ومكتبتها
٨) فتح البارى شرح صحيح البخارى	ابن حجر العسقلانى	راجعه طه عبدالرءوف سعد، مصطفى محمد الهوارى، الكليات الأزهرية
٩) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الهيثمى	دار الكتاب العربى بيروت ط ثالثة ١٩٨٢م
١٠) مسند أحمد	أحمد بن حنبل	دار صادر، لبنان ط أولى ١٩٦٩م
١١) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال	المتقى الهندى	تحقيق محمود عمر الدمياطى، دار الكتب العلمية ط أولى ١٩٩٨م

رابعا: المعاجم.

الكتاب	المؤلف	النشر
١) لسان العرب	ابن منظور	تحقيق عبدالله على الكبير وآخرون دار المعارف
٢) المعجم الكبير	مجمع اللغة العربية	الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م
٣) المعجم المفهرس	محمد فؤاد عبدالباقى	مؤسسة جمال للنشر بيروت
٤) المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية	مطابع دار المعارف ١٩٨٠م

خامسا: المراجع العامة.

الكتاب	المؤلف	النشر
١) الإتقان فى علوم القرآن	السيوطى	تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث ثالثة ١٩٨٥م
٢) الإجتهاد الجماعى فى التشريع الإسلامى	د. عبدالمجيد السوسرة	كتاب الأمة ط أولى ١٩٩٨م
٣) الإجتهاد فى الشريعة الإسلامية	د. يوسف القرضاوى	دار القلم ط ثانية ١٩٨٩م
٤) الإحكام فى أصول الأحكام	الآمدى	الحلبى ١٩٦٧م
٥) إخراج الأمة المسلمة	د. ماجد عرسان الكيلانى	كتاب الأمة ١٩٩١م
٦) أزمتنا الحضارية فى ضوء سنة الله فى الخلق	د. أحمد كنعان	كتاب الأمة ط أولى ١٩٩٠م

الكتاب	المؤلف	الناشر
٧) أسرار أركان الإسلام	عبدالوهاب الشعرانى	تحقيق عبدالقادر عطا. دار التراث العربى ط أولى ١٩٨٠م
٨) أسس علم الاجتماع	د. محمد عبدالسميع عثمان	المكتب الفنى بالزيتون
٩) الأسس الفكرية الإيمانية للدستور القرآنى	محمد تقى الأمينى	مراجعة د. عبدالحليم عويس، دار الصحوة ١٩٨٥م
١٠) الإسلام فى عصر العلم	د. محمد أحمد الغمراوى	دار الكتب الحديثة ١٩٧٧م
١١) الإسلام وأوضاعنا القانونية	عبدالقادر عودة	دار القرآن الكريم الكويت ١٩٧٧م
١٢) الإسلام يتحدى	وحيد خان	كتاب المختار ١٩٩١م
١٣) أصول الدعوة	د. عبدالكريم زيدان	
١٤) أصول الفقه	محمد أبو زهرة	دار الفكر العربى
١٥) أضواء على النظم والثقافة الإسلامية	د. عبدالغفار عزيز وآخرون	مؤسسة الوفاء للطباعة ١٩٨٢م
١٦) إظهار الحق	رحمت الله الهندى	تحقيق د. محمد أحمد ملكاوى، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء السعودية ط أولى ١٤١٠هـ
١٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	مصطفى صادق الرافعى	دار المنار ط أولى ١٩٩٧م
١٨) الإعلام	القرطبى	دار التراث العربى ١٩٨٠م
١٩) أعلام الموقعين عن رب العالمين	ابن القيم	راجعه طه عبدالرءوف سعد، الكليات الأزهرية ١٩٦٨م
٢٠) أفكار ورجال	كرين برنتن	ترجمة محمود محمود، [illegible] المصرية ١٩٦٥م

٢١) الإلحاد	عبدالرحمن عبد الخالق	مكتبة الحرمين ط ثانية
٢٢) الإنسان الأول والتشريع السماوى	د. محمد طموم	مطبعة حسان ١٩٨٤م
٢٣) الإنسان ذلك المجهول	ألكسيس كارليل	تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٦م
٢٤) الإنسان فى ظل الأديان	د. عمارة نجيب	المكتبة التوفيقية ١٩٧٧م
٢٥) إنسانية الإنسان	رينيه دبو	ترجمة د. نبيل صبحى مؤسسة الرسالة
٢٦) الإنسان فى العهد القديم والقرآن الكريم	د. محمدى عبدالبصير	رسالة العالمية (دكتوراة) بمكتبة أصول الدين القاهرة ١٩٩٦م
٢٧) الإيمان والتقوى فى القرآن الكريم	د. جوده المهدى	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م
٢٨) بردة المديح	البوصيرى	الشمرلى ١٩٧٧م
٢٩) بين الدين والعلم	أندرو ديكسون وايت	ترجمة إسماعيل مظهر، دار العصر بمصر ١٩٣٠م
٣٠) تراث العالم القديم	و.ج. دى بورج	ترجمة زكى سوس، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م
٣١) التطور والثبات فى حياة البشرية	محمد قطب	دار الشروق ط خامسة ١٩٨٣م
٣٢) الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة	د. محمد البطح	مطبعة رشوان ط أولى ٢٠٠١م

٣٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح	ابن تيمية	مطبعة المدنى
٣٤) حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا	د. يوسف القرضاوى	وهبة ط أولى ٢٠٠٠م
٣٥) حجة الله البالغة	عبدالرحيم الدهلوى	دار التراث ١٩٧٧م
٣٦) حضارة الإسلام	د. سعيد عبدالفتاح عاشور	ط أولى ١٩٨٧م
٣٧) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية	د. توفيق الواعى	دار الوفاء بالمنصورة ط أولى ١٩٨٨م
٣٨) الحضارة الغربية على شفا جرف هار	مصطفى فوزى غزال	دار السلام ط ثانية ١٩٨٧م
٣٩) حقيقة التوحيد	د. يوسف القرضاوى	وهبة ط سابعة ١٩٨٩م
٤٠) حول التفسير الإسلامى للتاريخ	محمد قطب	مؤسسة بدران
٤١) الخصائص العامة للإسلام	د. يوسف القرضاوى	وهبة ط أولى ١٩٧٧م
٤٢) الخطر اليهودى	محمد خليفة التونسى	المكتب العربى لبنان ط رابعة
٤٣) دراسات فى مشكلات الضبط الاجتماعى	د. محمد عبدالمعبود مرسى	
٤٤) دراسات فى النظم الإسلامية	د. محمد طلعت أبو صير، ومصطفى	

٤٥) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة	موريس بوكاى	دار المعارف ١٩٧٧م
٤٦) دستور الأخلاق فى القرآن	د. محمد دراز	تعريب وتحقيق د. عبدالصبور شاهين مؤسسة الرسالة ط ثامنة ١٩٩١م
٤٧) دفاع عن العقيدة ضد مطاعن المستشرقين	محمد الغزالى	دار الكتب الحديثة ط رابعة ١٩٧٥م
٤٨) الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه	عطية صقر	مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٨م
٤٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة	الراغب الأصفهانى	تحقيق د. أبو اليزيد العجمى دار الوفاء المنصورة ط ثانية ١٩٧٧م
٥٠) الرد على المنطقيين	.بن تيمية	تحقيق عبدالصمد شرف الدين، إدارة ترجمان السنة لاهور باكستان ١٩٧٦م
٥١) الرسالة	الإمام الشافعى	تحقيق أحمد شاكر دار الكتب العلمية
٥٢) الروض الأنف	السهيلى	دار المعرفة ١٩٧٨م
٥٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة	محمد فريد وجدى	مكتبة الأسرة ١٩٩٩م
٥٤) شريعة الله الخالدة	عبدالله منصور	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٩م
٥٥) الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع	منصور زويد	كتاب الأمة ط أولى ١٩٩٣م

الكتاب	المؤلف	النشر
٥٦) العبادة فى الإسلام	د. يوسف القرضاوى	وهبة ط سابعة ١٩٨٩م
٥٧) عقيدة المسلم	محمد الغزالى	دار الكتب الحديثة ١٩٨٠م
٥٨) العلمانية	سفر الحوالى	جامعة أم القرى، ط أولى ١٩٨٢م
٥٩) علم الاجتماع الإسلامى	د. زيدان عبدالباقى	
٦٠) العهد الجديد		دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ١٩٨٩م
٦١) العهد القديم		
٦٢) فقه الأولويات	د. يوسف القرضاوى	وهبة ط ثانية ١٩٩٦م
٦٣) فلسفة الإنذار	د. يحيي هاشم	ط أولى ١٩٨٤م
٦٤) قاموس علم الاجتماع	د. محمد عاطف غيث	الهيئة العامة للكتاب
٦٥) قصة الحضارة	ول ديورانت	ترجمة محمد بدران، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م
٦٦) قضايا علم الاجتماع	أوسيبوف	ترجمة سمير نعيم، د. فرج أحمد فرج دار المعارف ١٩٧٠م
٦٧) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر	د.عبدالمجيد بن مسعود	كتاب الأمة ط أولى ١٩٩٩م
٦٨) القيم الحضارية فى رسالة الإسلام	د. محمد فتحى عثمان	الدار السعودية للنشر ط أولى ١٩٨٢م
٦٩) قيم حضارية فى القرآن الكريم	توفيق سبع	دار المنار القاهرة ١٩٨٤م
٧٠) كتبوا على الطين	إدوارد كييرا	ترجمة د. محمود محمود مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٦٥م

٧١) كيف نتعامل مع	د. يوسف	دار الشروق ط ثالثة
القرآن	القرضاوى	٢٠٠٠م
٧٢) لمحات فى الثقافة	عمر عودة الخطيب	الرسالة ط تاسعة ١٩٨٤م
الإسلامية		
٧٣) ماذا خسر العالم	أبو الحسن النووى	مكتبة الإيمان المنصورة
بانحطاط المسلمين		١٩٩٤م
٧٤) مبادئ تاريخ	د. صوفى أبو طالب	دار النهضة العربية
القانون	د. محمد رجب	١٩٦٥م
٧٥) المجامع المسيحية	الشتيوى	١٩٨٧م
وأثرها فى		
النصرانية	د. إبراهيم	
٧٦) محاضرات فى	عبدالخميد سلامة	١٩٨٣م
التفسير الموضوعى	عبدالله علوان	
٧٧) محاضرة فى		دار السلام ط أولى
الشريعة الإسلامية	د. عبدالكريم زيدان	١٩٩٠م
٧٨) المدخل لدراسة		ط سابعة ١٩٨٢م
الشريعة الإسلامية	د. محمد رأفت	
٧٩) المدخل لدراسة	سعيد	هجر للطباعة والنشر
النظم الإسلامية	محمد قطب	١٩٨٧م
٨٠) مذاهب فكرية		دار الشروق ط سادسة
معاصرة	د. محسن	١٩٩٢م
٨١) المذهبية الإسلامية	عبدالحميد	كتاب الأمة ط ثانية
والتغيير الحضارى		١٤٠٤هـ
٨٢) المرجع فى		نخبة من أساتذة قسم
مصطلحات العلوم		الاجتماع، دار المعرفة
الاجتماعية	عمر عوده الخطيب	الجامعية بالاسكندرية
٨٣) المسألة الاجتماعية		الرسالة ط تاسعة ١٩٨٤م
بين الإسلام والنظم	د. على جريشة	
البشرية		

الكتاب	المؤلف	الناشر
٨٤) المشروعية الإسلامية العليا		دار الوفاء بالمنصورة ط ثانية ١٩٨٦م
٨٥) المصاحف	أبو بكر السجستانى	مؤسسة قرطبة ١٩٨٦م
٨٦) مصادر الأحكام الإسلامية	د. زكريا البرى	دار الإتحاد العربى ١٩٧٥م
٨٧) المصطلحات الأربعة فى القرآن	أبو الأعلى المودودى	دار التراث العربى ١٩٧٥م
٨٨) معالم الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى	د. خليفة العسال	ط ثانية ٢٠٠١م
٨٩) معجزة القرآن	محمد متولى الشعراوى	كتاب اليوم ١٩٨١م
٩٠) معلمة الإسلام	أنور الجندى	دار الصحوة ١٩٩١م
٩١) مفتريات أهل الكتاب حول الذات الإلهية	د. محمدى عبدالبصير	رسالة التخصص بكلية أصول الدين القاهرة ١٩٩٢م
٩٢) المفردات فى غريب القرآن	الراغب الأصفهانى	تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة بيروت
٩٣) مقالات الكوثرى	محمد زاهد الكوثرى	المكتبة الأزهرية ١٩٩٤م
٩٤) مقدمة ابن خلدون	عبدالرحمن بن خلدون	دار القلم بيروت ط رابعة ١٩٨١م
٩٥) مقومات المجتمع المسلم	د. فاروق أحمد دسوقى	دار الدعوة بالاسكندرية
٩٦) مناهل العرفان فى علوم القرآن	محمد عبدالعظيم الزرقانى	الحلبى ١٩٨٠م
٩٧) مهمة الإسلام فى العالم	محمد فريد وجدى	هدية مجلة الأزهر ١٤٢٢هـ
	الشاطبى	

٩٨) الموافقات في		شرح عبدالله دراز، دار
أصول الشريع	ابن تيمية	الفكر العربي
٩٩) موافقة صحيح		صبيح ١٩٦٦م
المنقول لصريح		
المعقول	د. محمد عبدالله	
١٠٠) النبأ العظيم	دراز	دار القلم ط رابعة ١٩٧٧م
	أبو الأعلى المودودي	
١٠١) نحن والحضارة		دار الفكر
الغربية	سيد قطب	
١٠٢) نحو مجتمع		دار الشروق ط ثالثة
إسلامي	د. حسن الشرقاوي	١٩٧٨م
١٠٣) نحو منهج		مطابع السفير
إسلامي	محمد علي السايس	بالإسكندرية
١٠٤) نشأة الفقه		سلسلة التوجيه التشريعي
الاجتهادي		مجمع البحوث الإسلامية
وتطوره	د. محمد عبدالعزيز	١٩٧١م
١٠٥) النصرانية بين	عوض	حولية أصول الدين القاهرة
المحلية والعالمية	د. مصطفى	١٩٩٨م
١٠٦) نظرات في نظم	أبوسمك	المؤسسة العربية الحديثة
الإسلام وثقافته	د. الحسيني	١٩٨٨
١٠٧) وثيقة مؤتمر	سليمان جاد	كتاب الأمة ط أولى ١٩٩٦م
السكان والتنمية		
رؤية شرعية	محمد رشيد رضا	
١٠٨) الوحي المحمدي		الزهراء للإعلام العربي
		١٩٨٨م

فهرس الموضوعات